قي عصور السال المالية المالية

المعلميرات ساطيعة مزيدة ومعدلة)

للدكتور شيدلفرني هيائي استاذ التاريخ المديم عميد كلية الإثاراليس ما مدتداهة

الناشر: مكسيدان كاوالمعسمية

معليمه جامعه العنصرة والسكتاب انتتامهي

اهداءات ١٩٩٦

جامعة القاصرة القاصرة

نانع سَيْلُولِ الْعَرِينَ الْعَرِينَ الْعَرِينَ الْعَرِينَ الْعَرِينَ الْعَرِينَ الْعَرِينَ الْعَرِينَ الْعَر

فيعضورها القتدىيمة

(معاضرات ـ طبعة مزيدة ومعدلة)

للدكتور عبدالعزم صالح العزم صالح المستاذ النتايغ القديم

عميدكلية الآثارالكسبق - جامعة لِمَاهرة



*neral Organization of the Alexandria Library (GOAL)

الناشر: مكث بترالأنجلوا لمصترية

مطبعة جامعة القاهره والسكتاب الجامعي ٢ ٩ ٩ ٢ رقم الإيداع ١٩٩١/٩٩٧٠ I.S.B.N. 977-05-1076-9

فهرس الموضوعات

ص.فحة																			
٣														ن	السكا	ئة و	ل البي	سة عز	مقد
λ.				بيثة	الحد	ثرية	نه الأ	, اسات	ودر										
۲ ۰						ر. ربية													
۳.															. الكت				
٣,															المسند				
٣٠															لنبطى				
٤١															هيد في			ل ال	القص
£ £																			
٤ ۽															ودا			ل الر	الفصد
٧١	,													تباں	و لة ق	– د	فأمس	لي ال	ا. ـ
41															و لة ،				
47													وت	لهر م	لة ح	دو	سابع	ل ال	القص
1 • 1														سان	لة أو	- دو	امن -	ل الث	الغصا
1 . 0		,				ية													
117								حمير	ارة	و سیع	Single	دان	وري	أوذ	لة سي	– در	اشر	ل الم	الفصرا
										ىربية	ل الد	راف	الأط	اطق		عشر	ادی ،	ا الم	الغصرا
140																			
117															مڻ ئ				
		·	;	د نبیاء	ت الأ									_				الثا	الفصا
1 8 4															مدين				
107														عاد.	قوم :	- (ثان		
100				,										ů.	الثمودي	_ 1	ثالث		
																		(의	القصا
109				,								لحبان	، و -	ددان	دو لة	- :	أوا		
177															دو لة				
									. ت	ألعر و	ف	طرا	Ş1.	عالك	- من	ئىر -	يععا	الرا	القصل
١٦٨															ملكة		_	•	-
1,77		•		·	į	·								-	دو لة				
184		•	·	•	•			u	سوه با	وعا	نجد	نی	کندة	. 3 K	Le _	عشر	بس:	III	القصل
191	•	•	•			٠.	بئر د	کة و	ζ	ر نل إلى	الثة	کز	، مر	أنتقاأ	_	عشر	ادس	الست	- الفصل
717	•	•															ئكال	ا و أ	شراثط
111	٠	•	•	•	•	-		ĺ									٠, ١	-	مر أجم



لسنم الأرازي (الرميمة

مقدمة عن البيئة والسكان

توافر لشبه الجزيرة العربية موقعها المكانى المتوسط بين بلاد الشرق الأدنى القديم، ودورها البشرى المؤثر فى تكوين السلالات الأكثر عدداً بين سكانه الأقدمين ، كما كان لها نصيب أيضاً من دور الوساطة والتأثير فى بعض خطوط اتصالاته واقتصادياته .

وسوف يكتفى هذا الكتاب فى منهاجه العلمى بتحليل المسارات الرئيسية للتاريخ العربى القديم ، والمعالم والتطورات العامة لحضاراته ، مع تأجيل التوسع فى مشكلاتها وتفاصيلها إلى مجلد أكبر نصدره قريباً على نسق بقية مؤلفاتنا الكبرة السابقة ، عشيئة الله تعالى .

وقد عرضنا في سياق الفصل الأول من مؤلفنا عن الشرق الأدنى القديم (ج١ – ١٩٦٧ ص ١ – ١٩٦٩ مل ١٩٩٠ ص ١٩٦٧) لنوعية التأثير ات المتبادلة بين بيئة شبه الجزيرة العربية وبين أهلها في العصور القديمة التي كافوا فيها أكثر التزاما بظروف بيئهم وإيجاءاتها عما هم عليه الآن إلى حد كبير ، وذلك من حيث مدى انطباعهم في بعض سبل معايشهم ، وبعض عاداتهم وعقائدهم ، وظروف تفرقهم أو تجمعهم ، وبداوتهم أو تحضرهم ، وتنقلهم أو استقرارهم ، غصائص الاتساع الجغرافي الكبير الشبه الجزيرة وتنوع تضاريسها بين صحراوات وواحات وجبال ووديان وسواحل، مع غلبة الطبيعة الصحراوية عليا — وما ترتب على هذا من تفاوت أسباب ونتائج الحصب الصحراوية عليا — وما ترتب على هذا من تفاوت أسباب ونتائج الحصب والانطلاق أو الانطواء ، واليسر أو المشقة في المعايش والاتصالات ، وهلم والانطلاق أو الانطواء ، واليسر أو المشقة في المعايش والاتصالات ، وهلم خرا . ثم من حيث تباين الفرص التي أتيحت أمام عتلف حماعات السكان هنا أوهناك في بجالات التبادل الاقتصادي والثقافي مع بقية الشعوب الحضرية أوهناك في بجالات التبادل الاقتصادي والثقافي مع بقية الشعوب الحضرية القدعة المعاصرة لهم ، نتيجة لاختلاف مواقع إقامتهم بالنسبة لجراءهم في الداخل

وفى الخارج ، وبالنسبة لانجاهات طرف التجاره البرية والبحرية الرئيسية القدعمسة .

وعرصنا فى الفصل ذاته لمسببات التحركات القبليه الداخلية القديمة ، أو الهجرات الداخلية المحدودة لمختلف البطون والعشائر فى شبه الجزيرة . تبعا لتفرق موارد المساء والتسابق إلى مناطق الكلأ . والناس المواطن ذات الحماية الطبيعية والأمن النسبي والموارد الكافية . ثم ما ترتب على هذا كله من تنمية الروح الاستقلالية لدى القبائل وبين الأفراد . فى مقابل تغليب المصالح القبلية على المصلحة العامة أو المصلحة القومية . وصعوبة قيام وحدة عامة بن السكان ، حتى وحدهم دين الإسلام ودولة الإسلام .

وناقشنا كذلك فى شيء من التفصيل المسببات المناخية والبشرية والاقتصادية المؤدية إلى خروج الهجرات البشرية الكبيرة من شبه الجزيرة إلى أطرافها . وفاضلنا بين النظريات المرجحة لتأثير دورات الحماف الشديد المتباعدة . وبين الآراء المرجحة لتأثيرات فترات الضعف السياسي وتحول طرق التجارة الرئيسية . كما تتبعنا المراحل المحتملة لهذه الهجرات حتى استقرارها فى مناطق الهلال الحصيب أو بقربها .

الحنس والاسم :

تعددت الآراء قديما وحديثا حول تحديد الموطن الأصلى للجنس الغالب في شبه الجزيرة العربية ، وهي آراء رغم كثرة ترديدها في مؤلفات التاريخ القديم ، لا تكاد تؤدى إلى نتائج يقينية في سوى أمرين : أولهما أن ضخامة الكتلة الصحراوية لشبه الجزيرة قد ساعدت على النقاء الجنسي واللغوى بين أهلها ، ومناطقها الوسطى مخاصة ، إلى حد نسبي كبير . والقول بالنسبية هنا ضرورة علمية لازمة حيث لا وجود لسلالة بشرية لم تغتلط بغيرها قط. وحيث دلت الشواهد التاريخية على أن اختلاط السلالات والأمم بعض قد يؤدى أحيانا إلى تجديد حيوبتها وثراء حضارتها . وذلك على شريطة ألا تطغى العناصر الاحيلة فها .

أما الأمر الثاني فهو ترجيح انتماء سكان شبه الجزيرة العربية في لبانتهم أوفى جوهرهم إلى سلالة بشرية متجانسة داب خصائص رئبسية متشايهة نعرف عادة باسم السلالة السامية (أو الساميين) , وهو اسم اصطلاحي نشره الباحث النمسوى سلوسر (August Ludvix Schlozor) في أواخر القرن الثامن حتر (١٧٨١م) واستعاره مما دكرته أنساب التوراة (في مثل الإصمحاح العاشر من سفر التكوين) عن ولد لنوح عليه السلام يدعى شام أو سام في مقابل ولد آخر يدعي حام . وولد ثالث يدعي يافث . وتواتر استخدام اسم الساميين بين معظم الباحثين ، وإن أصبح بعضهم يطلقونه أساساً على مجموعة اللغات ذات الأصل المشترك التي استخدمها سكان شبه الجزيرة وأطرافها . وجبرانهم ممن اتصلوا بهم بصلة الدم في الهلال الخصيب . أو بصلة الجوار والاستيطان والتعامل على الساحل الأفريقي لجنوب البحر الأحمر . وعلى الساحل الشمالى لأفريقيا (لاسما في قرطاجة الفينيقية) . وذلك أكثر مما يرتبونه على سلالة بشرية مغلقة على ذاتها . وهذا اتجاه سليم نعود إليه فى موضع آخر. ويكفى أن نشير هنا. إلى أن القرآن الكريم لم يذكر للنبي نموح عليه السلام غير ولد واحد كان من المغرقين . وذلك ثما يعني عدم ضرورة الالترام بالرواية العبرية وإن لم ينفها تماما . وأن الفوار والطبنية والشعوبيةالتي وضعها العبرانيون فى أنساب التوراة بين الساميين وبين الحاميين هي فوارق مفتعلة لم يسبب ظواهرها من حيث اختلاف اللون واللعة فى واقع الأمر غير الفوارق المناخية ومطالب البينات وفوارق اللهجات . على أننا قاء نضطر إلى استحدام تعبير الساميين وتعبر الحاميين أحيانا فى سياق أعاديثنا نظرا لشيوعهما . ولابأس من دلك ما دمنا نتبين حفيقة الأمر فبهما .

ومع وحده الأصل البعيد انتهب اللغات الدامية القديمة إلى شعبير كبير تين كانت لكل مهما فروعها العديدة . ودلك من قبل أن توحا. لغة القرآن الدصحى بيهما . وكانتا : شعبة سامية غربية شاعت بفواعدها ولهمجاتها في غرب شبه الجزيرة العربية ووسطها وجنوبها وشمالها، وفي أغلب بلاد الشام وأغلب مصر ، ثم بعد ذلك في جزء من شمال أفريقيا (وجزء من

شمال السودان) بل وامتدت قدعا من الين إلى أكسوم في الحبشة وجزء من الساحل الأفريقي القريب منها. ثم شعبة سامية شرقية شاعت مخصائصها في المناطق الشرقية من شبه الجزيرة العربية وما اتصل بها من نواحي الحليج العربي وجزره، وبلاد النهرين أو العراق القديم . وكنموذج للصلات القديمة بين الأصول وبين الفروع من هذه الشعوب المتجاورة قدمنا في الفصل الأول من كتاب الشرق الأدنى القديم نماذج من أوجه التشابه بين بعض قواعد اللغة العربية وبين بعض قواعد اللغة المصرية القديمة ، على الرغم من اختلاف صور الكتابة فيهما – وذلك مع تقدير أن قواعد اللغات لايمكن أن تنتقل مع التجارة أو باتصالات عارضة شأنها شأن المفردات اللفظية ، وإنما يدل مناجها بين اللغات على وحدة الأصول بيها في أغلب الأحوال حتى ولو كانت أصولا بعيدة . وذلك مما يمكن تقريبه إلى افتراض وجود أم لغوية قديمة واحدة وأبناء متنوعين أخذ كل منهم يطوع مفردات لغته ولهجما عاتناسب مع ظروف بيئته ومطالب حياته .

وتعددت الآراء مرة أخرى فى منشأ وتفسير تسميه « العرب » ، كماتعددت أمثالها فى شأن تسميات كثير من الشعوب والبلدان القديمة الأخرى (مثل تسميات مصر وسومر وعراق وشام وعبرى وآرام إلخ) .

فن وجهات النظر العربية القديمة فيها القول باشتقاق لفظ العرب من اسم جد أعلى كان يسمى يعرب بن قحطان ، أو من فعل يعرب بمعنى يفصح تدليلا على ما كان العرب يعتزون به من فصاحة البيان . . ، ثم القول باشتقاقها من اسم عربة وهو أحد أسماء مكة التي شب اسماعيل عليه السلام على أرضها ، أو هو اسم الجزء منها .

ومن وجهات النظر السامية الأخرى القول باشتقاق تسمية العرب من أحد الأصول التي خرجت مها كلمات عبرية شبية بها (وليس من الكلمات العبرية نفسها) مثل عرابة بمعنى الأرض الجافة ، وأرابا بمعنى الأرض الداكنة المعشبة ، وإرب بمعنى الشرود عن النظام، وعابار بمعنى التجوال أو الترحال . . . إلخ .

وعندما استخدمت النصوص المسهارية العرأقية القديمة تسميات « أربى » و « أريبي » و « أريبو » . . . إلخ ، بمعنى العربي والعرب والعربية منذ القرن التاسع ق . م . لم تقصرها على سكان شهه الجزيرة وحدهم، وإنما أطلقها كذلك على بعض أهل بادية جنوب الشام ، وعنت بهم (الأعراب) البدو في أغلب الأحوال . وكذا فعلت بعض قصص التوراة . كما مد المؤرخون والرحالة الإغربق والرومان فها بعد تسمية « أرابيا » إلى صحراء مصر الشرقية .

واستخدمت بعض النصوص المصرية القديمة لفظ « أربايا » تحريفا فيا يبدو عن « عربية » أو « العربية » ، للدلالة على المنطقة القريبة من الحدود. المصرية في شبه الجزيرة العربية . كما استخدمت النصوص الفارسية نفس اللفظ « أربايا » في القرن الحامس ق . م . للدلالة على بادية فلسطين وشبه جزيرة سيناء وما يتصل بها من شال شبه الجزيرة العربية .

ودلت تسمية «ع رب ن» و « أعرب» في نصوص الجنوب العربي القديمة على معنى الأعراب أساساً ، لاسيا الحيالة والأبالة من بدو وسبط شيه الجزيرة العربية ، وقالت علم فيلقالت « أعرب طودم » أى أعراب المفيعة أو أعراب النجد ، و « أعرب تهمت » أى أعراب تهامة آو الوديان والسهول الساحلية .

طبعة أولى – الرياض ١٩٦٤ -جدة ١٩١٠

طبعة ثانية - القاهرة ١٩٨٠

طنعة ثالثة -. القاهرة ١٩٨٨

القصيل الأول

مصادر البحث فى التاريخ العربي القديم ومراحل دراساته الحديثة

تعاقبت على شبه الجزيرة العربية خلال تاريخها القديم عصور كثيرة سبقت عهود الجاهلية بمعناها المحدود بقرون طويلة . وتعددت مصادر البحث في تاريخ هذه العصور ـــ و ممكن عرضها على النحو التالى :

أولا: الآثار المادية الباقية ، وهذه تبدأ بما خلفه إنسانها البدائي القديم في دهوره الحجرية من أدوات حجرية متواضعة ، وماخطه من رسوم بدائية متفرقة . ثم تتضمن أساساً ماتركته الجماعات العربية المتحضرة في عصورها التاريخية القديمة من آثار معمارية قائمة كبقايا المعابد والأسوار والسدود . والحصون والأبراج ، والمساكن والمقابر ، وما عثر عليه في هذه وتلك من آثار منقولة متنوعة لأدوات الاستعمال اليومي وأدوات الزينة وفنون النحت والنقش ، في مناطق عدة من أنحاء شبه الجزيرة العربية .

والآثار فيا نعلم في التاريخ الحي لأهلها ، أو هي الشاهد الصادق على حضارة أصحابها ، فهي تكشف عن مدى التقدم أو مدى البداءة في إنتاجهم ، ومدى الثراء أو مدى الفقر في إمكاناتهم ، ومدى الأصالة أو مدى التقليد في صناعاتهم ، ومدى التأثير بين حضارتهم وبين حضارات في صناعاتهم ، ومدى التأثير أو مدى التأثير بين حضارتهم وبين حضارات جرانهم ، تم هي تعبر عن هيئاتهم وأزيائهم وطبيعة أذواقهم ، ولا جدال في أنه كلما زاد الكشف عن هده الآثار كلما زادت الحصيلة التي يستنتج منها تاريخ بلدها وقومها . .

و هد بضاف إلى مدلول الآثار مايهم به علماء الأنثروبولوجي من دراسة الهاكل البشرية التي يمكن أن تحدد السلالات ومدى النقاء أو مدى الاختلاط النبي فيها . ثم ما بهم به علماء الجيولوجيا والجغرافيا الطبيعية والتاريخية من دراسة التكوينات البيئية لتحديد الأماكن القديمة للآبار والواحات والمناجم،

ومواطن الاستقرار والاستمار الفديمة . فضلا على ظروف المناخ واتجاهات الهديان ومسالك الهجرات والتجارة . وهلم جرا . .

ثانياً: النصوص العربية القديمة التي عثر عليها داخل شبه الجزيرة وخارجها . سواء كتبت مخطوط المسند ومشتقاته ، أم بالحطوط الأرامية - لاسما النبطية والمتعصوبية ، أم بالحطوط العربيه الحالصة .

والنصوص سواء أكانت شخصية أم سياسية أم حربية أم دينية تمثل تروة تاريخية مفيدة ، وتسجل رأى أهلها في أنفسهم ووجهات نظرهم في علاقاتهم جرائهم . ولكا إذا عوملت بموازين النقد العلمي احتمل بعضها الشك كما يحتمل بعصها التأييد . وبتعبر آخر فإن النصوص القديمة مع أهميتها في التعبير عن آراء أصحابها لا تخلو عادة من مبالغات في تضخيم الانتصارات إذا كانت نصوصا حربية . ولاتخلو من الإسراف في تعظيم وتقديس الملوك والرؤساء إذا كانت نصوصا رسمية أو نصوصا للموظفين وأتباء الحكام . ولاتخلو من ادعاءات بالصلاح والإصلاح إذا كانت تصوصا شخصية . ولاتخلو من تكرار وسداجة إذا كان كتبها من الأفراد البسطاء . ولاتخلو من تحوض الاصطلاحات إذا كان كتبها من الأفراد البسطاء . ولاتخلو من تحوض الاصطلاحات إذا كانت نصوصا إدارية أو تقنينية . ولاتخلو من تحوض الاصطلاحات إذا كانت نصوصا إدارية أو تقنينية . ولاتخلو وعلى الرغم من ذلك كله ، هي المصدر الرئيسي. لتصوير عادات أهلها وعقائدهم وأوضاعهم السياسية والاجتاعية وعلاقاتهم الحارجية . فضلا على ما يمكن أن يستفاد به من بن سطورها مما لم يشأ كتبتها أن يفصحوا عنه مراحة من مشكلات عصورهم .

وجلى أن ماعقبنا به هناعلى إيجابيات وسلبيات الآثار والنصوص العربية القدمة عكن أن يقال كذلك عن بقية الآنار والنصوص القدممة كلها . .

ثالثاً : النصوص المهارية التي تحدثت عن علاقات بعض دول العواق القدعة بعدد من قبائل ودويلات شبه الجريرة منذ القرن الناسع ق . م ـ بهذه هي الأخرى لاتحلو من قيسة ولاتخلو من شك في الوقت داته .

فهى قد اعتادت على أن تنسب إلى أصحابها الأشوريين والبابليين سلطانا واسعا ، وأسرفت في نصوير انتصاراتهم الحربية على العرب ــ أو الأعراب. وتعتبر فى أغلبها نصوصا تعبر عن جانب واحد نظرا لأنه لم يعبر على نصوص عربية تقابلها وتعاصرها وتشرح وجهة نظر أصحابها إلا فى القليل النادر . وذلك مما يعنى أنه ليس من ضرورة إلى التسليم بحرفية أخبارها . ولكن نفس هذه النصوص المسارية على الرغم من تحيزها ومبالغاتها لم تخل مما يستفاد به منها . فهى أقدم المصادر التي سحلت تسمية العرب كتابة منذ أواسط القرن التاسع ق . م . (بصيغ أربى وأرببي وأرببو) كما أسلفنا . وهى المصادر الوحيدة حتى الآن التي تحدثت عن نحو همت ملكات عربيات شماليات ظهرن خلال القرن الثامن والقرن السابع ق . م .

- وإذا كانت المصادر المصرية القديمة المعاصرة المصادر العراقية لم تسجل تسمية العرب صراحة إلا في قرون متأخرة في الزمن نسبياً ، إلا أنها ذكرت قبل ذلك بقرون طويلة أسماء بعض المناطق الإقليمية على طرق التجارة في شمال شبه الجزيرة ، كما أشارت إلى استخدام منتجات الجنوب العربي في مصر بوفرة منذ الألف الثاني ق . م . على أقل تقدير ، ودلت بذلك على قدم المصالاتها بأهله اتصالا مباشرا أحيانا وعن طريق وسطاء التجارة أحيانا أخرى .

وابغاً: مصاهره التوراة: وهذه بما تضعمنته من أسفار وقصص ليست كلها مزلة من البياء وليست كلها من رسالات الأنبياء وإذا كان بعضها له قداسته ، فإن بعضها الآخر تضمن أخبارا أضافها الأحبار والرواة . وصورت هذه المصادر في عبارات مقتضبة من سفر التكوين وسفر حزقيال وسفر المزامير وسفر عاموس وسفر دانيال ومن التلمود ، علاقات العبرانيين ببعض قبائل ودويلات عرب شبه الجزيرة ، و معلوماتهم عهم وعن مناطقهم . تصويرا بعضه مقبول وأغابه مفتعل . وحاولت أن ترتب أنساب القبائل التي عرفها العبرائيون ترتيبا قليله مقبول وكثيره مفتعل أيضاً . ولهذا تؤخذ معلوماتها كذر شديد .

خامساً : كتابات الرحالة والمؤرخين الإغريق والرومان الذين زاروا أطراف وسواحل شبه الجزيرة العربية أو حموا الاخبار عنها ممن زاروها من قبلهم ، ثم سملوا أسماء بعض دولها ومدنها وموانيها وقبائلها ، وأهم مصادر النروة فيها . وطرق التجارة منها وإليها . وضمنوها فى مولفاتهم ابتداء من القرن الحامس ق . م . على وجه التقريب . ومن هذه الكتابات ما هوواقعى صحيح مفيد . ومنها ما يسوده الوهم والحيال وتحريف الأسماء نظرا لقصر زياراتهم لها ولاختلاف لغاتهم عن اللغة العربية وشقيقاتها الساميات .

ومن أهم هولاء الرحالة والمؤرخين هيرودوت (في أواسط القرن الحامس ق . م .) وثيوفراتيس (في أواخر القرن الرابع ق . م .) وجوبا (في أواخر القرن الرابع ق . م .) وجوبا (في أواخر القرن الثاني ق . م .) وجوبا (في أواخر القرن الثاني ق . م .) ، وديه دور الصقلي (في أواسط القرن الأول ق . م .) ، والميزي (في أوائل القرن الأول القرن الأول القرن الأول القرن الأول القرن الأول القرن الثاني الميلادي) ، وبطلميوس (في أواسط القرن الثاني الميلادي) ، ومؤلف الطواف حول البحر الإريتري (بين القرئين الأول والثالث للميلاد) ، ويوسيبيوس (في أوائل القرن الرابع الميلادي) . ثم مجموعة من المؤرخين والرحالة المسيحين والميز نطيين اللهين اتصلوا بالحيشة وإمار تي الحيرة وغسان ، وشمعون مؤلف رسائل الشهداء الحميريين في في أوائل ، وبروكوبيوس صاحب كتاب تاريخ الحروب وصديق القائل البنزليوس ، وغيرهم

ولا تقتصر أهمية ماكتبه هو لاء الكلاسيكيون على ما تضمنه من معلومات ، وإنما يفيد كثيواً أيضاً في عقد التواريخ المقارنة بين العهود التي تحدثوا عنها ويمكن تحديدها ، وبن أحداث شبه الجزيرة التي عجزت تصوصها عن تحديد زمنها بدفة .

سادساً: آیات الفرآن الکریم التی وصفت بعض أحوال الشعوب العربیة الفدعة، و نبهت إلى العبرة من مسلك أهلها مع الرسل و الأنبیاء ، و بینت أنه کان فهم مؤمنون و کفرة ، وعلماء و جهلة ، و أبعضهم ممالك و منشآت لا سیا فیا یختص بابراهیم و اسیاعیل علیهما السلام ، و مکة و البیت الحرام ، و أقوام شعیب و هو د و صالح و غیرهم فی مدین و عاد و إرم و ثمو د و أصحاب الرس و سباً و الأخدود ، إلخ .

ويقترن ببعض ماجاء به القرآن الكريم ما ورد من أحاديث ببوية تعرضت أحياناً بالتعديل أو النقد أو النجريح أو الإجازة لبعض أوضاع الحياة الاجتماعية راسياسية والاقتصادية في عهود الجاهلية القريبة من بداية العصور الإسلامية .

سابعاً: مؤلفات المؤرخين المسلمين التي جمعوا بعض أخبارها من التي ؛ للمربية والأشعار الجاهلية وسلاسل الأنساب المروية، وحمعوا بعضاً آخر من اخبارها من الإسرائيليات والقصص السريانية بل والفارسية، فصلا على مشاهداتهم الشخصية لما بتي من آثار المدن والمعابد والمقابر القديمة حتى العهود التي عاشوا فها.

ومن هؤلاء المؤرخين :

عبيد بن شرية الجوهمي اليمني (في القرن الهجري الأول): ونسب إليه « كتاب الملوك وأخبار الماضين » .

و هب بن منبه (ت ۱۱۰ه): ونسب إليه «كتاب الملوك المتوجة من حمير وأخيارهم وقصصهم فرقبورهم وأشعارهم »، و «كتاب المبتدأ ».

هشام بن محمد بن سائب الكلبي (ت ٢٠٤ ه): ومن مو لفاته الكثيرة « جمهرة النسب » أو « الجمهرة في الأنساب » ، و « كتاب الأصنام » . و نسب إليه « كتاب الحيرة » ، و « كتاب الحيرة و تسمية البيع والديارات و نسب العياديين » و « كتاب ملوك كندة » و « كتاب الكلاب الأول » و الكلاب الثاني » . . . ، المخ .

محمد بن هشام بن أيوب الحميري (ت ٢١٣ ه) : وأخرج «كتاب التيجال وملوك حمير ».

أبر محمد الحسن الهمداني (تُ ٣٣٤ هـ) : ومن مولفاته الضمخمه « الإنخليل ، و ، سفة جزيرة العرب » و ، ملوك كندة » .

ونسب إلى الأصمعي كاب « جزيرة العرب » و « مياه العرب » . . إلخ . وأخرج الحسن الغدة الأصفهاني مولفه عن « بلاد العرب » .

وألف نشوان الحميري «القصيدة الحميرية» ، و « القصيدة اليائية » . إلخ.

وأقرب إلى الوقائع التاريخية فيا كتبه هوًلاء المورخون المسلمون هي أخبارعهود الجاهلية القريبة من ظهور الإسلام،أما ما سبقها من عصنور فقل منهم من أخضع رواياته عنها للنقد العلمي . وندر منهم من استطاع أن يقرأ لصوصها القديمة قراءة سليمة .

وكماكانت أشعار الجاهليه من المصادر التي اعتمد عليها هوّلاء الموّرخون وكثير غير هم . فهي لا زالت في حد ذاتها مصدراً لتصوير أيام العرب وحروبهم وعاداتهم الاجتماعية ومثلهم العليا . وذلك على الرغم مما ينبه النقاد إليه من كترة منحولاتها الأدبية والتاريخية .

* * *

تلك إذن مصادر عدة فيا رأينا ، ولكنها في حقيقتها لا تزال مصادر شحيحة لا تعطى الكثير لا سيا بالنسبة للعصور الأولى من التاريخ العربي القديم . وهي باستثناء آيات القرآن الكريم ، تتفاوت فيا بينها في مدى صحبها ومدى وضوح تعبيراتها ، ومدى المحلية أو العمومية في أخبارها ، وإن كانت لا تخلو على الرغم من بعض أوجه النقص فيها ، مما يستفاد به منها في تحديد وتصوير المحطوط العامة للتاريخ العربي القديم .

وليس من شك فى أن أوسع المصاهر السابقة تعبيراً عن أحوال سكان شبه الجزيرة الأقدمين . هما المصدران الأولان . أى الآثار العربية القديمة الباقية . والنصوص العربية القدمة الباقية .

وقل نصبب أراضي المناطق الوسطى والشمالية والشرقية لشبه الجزيرة العربية من هذين المصدرين حتى الآن نتيجة لأربعة أسباب هي :

- قلة البحوث الأثرية التي أجريت فها قلة نسبية ، إلى إن أخذت الدولة السعودية . ودول الحليج العربي ، تولى هذه البحوث عناية طيبة خلال العقود الأخرة .

- شدة اتساع أرضها الذى كان من عوائق أجباع سكانها القدماء قبل الإسلام فى دولة كبيرة واحدة تستطيع أن تقيم تنظيات مستقرة ومنشآت كبيرة، أو تعمل على تدوين أخبارها فى نصوص كبيرة متصلة .

قلة مواردها الطبيعية القديمة قلة نسبية لم تسمح لجموعها بأن يقيموا
 غير منشآت صغيرة لم تستطع مغالبة عوادى الزمن إلا فى الشيال الغربى

- عدم احتفال أهل العصور الإسلامية المتعاقبة حتى بداية العهود الحديثة برعاية الآثار القديمة في البلاد التي نشأ الإسلام فيها . نتيجة لاختلاف عقائدها عن ديانة التوحيد . ونتيجة لما وجدوه من صعوبة في معرفة أغراضها الحقيقية وصعوبة قراءة نصوصها قراءة صيحة .

وزاد حظ المناطق الجنوبية القديمة من شبه الجزيرة العربية من هذين المصدرين . أى من الآثار والنصوص الباقية . نتيجة لسنة أسباب . وهى :

-- ظهور الكتابة فيها في وقت مبكر نسبياً ثما ساعد على وفره نصوصها المكتوبة وفرة نسبية وقدم عهدها قدماً نسبياً أيضاً .

-- بعدها النسبي عن مركز نشأة الدعوة الإسلامية فى الشال الغربي مما ساعد على بقاء بعض آثارها الظاهرة ونصوصها القديمة إلى الآن نظراً لتجاوز العصور الإسلامية المتتابعة عن إزالتها .

- تعدد الفواصل الطبيعية فى أرضها ثمّا عمل على تجميع أعداد متجانسة من سكانها فى دول سياسية واضحة الحدود والمعالم اهتمت بتدوين أخبارها وعملت كل منها على تمينز إنتاجها الحضارى ما استطاعت .

- سُمَّاء بيئتُها الطبيعية القديمة سُمَّاء نسبياً ممَّا يسر استقرار دولها وطول أُمَّد عَهُودُهَا وكثرة منشآ تَهَا .

- وفرة موارد تجارتها القديمة القائمة على الإنتاج الداخلي وعلى الوساطة الحارجية ، مما شجع أهلها على أن يقيموا آثاراً ضخمة قاومت عوادى الزمن وبتى بعضها حتى الآن . .

- بدء أعمال البحث الأثرى فيها فى وقت مبكر نسبياً من العصر الحديث . وعلى أية حال، فقد خضعت كل من آثار الجنوب والشبال والشرق والغرب فى شبه الجزيرة لعوامل هدامة أخرى قللت من أعدادها ومن أصجامها . ألا وهى شدة السيول والعواصف التى كانت تطيح بما لا يثبت أمامها من المبانى ، وقلة اهمامالهر ب القدماء أنفسهم بالتعمق فى إرساء أسس مبانيهم مما عجل بالهيارها . ثم انتفاع الأجيال المتعاقبة من السكان بأحجار المبانى القديمة فى إقامة مبانيهم . فضلا على ما جناه لصوص الآثار فى العصر الحديث من سرقة الآثار الصغيرة الفنية الثينة للاتجار بها .

نشأة الدراسات والاكتشافات الحديثة :

انتفعت الدراسات التاريخية الحديثة لشبه الجنويرة العربية كما انتفعت أمثالها في بقية مناطق الشرق القديم بأنشطة حركة البحث العلمي وجهود الكشف عن الحضارات القديمة وإحياء الترات التي نشأت في أوروبا منذ القرن الثامن عشر وماتلاه . وبفضلها ثابرت مجهودات البحث العلمي والأثرى في العصر الحديث على كشف النقاب عن التاريخ العربي القديم بنصوصه وآثاره من أجل التعرف عليه كماصنعه أصحابه أو كما سجلوه بأنفسهم .

ولفت أنظار أوائل المؤرخين والرحالة الحديثين الأجانب إلى تاريخ وآثار شبه الجرّيرة العربية ما أثبت به الكتب المقدسة عن ملكة متباً وثراء دولتها ، وعن أقوام مدين وعاد وثمود من نوما كتبه الكلاسيكيون الإغريق والرومان عن أرض البخور وتجاربها ، وما قرأه المستشرقون من كتب المؤرخين والجغرافيين المسلمين ، إلى جانب دافع الفضول عندهم لمعرفة المزيد عن الأرض التي انبعث الإسلام منها .

وإذا كان واقع الأمريدعو إلى الاعتراف بأن أغلب من سئتناول جهودهم من المؤرخين والآثاريين والرحالة فى العصر الحديث كانوا من الأوروبين، فإنه يجب الاعتراف كذلك بأن تحفظ الدولة العيانية التي كانت تسيطر على الشرق الإسلامي حينذاك ، وتخوف المسلمين من سوابق أطاع المستعمرين الغربيين ، كلاهما حا،د عدد البعثات العلمية وجعل أغلب جهودها فردية تتم الغربيين ، كلاهما حا،د عدد البعثات العلمية وجعل أغلب جهودها فردية تتم في غير علنية وبغير الطرق الرسمية بل وعن غير طريق المتخصصين أحيانا.

وفى الوقت نفسه لم تكن حركة الكشف العلمى الأوروبى تسهدف غرضاً واحداً ، أو تسهدف العلم وحده ، وإنما كانت تسهدف الكشف عن خبايا الأرض والنروات الطبيعية ، وعن المعالم الجغرافية والمعالم التاريخية فى آن واحد . ويبدو أنه كان لوجود أعداد من اليهود والأغراب المستوطئين فى مناطق الجنوب العربى أثر فى اتجاه أوائل الرحلات الكشفية الحديثة إليها لسهولة التخفى فى زى بعض طوائف سكانها والطارثين عليها وبالتالى إمكانية التنقل فى أراضيها . وسوف نكتنى فيا يلى بحديث موجز عن الرواد الأوائل الذين يسروا السبيل أمام الدراسات الموسعة فى الوقت الحاصر .

فتحت أبواب الدراسات التاريخية الحديثة لمناطق الجنوب العربي بعثة يسرت لها حكومة الدائم له طريق الوصول إلى اليمن في عام ١٧٦١ للقيام بدراسات جغرافية ونباتية وحيوانية . وتجولت البعثة في اليمن ، وكان أنشط أعضائها وأطولهم بقاء الهولندي كارستين نيبور Karsten Niebuhr وقد زار محا وعمان وعدة مناطق من الحليج العربي . ونشر انتائج رحلته في عام ١٧٧٧ ووصف فيها ما بشاهده ، ودون علداً من الملاحظات الطبوغرافية والحرائط التوضيحية للمناطق التي زارها، كما ضمنها مستنسخات لعدد من نصوص المسند التي وجدت في مدينة ظفار إحدى عواصم دولة سبأ ودوريدان القديمة . ولفت الانظار إلى أطلال المواقع الاثرية التي شاهدها وأثبتها على خرائطه .

والطريف أن تجربة نيبور مع الآثار والنصوص العربية الجنوبية في عام ١٧٦١ شجعته على أن يجرى نفس النشاط مع الآثار والنصوص الفارسية في مدينة برسوبوليس بإيران ، فأصبح بذلك رائداً للدراسات القديمة في كل من البلدين .

واقتنی أثر نیبور الألمانی أولریخ جسبار سیتزن A. J. Seetzon الذی زار ظفار فی صیف ۱۸۱۰ واستنسخ بغض نقوشها .

وكان من المتوقع أن يتاح لرحالة انجلىرا وفرنسا وهما الدولتان الكبير تان في القرن التاسع عشر نصيب من الكشف عن حضارات الشرق القديم. فني عام ١٨٣٦نجح كل من هلتون وكروتندن البريطانيين فى استنساخ نفوشسبئية من صنعاء .

وباسم البحرية الهندية أو شركة الهند البريطانية كلف الكابتن ولستد R. Wellsted وزميله هايس S.B. Haines في عام ١٨٣٥ بمهمة تتبع خطوط الساحل العربي . وكانت لولستد اهتماماته الحاصة بالرحلة والآثار فوجه الأنظار في حضرموت إلى أطلال ونقوش حصن الغراب الذي كان يحمى ميناء من أكبر مواني دولة حضرموت القديمة . ونبه إلى أطلال مدينة نقب الحجر أحد المراكز الحضارية القديمة . وسجل ملاحظاته عن خصب وادى حضرموت . ووصل إلى أطراف الربع الحالى ، كما بدأ رحلاته الجغرافية في عمان حتى وصل إلى الحافة الجنوبية للجبل الأخضر .

وشابهه فى مثل هذا المجهود الألمانى أدولف بارون فون فريده Adolf-Barron von Wrede

وفى هذه الأثناء تفرغ بعض المستشرقين للتعرف على خصائص الكتابة العربية الجنوبية عن طريق مقارنتها بما يشبهها ويعرفونه من الكتابات الحبشية والعربة والفينيقية وغيرها من الكتابات السامية القديمة .

وكان من أوائل من بدأوا هذا المحهود اللغويان إميل ريدجر (١٨٤١) H.F. Wilhelm Gesonius و ولهام جيسينيوس (١٨٤١) Rödiger

وقامت البعثات الفرنسية بنصيبها الكشفى ، وكان أشهر رجالها أرنو ، وهاليني .

وركز توماسجوزيف أرنو Thomas J. Arnaud وهو صيدلى رحالة. جهوده فى عام ١٨٤٣ فى صرواح ومأرب عاصمتى دولة سبأ ــ وسحل مشاهداته كتابة ورسا عن سد مآرب ، ومحرم بلقيس (أو معبد إلمقه). ونسخ حوالى ٥٦ نقشاً قديماً نشرها فلجانس فرينل قنصل فرنسا فى جدة فى عام ١٨٤٥ فى كتابه « بحوث فى النقوش الحميرية ».

(م ٢ - تاريخ شبه الجزيرة العربية)

وأدت هذه الجهود إلى أن قررت الأكاديمية الفرنسية فى باريس عام Corpus Inscriptionum البدء فى إصدار موسوعة النقوش السامية Semiticarum وكان ذلك كسباً كبراً للدراسات العربية القديمة .

وكان جوزيف هاليني Joseph Halevy أكثر حظاً في التوغل في الجنوب العربي وفي وصف أهم آثاره الظاهرة واستنساخ العديد من نصوصه وترجمتها . وفي هيئة اليهودي الفقير وصل إلى مواضع لم يصل إليها من سبقوه فلم يكتف بالآثار السبئية في مأرب وصرواح وصنعاء ، وإنما اجتاز أيضاً منطقة الجوف الجنوبي ، وتعرف على بعض آثار دولة معين القديمة في مدينتي قرناو ويعليل بما فيهما من أسوار ومعابد وحصون . ووصل نجران وأطراف الربع الحالي في عام ١٨٦٩ – ثم عاد إلى فرنسا وفي حصيلته ٦٨٦ نصاً من ٣٧ موضعاً . ونشر نتائج رحلته في المحلة الأسيوية في عام ١٨٧٧ وشفعها بدراسة تحليلية للنصوص الجنوبية المعروفة حتى وقته . كما نشر مقالا في عام ١٨٧٧ عن رحلته إلى

وأهم من يقرن بهاليني من حيث غزارة المادة هو المستشرق النمسوى إدوارد جلاسر Eduard Glaser وقد اكتست رحلاته بنوع من العلنية والرسمية بعد أن يسر له المسئولون الأتراك في صنعاء هذه الرحلات في أعوام ١٨٨٧ ، ١٨٨٩ ، ١٨٩٩ ، وجذا اتسعت دراساته للآثار والنصوص الحميرية في همدان وظفار ، والنصوص السبئية في مأرب ، كما اتسعت جهوده للآثار والنصوص المعينية والحضرمية والقتبانية ، وقدم تخطيطاً دقيقاً لبقايا القنوات والسدود القدعة .

ومن الشخصيات التي ساهمت في استخلاص قواعد اللغة العربية الجنوبية فريتز هومل F. Hommel في محث أصدره عام ١٨٩٣ اعتمد فيه على النصوص المعينية واعتبرها أصلا لغيرها ، وهو ما يعارضه الآن فيه باحثون. آخرون .

وهكذا مهدت رحلات ودراسات المستشرقين فى القرن التاسع عشر السبيل أمام أبحاث أكثر عمقاً وشمولا فى القرن العشرين . فبرز خلال هذا

القرن عدد ممن تتلمذوا على الرواد الأوائل اهتموا بتحقيق النصوص وتأريخ الأحداث والاستعانة بالدراسات الجغرافية لطرق التجارة ومشروعات الرى مكملة لهذه الجهود.

وتعدت الدراسات الأثرية وصف الآثار الظاهرة إلى التنقيب عن الآثار الدفينة تحت التلال وفى باطن الأرض . وتعددت على هذا السبيل بعثات نمسوية وبريطانية وأمريكية . فى اليمن بأجزائها وعدن وحضرموت ومسقط وعمان . فكشفت عن أعداد من المعابد والمقابر والحصون والمنازل فضلا على النصوص والآثار المنقولة المتنوعة .

وبدأ عدد من الباحثين العرب ، ومن المصريين بخاصة ، يشاركون بجهودهم فى المجالات اللغوية والأثرية فى شبه الجزيرة منذ عام ١٩٣٦ وحتى الآن .

وعن طريق تعاون المؤرخين والأثاريين واللغويين زادت المعرفة بأسهاء القبائل والمدن القديمة وتحديد مواقعها ، وزاد التعرف على كنه المعبودات الجنوبية ، والعلاقات بين الممالك المتعاصرة ، والصلات بين حكامها ، وتتابع عهودهم وما تم فها من تجديدات سياسية أو عمرانية .

ولم يقل نصيب المناطق العربية الشمالية والغربية والشرقية في شبه الجزيرة من اهيهام الرحالة والباحثين في العصر الحديث كثيراً عن نصيب المناطق الجنوبية . وكان من مقدمات البحث فيها فضول بعض الرحالة الأجانب للتعرف على الأماكن الإسلامية المقدسة . وتتبع آثار الأنباط الكبيرة التي انتشرت في جنوب الأردن وامتدت حتى شهال المناطق الحجازية . وكانت عمائرها في الأردن واضحة معروفة وإن لم تكن نصوصها قد حلت وموزها بعد . وجدير بالذكر أن رحالة يدعى عبد الغني بن أحمد بن ابراهيم النابلسي أخرج كتابا في عام ١٦٩٣ بعنوان « الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز » وصف في سياقه بعض آثار مدائن صالح والحجر ومغاير شعيب واستنسخ بعض نقوشها ، وسبق غيره من الغربين في هذا السبيل .

وكما حدث فى الجنوب العربى لم تتعمد الجهود الأولى للرحالة الأوروبيين الكشف العلمى مباشرة عن الحضارات القديمة ، وإنما صاحبتها رغبة التعرف على ثروات البلاد الطبيعية ودراسة حياة البدو . وكانت أغلب رحلاتهم فى شبه الجزيره استمراراً لرحلاتهم الأخرى فى بوادى الشام وفلسطين ومناطق الحليج العربى .

وعلى الرغم من تحريم دخول المدينتين المقدستين على غير المسلمين تحريماً قاطعاً، فقد استطاع بعضهم دخولها . وكان فى تعدد أجناس الحجاج وتنوع هيئات هيئاتهم فرصة لبعض الأوروبيين الذين تظاهروا بالإسلام واستخفوا فى هيئات شي لم تكشف عن أجنبيتهم . وعن هذا الطريق تسلل عدد منهم إلى المدينتين المقدستير منذ بداية القرن السادس عشر ، ومن أوائلهم الأسباني Domingo الذي تنكر تحت اسم على بك ووصف الأماكن المقدسة فى مكة وما حولها .

وكما مهدت رحلة نيبور للدراسات الحديثة في الجنوب العربي ، مهدت رحلة السويسرى لودفيج بوركهارت J.L. Burckhardı السبيل لدراسات الأجزاء الشهالية الغربية من شبه الجزيرة . وقد أشهر إسلامه وتسمى ابراهيم بن عبد الله ، وخرج من الفاهرة إلى جدة في عام ١٨١٤ . وزار مكة والطائف وتتبع الطريق الساحلي ، وربما دخل الحجر ، ووصل المدينة عام ١٨١٥ . ثم عاد إلى ينبع ومنها إلى القاهرة . وحاول أن يكون دقيقاً في تسجيل ما شاهده في رحلته وما نشره عنها . ولم يكن بوركهارت آثاريا ولكنه فتح الطريق أمام المهتمين بالآثار .

وكان إدوارد روبل أول أوروبى يزور مغاير شعيب وآثارها فى العصر الحديث .

وإلى جانب الرحالة الأوروبين العاديين والمندوبين السياسيين الذين زاروا أراضي الدولة السعودية في منتصف القرن التاسع عشر (مثل فالن . وسادلير) . وصف ر . برتون R. Barton المقابر النبطية في مغاير شعيب . ولفت الأنظار إلى آثار المناجم القدعة في منطقة مدين ، خلال دراساته

الطبوغرافية التي كان يقوم بها في الأراضي الحجازية الممتدة من هضبة حسمي الطبوغرافية الممتدة من هضبة حسمي الى ساحل تهامة .

و تبعه ج . , ر . ولستد فی زیارة مغایر شعیب حیث استنسخ بعض نصوصها ، وکتب عن میناء الوجه الذی یبدو أنه کان نخدم تجارة دولة ددان و لحیان .

ومن الرحالة دوى الميول الأثرية واليم ج. باجريف W.G. Palgrave في سياق ما نشره عن رحلانه في أراضي نجد . شالها ووسطها وشرقها ، في عامي ١٨٦٢-١٨٦٠ . للأغراض المتنوعة التي استهدفها رحالة عصره . أشار إلى بعص المعالم الأثرية كالمقابر وحوها في عام ١٨٦٥ . ولكن آخذ عليه أنه كان يعتد على السماع أحبانا في يكتبه دون أن يمحصه ودون أن يقطع الشك فيه باليقن .

و هكذا استأثر بالتقدير دونه شارل مونتاج دوتى Charles M. Doughty الذى زار مناطق مدائن صالح. والعلا والحريبة . في عامي ١٨٧٦ - ١٨٧٧ - الذى زار مناطق مدائن صالح . والعلا والحريبة نشرها في عام ١٨٨٤ - واستنسخ منها نصوصاً نبطية وتمودية ولحيانية نشرها في عام ١٨٨٤ - وترجمهاالباحث اللغوى جوريف رينان Renan ، وأشار دوتي إلى معالم قديمة أخرى في تياء والطائف ووادى فاطمة . ونبه خلال در اساته الجيوله جبة إلى وجود أدوان حجرية لدهور ما فبل الناريخ في معان .

وانتفعت دراسة آتار ونفوش شبه الجزيره ووسطها كذلك بما جمعه مذا تشارلز هو بر Ch. Huber خلال ، حلاته فى ۱۸۸۸–۱۸۸۲ ، درا الله الله عام ۱۸۸۵ ، وقد هلك خلالها .

وكان قد شاركه يوليوس يوتنج I. Euting. في ريارة العلا ومدائن صالح والحريبة ، تم زار تياء . ونشر عن آثار ، تفرقة وعن نتائج رحلاته داخل شبه الجزيرة في عام ١٨٩٣ ، وعام ١٩١٤ ، وعن التقوش النبطية في عام ١٨٨٥ ، وقد عاود ترجمة هذه عام ١٨٨٥ ، وقد عاود ترجمة هذه النصوص كل من اللغوين ه . • ولر ، وإنو ليتمان E. Littmann .

ومع أوائل القرن العشرين تجمعت من جهود الرحالة والباحثين حصيلة مناسبة لتحقيقات علمية أكثر شمولا عن التاريخ القديم لشبه الجزيرة . وقد ساهم فيها بنصيب كبير ألوا موزيل Alois Musil فقدم دراسات تفصيلية عن شال الحجاز وشال نجد ، خلال عشرين عاما (١٨٩٦-١٨٩٠) ، قام فيها بعدة رحلات ، مع دراسات مستفيضة أخرى عن جنوب فلسطين وبادية الشام ، وقد نشرها في عدة كتب بن ١٩٠٧-١٩٣٠ ، وتناول فيها طبوغر افية الأرض ومصادر المياه ، وحقق أساء الأماكن ، والأعلام ، وترسم طرق التجارة ، وتعرف على كنه المواضع التي عثر فيها على النصوص القديمة النبطية والتودية والله يانية ، والمربية والإغريقية واللاتينية . وحاول أن يربط بين هذا كله وبين ما ذكرته قصص الكتب المقدسة عن شعوب المنطقة وأنبيائها هذا كله وبين ما ذكرته قصص الكتب المقدسة عن شعوب المنطقة وأنبيائها مستعينا بروايات المؤرخين والجغرافين الإغريق والرومان ، ومولفات مستعينا بروايات المؤرخين والجغرافين المسلمين ، وما انتهت إليه الدراسات الحديثة للآثار والندوص حتى أيامه . وكل ذلك إلى جانب الكتابة المعتادة عن السكان وحياة البدو الاجتاعية في العصر الحديث الذي قام فيه برحلاته .

وفى نفس الوقت تقريباً ، غابت الصبغة اللغوية والأثرية على رحلات الباحثين جوسين وسافينياك A. Jaussen; R. Savignac في شمال شبه الجزيرة وساحل الحجاز ، وكانا من الآباء الفرنسيسكان في القدس ، وأسهما في نشر وإعادة نشر عشرات من النصوص النبطية واللحيانية والثمو دية و ترجمتها ، و در اسة الآثار في تفصيل وتصويرها تصويراً دقيقاً ، لا سيا في مدائن صالح والحريبة ثم في تياء . وقد نشرا ذلك كله في ثلاثة أجزاء كبيرة (١٩٠٩ - ١٩٢) وفي عدد من البحوث القصيرة . وكانت در اساتهما من الأسس التي اعتمدت عليها المؤلفات المستفيفة عن الحضارة النبطية (مثل مؤلفات كرامرر ، وكونتيو المحانية (في مثل مؤلفات أوينت ، وفريتز كاسكل A. Kramerer; J. Contineau ، وفريتز كاسكل مؤلفات فريدرك وينت ، وفريتز كاسكل (F. V. Winnett; W. Caskel) ،

واهتمت رحلات برترام توماس Bertram Thomas جزئياً مجنوب نجد ، فكان أول الأوروبيين الذين حاولوا كشف النقاب عن طبيعة الربع الحالى ، حين عبر الجزء الشرق منه فى طريقه من ظفار إلى قطر ، وقدم نماذج جيولوجية وأثرية من رحلته ، ورسم خريطة لمسالكه ومعالمه الطبيعية . وكانت دراساته عدوناً لدراسات سان جون فلبى كانت خمن وشيجر عن الربع الحالى ، وهى دراسات نبت ضمن وشيجر عض الطرق التجارية التى كانت تحاذى حافته الغربية وتقوم فيها بعض محطات القوافل .

ولعل الآراء لم تختلف فى الحكم على مؤلفات باحث فى تاريخ شبه الجزيرة العربية كما اختلفت فى الحكم على مؤلفات فلبي العديدة . وكل ما يمكن قوله إنه قدم فى ثناياها معلومات متناثرة كثيرة ، وترك لغيره أن ينتقى منها ويمحصها .

وتتابعت الجهود العلمية حتى الآن ، كما تعدد المشتغلون باللغويات والآثار والدهور الحجرية والتاريخ القديم عن كل هذه المناطق الواسعة ، وظهرت منهم أسماء لامعة لا تزال تقدم بحوثها حتى الآن من الآجانب ومن المواطنين ومن بقية البلاد العربية ، ممن سوف نعاود التنويه بهم في الفصل الحادي عشر ، مع وجود التفاوت المعتاد بينهم فيا ينشرونه ، فنهم من يستهدف الدعاية ولا تكاد صفحة مما يكتبه تخلو من اهمامه بأنه قابل فلانا وأكل عند هذا وقال لهذا ومنهم من يكتني بالوصف والدراسة السطحية ، ومنهم كذلك من يفضل العلم للعلم فيدقق ويجدد ، وهو الأبقى .

من المؤلفات المختارة في دراسات الفصل:

ىيرى (جاكلين) ٠ اكتشاف جريرة العرب -- مترجم -- ديروت ١٩٦٤ .

جروهمان، ؛ مادة العرب – في دائرة المعارف الإسلامية .

حمد الجاسر . في مجلة العرب - سبتمبر ١٩٦٩ .

عبد العزيز صاخ : الرحلات والكشوف الأثرية للعصر الحديث فى شبه الجزيرة العوبية - السهدار دراسات الخليج والجزبرة العربية ؛ -- الكويت ١٩٨١ - س ٥ - ٩٣٠٠ . وات . جوثر ، بار ، لطلى ، الدورى، الجاسر : فى مصادر تاريخ الجزيرة العربية

- ج ۱ - جامعة الرياس ۱۹۷۹ (فى مواضع نختلفة)

3

المفصف المنانى فى المهدات العصور التاريخيسة فى شبه الجزيرة العربية

أسافنا أن المفهوم العلمى للتاريخ القديم فى شبه الجزيرة العربية لا يقتصر على عهود الجاهلية بمعناها التقليدى المحدود ، وإنما يمتد كذلك إلى حضارات أخرى سبفتها بعصور طويلة وآماد بعيدة .

وبدأ ااشاط العملي للإنسان القديم فيما قبل التاريخ فىالمناطق الصالحة للاقامة خلال مايسمي اصطلاحا باسم الدهور الحجرية تلك التيكتبعد أزمنها عن عصرنا الحاضر بعشرات الآلاف من الأعوام. وقد قدمنا عنها في الفصل الثاني من كتابنا عن « الشرق الأدنى القديم » أنه تعاقبت خلالها على شبه الجزيرة العربية وغيرها من مناطق العروض الوسطى فى الشرق الأدنى،عصور مطيرة الموياة ، وعصور جفاف عنيف طويلة أيضاً (وذلك في مقابل ما شهدته اام وض العليا في أوروبا مثلا من عصور تقدم الجلبد وعصور تراجعه) . و < يا لكل طائفة من هذه العصور نباتاتها وحيواناتها المناسبة لظروفها ، كما الله الماتها الطبيعية اى تأثيرات العصور المطبرة وعصور الجفاف عكن ترسمها جزئيا حتى الآن في تكوينات الأودية الكبيرة التي بجرى بعضها ناحية الحليج العربي ، وبجرى بعضها ناحية البحر الأحمر ، ويضيع معظمها الآخر في قلب الصحراء . ومن هذه وتلك وادى الحمض ووادى الرمة ووادى حميفة ووادى فاطمة وو ديان حضرموت وبيحان وحربب وأذنة إلخ. وكلها كانت قد شقرًا مياه أمطار غزيرة في فترات قدىمة طويلة . و مغلب على الظن أن مدرجاتها لا تزال تحتفظ ببعض أدوات الدهور الحجرية ، - وهي أدوات متواضعة صنعها الإنسان البداني واستخدمها في الدفاع عن نفسه و في صيد الحيوان و في خصيل قوته . وعَرَ على نماذج منها في أنحاء مختلفة من

الأحساء والعروض ، والأطراف الشهالية ، ومناطق متفرقة من دول الحليج واليمن الشهالى والجنوبى . وفى البداية عثر على أغلبها عن طريق المصادفة ، ولكن عددا من بعثات الآثار الدانمركية والعربية قد أولتها أخيراً عناية خاصة فى حفائرها بشرق شبه الجزيرة ومناطق دول الحليج العربى . وسوف ننناول خصائصها وما تدل عليه حين الدراسة التفصيلية للأماكن التى وجدت فيها في الفيصل الحادى عشر .

ومن المحتمل أن تكون شبه الجزيرة العربية قد شاركت بقية مناطق الشرق الأدنى منذ العصر الحجرى الحديث فى الألف السادس ق . م . أو نحوه فى معرفة حرفة الرعى بعد مرحلتين متتابعتين مهدتا لها، وهما مرحلة أسر بعض الحيوانات البرية الصغيرة من آكلات العشب لتكون احتياطيا حياً من اللحم فى فترات الجفاف وقلة الحيوانات ، ثم مرحلة استثناسها وتعويدها على جيرة الإنسان ، لاسيا ماكان منها من ذوات الظلف المدرة للبن .

وحين نتناول ظروف شبه الجزيرة فى تلك الدهور البعيدة ، فلا ينبغى أن تتصور لها حدوداً مغلقة على أهلها أو أمام أهلها ، فالحدود الإقليمية لم تكن معروفة بعد ، وكانت الجاعات تنتشر هنا وهناك حيما استطاعت وفى كل اتجاه بحثاً عن الأراضى النباتية والمعشبة التي يتوافر فيها حيوان الصيد والرعى وموارد الماء على نطاق الشرق الأدنى باتساعه الكبر .

ومن المحتمل كذلك أن الموقع المتوسط لشبه الجزيرة العربية قد يسر لبعض سكان أطرافها أن يشاركوا في نقل المتاجر المناسبة لعهودهم بين أقطار الهلال المحصيب حين بدأت عصورها التاريخية منذ الألف الثالث ق . م ، وازدادت معها إمكانياتها ومطالبها . وكما قام بعض هؤلاء السكان بدور الوسيط التلقائي في المناطق التي يرتادونها ، عملوا كذلك في صلب العصور التاريخية على نقل ما يمكن الاتجار به من منتجات بلادهم نفسها لا سيا منتجات البخور والليان والمهموغ والمر من الجنوب العربي .

ويبدو أن هذا الدور التجارى لم يتم على نطاق وأسع إلا بعد استثناس

الجملسفينة الصحراء واستخدامه في النقلوالأسفار، نظرا لما هو معروف عن قدرته على تحمل المشقة والعطش والسبر المتصل في رمال الصحراء. وليس من المستبعد أن معرفة الانسان بالإبل كانت قديمة وتقرب من قدم معرفته بغيرها منَ الحيوانات آكلة العشب المدرة للنن (ففي مصر القديمة مثلا كشف عمَّا يشبه هيئة الجمل في نحو ١٥ نموذجا أثريا منذ فجر التاريخ حتى الدولة الحديثة) . ولكنّ الغريب هوأن مصأفتر شبه الجزيرة والهلال الحصيب ومصر لم تذكر الجمل أو اسمه صراحة إلا في وقت متأخر يقـــدره الباحث ألىرايت (W. F. Albright) بالنصف الثاني من الألف الثاني ق. م (وفي حوالى القرن ١٢ ق . م .) . وَإِذَا صح أَن هذا التاريخ ينطبق فعلا على استخدام الجمل في النقل والتنقل في شبه الجزيرة لكان فيه ما يفسر بداية التغيير في الحياة النمطية لسكانها في وقت لاحق بقليل. ويبدو أن العربكانوا قبل ذلك يعتمد ون على الحمير ، ولهذا ظلت تحركاتهم بطيئة ، فلما استخدموا الإبل زادت إمكاناتهم الاقتصادية وأصبحوا أقدر على مداومة الاتصال بعضهم ببعض . وعلى تكوين الوحدات السياسية في بعض المناطق المشجعة على حياة الأستقرار . واتسعت آفاق اتصالاتهم حينذاك بجيرانهم في الهلال الخصيب وانتفعوا ببعض عناصر خصائص حضاراتهم المتقدمة وأخصها فكرة الكتابة . وربما زكى هذا الارتباط مايتجه اليه بعض الرأى من إرجاع أوائل النصوص العربية المعروفة ، وهي مجرد مخربشات أولية في مثل وادي بيحان بالجنوب العربي ، إلى أواخر الألف الثاني ق . م . ، وقد وجدت حول نبع ماء دائم وعدة برك صغيرة .

وبفضل العرامل الطبيعة والبشرية والتطورية التي تقدم ذكرها ظهرت دول وإمارات عدة على فترات مختلفة في مناطق متفرقة من شبه الجزيرة . فتميزت في الجنوب العربي خمس دول كبيرة ، وهي سبأ وقتبان وأوسان ومعين وحضرموت ،وقد تعاصر بعضها مع بعض ، وتعاقب بعضها إثر بعض وكانت للدولة الأولى منها وهي سبأ عدة أطوار متعاقبة .

وانتفعت هذه الدول بما اتصفت به بيئاتها من الوفرة النسبية في الأمطار والوديان والأنهار . والوفرة النسبية بالتالمؤني محاصيل الزراعة ومنتجات البخور والصموغ واللبان والمر والدريرة ، ورنما تأفي بعض المعادن أيضاً كالذهب .وانتفعت كذلك بإشرافها على مداخل طرق القوافل التجارية الرئيسية التي كانت تربط بن جنوب شبه الجزيرة وبين تتمالها ثم تتمرع بعد ذلك إلى مختلف مناطق الهلال الحصيب ، ثم بإشرافها شيئا فشيئا على مناطق ساحلية طويلة أطلت بموانيها (المحدودة) وخاجانها الطبيعية على البحر الأحر وعلى المحيط العربي (أو الهندى) فتعاملت منها مع مناطق الإنتاج الطبيعي على سواحل أفريقيا التبرقية . وبعد ذلك مع سواحل الهند الغربية . والمستبراد والمستبراد والاستبراد والعالم الخارجي المتعرض القديم .

وتوزعت مناطق العمران والاستقرار والحصارة فى المناطق الشهالية والغربية والوسطى والشرقية من شبه الجزيره العربية والخليج ، على أسس مشابهة . فتركزت فى الوديان وحول موارد المياه فى مناطق الواحات والحرات ، وحول الطرق التجارية الماخلية ، والطرق التجارية الكبيرة المؤدية إلى الحارج ، وحول الحلجان والموافىء على السواحل البحريه .

وهكذا ظهرت مع توالى العصور إمارات مدين وعاد وتمود . وممالك دومة ، وقيدار، وتياء، وددان، ولحيان ، والأنباط، وكندة وتجمعات مدحج والأزد وقحطان ومعد . كما ازدهرت مكة ويترب ، والتعشت موانى الشعيبة والجار والوجه والحوراء وأملج على البحر الأحمر، وجرها وأقطار دلمون وماجان وملوخا على الحليج العربي .

ور بما قامت إلى جانب ذلك تجمعات قبلية أخرى فى قاب الصحراء لم تكتشف آثارها بعد . وأخبرا قامت على الأطراف الترفية والشمالية الغربية . دولة المناذرة . ودولة الغساسنة ، حتى طهر الإسلام وجعل من شبه الجزيرة العربية دولة كبيرة ، واحدة .

ولم يقتصر نشاط العرب القدماء على أرضهم ، وإنما خرجت جاليات منهم إلى جزيرة سوقطرة وساحل الصومال وشاطىء الحبشة وميناء رهابتا قرب دار السلام في شرق أفريقيا . ودلك بطبيعة الحال إلى جانب هجراتهم الشعوبية الكبيرة التي استوطنت في بعض أراضي الهلال الحصيب على فترات متباعدة ، لاسها في مناطق الأطراف الواصلة بينها وبين البوادي القريبة منها .

وسوف يعترصنا خلال البحث التفصيلي للدول والإمارات العربية القديمة كثير من الجدل حول تحديد بداياتها ونهاياتها الزمنية . وترتب هذا الجدل على أن كتبة تلك الدول والإمارات لم يسجلوا أحدانها بتأريخ ثابت لا في عهود متأخرة . ولم يسجلوا سنوات حكم ملوكهم إلا في عهود متأخرة أيضاً . ولم تعرف لهم حتى الآن قوائم ترتب أسماء حكامهم واحدا بعد الآخر . وذلك يحيث أنه لايتيسر تحديد عهد حاكم منهم تحديدا قاطعا إلا إذا ورد اسمه أو مايدل عليه في نص خارجي معاصر له ، من النصوص المسارية ، والمصادر المصرية والشامية والإغريقية والرومانية ، أو إذا كنان عهده من العهود المتأخرة التي استخدم بعض العرب فيها التأريخ الثابت ، حين عرفوه على أطراف الشام بعد عام ۲۱۲ ق . م . ، وعرفوه في سبأ وحمر في عام ما بين ١١٥ وبين بعد عام ۲۰۲ ق . م . واستخدموه في دولة الأنباط في عام ٢٠١ بعد الميلاد .

خطوط الكتابات القديمــــة ف شبه الجزيرة العربية

ترجع خطوط الكتابات القديمة التي سبقت الحط العربي المألوف في شبه الجزيرة العربية ، إلى مجموعتين كبيرتين : مجموعة شاعت فيها كتابة المسند ، وهي كتابة استخدمتها الدول العربية الجنوبية المتحضرة القديمة ، سبأ وقتبان ومعين وحضر موت وأوسان . ثم شاركتها فيها بعض الإمارات والجماعات الشالية والغربية في شبه الجزيرة العربية ومايتصل بها من جنوب الشام ، بعد أن حور كتبها في أشكال حروفها بما يتفق مع مدى إتقانهم لها وربما بما يناسب مخارج ألفاظهم ، تعديلات عقوية أحيانا وتعديلات مقصودة أحيانا أخرى . وهكذا خرجوا منها خطوط إقليمية امتاز منها الحط اللحياني والحط التمودي والحط الصفوى . ويرى بعض اللغويين أن هذه الحطوط الإقليمية بمكن التمييز فيها أيضاً بين عدة خطوط فرعية محلية اختلفت فها بينها باختلافات طفيفة .

تم مجموعة ثانية من الحطوط اعتمدت أساساً على قواعد الكتابة الأرامية وكتب بها فريق آخر من الدول والإمارات العربية الشمالية والغربية ، بعد أن حور كتبتها فيها هم الآخرون تحويرا قليلا أو كثيرا . وأهم هذه الدول هي إدوم والأنباط وتدمر : مع احمال وجود خطوط أخرى فرعية في داخلها . وأخيرا اشتق كتبة الحجاز الحط العربي الصريح من الجهل النبطي في الأجيال القليلة التي سبقت ظهور الإسلام لاسها في مكة ويترب .

وعثر على بعض نصوص هذه الكتابات الشالية منها والبلخوبية منقوشة على سطوح حجرية كبيرة وصغيرة مثل جدران المعابد ومداخل المدن والحصون وسفوح الجبال وقواعد الباثيل وسطوح النصب وكسر الحجر الصغيرة. وعبر عليها منقوشة كذلك على سطوح معدنية كالصحاف وقواعد البائيل الصغيرة وقطع العملة وما إليها . وربما كأنت منقوشة على الأحشاب أيضاً. ولكن ندر حتى الآن ما يحتمل معه أن العرب القدماء كتبوا عليه من

ألواح الصلصال التي كتب علمها كتبة الهلال الحصيب، والجلود والرق والعظام وحقاف النخيل التي كتب العرب علمها في صدر الإسلام، أو صحائف البردى التي صنعها وكتب عليها المصريون القدماء ثم تعلم استخدامها منهم بعض للآراميين . ولو أنه ليس من المستبعد أن العرب القدماء في الشمال وفي الجنوب كتبوا على بعض هذه المواد ، ولكنها بليت بمرور الزمن فظرا لطبيعتها الهشة وفعل الأرضة والحشرات فها .

وفى سياق النصوص المنقوشة يمكن التمييز بين نوعين: نصوص مطولة إلى حد ما نقش الكتبة المهرة حروفها بعناية على جدران المعابد والنصب و اجهات المقابر والمبانى الدنيوية الكبيرة أحيانا ، و على بعض المصنوعات التمينة . ثم نصوص أخرى مختصرة أطلق المستشرقون عليها لفظ المخربشات . وقد حزها أو خربش حروفها فى عجلة رجال عاديون من أهل المدن والقرى لحدمة مطالب حياتهم اليومية ، كما حزها وخربش حروفها بعض الكتبة المصاحبين للقوافل على سفوح التلال وجوانب الوديان التى كانوا يمرون بها المصاحبين للقوافل على سفوح التلال وجوانب الوديان التى كانوا يمرون بها ويريحون عندها ، وسعلوا فيها بعض أسمائهم ودعواتهم بأسماء معبوداتهم ، لو وبعض ماعن لهم من خواطر شخصية أيضاً .

كتابة المسند:

ليس ما ممكن تأكيده حتى الآن عن المنطقة أو الدولة التى بدأت فيها كتابة المسند فى الأجزاء الجنوبية من شبه الجزيرة العربية . فبينها كان هناك رأى قديم رد ابتداعها إلى دولة معين ، نبه رأى آخر إلى دلالة العثور على أقدم صور معروفة لهذه الكتابة فى دولة قتبان . ونبه رأى ثالث إلى وضع ظاهرة تركز أغلب النصوص المعروفة حتى الآن فى دولة سبأ موضع الاعتهار.

ومرة أخرى ليس ما يمكن تأكيده عن العهد الذى ظهرت فيه بداية كتابة المسند في هذه المناطق ، وذهب بعض الاحمال إلى تعيين هذا العهد بأواخر الألف الثانف ق . م . ، كما أشرنا إلى ذلك من قبل ، وإن افترضت جاكلين بيرن لها تاريخا أحدث من هذا . بكثير .

وتضمنت كتابة المسند تسعة وعشرين حرفا جامدا لم تتأكد أسماوها القديمة ولا ترتيبها القديم حتى الآن. ولكن تشابهت أصوات نمانية وعشرين حرفا منها مع أصوات حروف الهجاء العربية الحالية ، وزادت عليها حرفا واحدا يسمى (في العبرية) حرف إسامك» كان ينطق قريبا من نطق حرف السين على الرغم من وجود سين أخرى عادية في كتابة المسند ، (وقد وجد حرفان للسين في الكتابة المصرية القديمة أيضاً). وذلك في مقابل عدم تضمنها حرف «لا» المركب في الكتابة العربية .

وتتصف كتابة المسند بصفات أخرى بعضها اختصت به ، وبعضها اشتركت فيه مع غيرها من الكتابات السامية القديمة . وكان من دلك على سبيل المثال :

أولا: كانت حروفها نخطيطية ، وليست صورا صريحة أو مقاطع صوتية . وقد يدل ذلك على أنه كانت ها أصول أخرى تصويرية لم تكتشف بعد ، أو أنها نقلت حروفها ناضجة من كتابة أخرى متطورة هي فيما يغلب على الظن الكتابة الكنعانية المبكرة .

ثانياً: أن حروفها طلت تكتب منفصلة غير متصلة . الواحد مهابجوار الآخر . وكان ذلك هو شأن أغلب الكتابات القديمة أيضاً حتى ماقبل الميلاد بقليل .

ثالثاً : لم تنغر أشكال حروف المسند . سواء كتبت في بداية الكلمة أو وسطها أو آخرها . وكانت سطورها الأفقية تكتب عادة من اليمن إلى اليسار . ولكن فردية الحروف ، وثبات أشكالها ، كل منها سمح لبعض الكتبة ببداية السطور من اليسار أحيانا . وقد نخالف الكاتب بن بدايتي سطرين متتالين فيبدأ أولهما من اليمن ويبدأ الثاني من اليسار ، إما لإظهار المهارة ورغبة التغيير ، أو للتعمية على القارىء العادى في النصوص اللغزية .

رابعاً : كانت كل كلمة فيها تنفصل عن الأخرى في سطرها الأفقى

بخط قائم ، دون ترك مسافة مقصودة بين كلمة وأخرى إلا فى القليل النادر . وذلك مع إلحاق حرف الوصل بأول الكلمة المتصل بها .

خامساً: أنها لم تتضمن حروفا لينة أو حروف حركة ولم تسجل تشكيل الحروف ، شأنها في ذلك شأن أغلب الكتابات السامية القديمة ، وإن لم يمنع هذا من ترجيح استعمال الحروف اللينة في لغتها المنطوقة ووجود قواعد شفهية لنطق كلماتها مشكلة .

سادساً : أنها لم تأخذ بالحروف المنقوطة، واكتفت بتغيير أشكال حروفها المتقاربة بعضها من بعض

سابعاً : أنها عبرت أحيانا عن التعريف والتنوين بإضافة نون أخيرة فى نهاية الاسم ، كما عبرت أحيانا عن التنكير بإضافة حرف ميم أخيرة فى نهاية الاسم ، وذلك بما يتفق مع لهجة أهلها .

ثامناً: أنها نسبت أغلب أفعالها إلى ضمير الغائب ، على الرغم من معرفة لغنها بضمائر المتكلم والمخاطب في الإفراد والجمع والتذكير والتأنيث :

تاسعاً: أنها اكتفت فى أغلب أحوالها بكتابة أصول الأفعال ، وتركت للقارىء أن يستنتج صيغ هذه الأفعال من سياق النصوص ، فيما خلا التعبير عن صيغة المستقبل بإضافة حرف السين أو حرف الهاء فى بدايتها ، بما يتفق مع لمجة أصحابها .

عاشرا : أنها عبرت عن التشديد أحيانا بتكرار الحرف المراد تشديده ، ولم تتضمن ما يعبر صراحة عن صيغة الاستفهام وما يشبهها .

وتعددت آراء اللغويين! في تعليل تسمية كتابة « المسند » – وأقرب هذه الآراء إلى الاحتمال رأيان وهما :

أولا: أن العرب الجنوبيين كانوا يستخدمون كلمة «مسند» بمعنى الكتابة (م ٣ ــ تاريخ شبه الجزيرة العربية) على الإطلاق . ويزكى هذا الفرض أن بعض الأوامر الملكية القديمة كانت تبدأ عندهم بعبارة « سطرو ذن مسندن » أى سطروا أو اكتبوا هذه الكتابة .

ثانياً: أن الفواصل القائمة بين كل كلمة وأخرى فى هذه الكتابة ، قد أوحت إلى أهلها ، أو أوحت إلى المؤرخين المسلمين ، بتسمية خطهم باسم الحط المسند ، على اعتبار أن كل كلمة فيه تكاد تستند على الحط القائم الذى يسبقها والحط القائم الذى يلها .

أسلفنا أن بعض الدول والجماعات العربية الشمالية كتبت بالحط المسند، نتيجة لظروف واتصالات نتعرض لها فيا بعد، وأهمها دولة ددان أو لحيان التي قامت حاضرتها في واحة العلا الحالية. وكانت حروفها أقرب الحروف الشمالية شبها خروف المسند الجنوبية . مع تعديلات طفيفة فيها . ثم مماعات الشموديين الذين تعددت مناطقهم في شمال الحجاز وشمال نجد وغيرهما من مناطق شبه الجزيرة وخارجها، وقد كتبوا نصوصهم الرئيسية ، وخط تقيدوا فيه بأشكال حروف المسند التقليدية في النصوص الرئيسية ، وخط آخر اشتقوا أشكال حروفهمن أشكال المسند أيضاً ولكنهم حوروا فيها تحويرا ملحوظا وغالبا مااستخدموه في النصوص الموجزة والحربشات . أما المنطقة الثالثة التي أخذت مااستخدموه في النصوص الموجزة والحربشات . أما المنطقة الثالثة التي أخذت مااستخدموه في النصوص الموجزة والحربشات . أما المنطقة الثالثة التي أخذت المسرق من دمشق) . وسميت كتابتها اصطلاحا باسم الكتابة الصفوية الشرق من دمشق) . وسميت كتابتها اصطلاحا باسم الكتابة الصفوية مع أن أقدم نصوصها وجدت في الحرة وليس في الصفا ، ولكن كثرة الحرار واتقاء اللبس بينها دعيا إلى نسبتها تجاوزا إلى الصفا ، ولكن كثرة في رسم حروفها عن حروف المسند أكثر مما فعل غيرهم .

ولم ينتشر الحط المسند القديم في هذه المناطق العربية وحدها ، وإنما وجد سبيله كذلك إلى منطقة أكسوم الحبشية حيث كتب به الجعزيون (وهم الإحرار من ذوى الأصول العربية) وحوروا بعض الشيء في أشكال حروفه . وجمعت نصوصهم بين اللغة الأفريقية المحلية وبين اللغة العربية الجنوبية ، ويرى بعض اللغويين أن تسميات الحروف وترتيبها فيما احتفظت به

الأبجدية. الحبشية قد تلقى ضوءا على تسميات وترتيب الحروف فى الجنوب العرب الخانبين . العربي القديم نظر للصلات المكانية والبشرية والحضارية بين الجانبين .

الخط النبطي وتطوره إلى الخط العربى :

تعلم كتبة الأنباط الخط الأراى من موضعين ، من إمارة إدوم بعد أن استقروا فى أرضها وتغلبوا على حكمها فى نواحى هضبة إدوم وجبل سعير شرقى العقبة وجنوب شرقى الأردن ،ثم من دويلة دمشق الأرامية الأصل التى اتصلوا بها عن طريق التجارة واستفادوا من حضارتها وحاولوا أن يحتلوها أكثر من مرة . وحين تعلم الأنباط الخط الأراى تعلموه كيفما اتفق وفى غير دقة كبيرة ، فرسموا حروفه فى أشكال مختصرة وكتبوا بها لغتهم المحلية وكانت لغة عربية فى مجملها ولكنها عربية ذات رطانة آرامية لاسيا فى مناطق استقرارهم الشهالية .

وكان الآراميون ومن أخذوا بخطهم قد كتبوا حروفهم من قبل مفردة ، وكلماتهم متعاقبة دون فواصل بينها ، فلما انفرد الأنباط بخطهم كان خير مازادوه فيه تجديدان ، وهما محاولة وصل حروف الكلمة الواحدة بعضها ببعض ، أو على الأقل محاولة وصل الحرفين المتجاورين مع بعضهما . ثم محاولة الفصل بين كل كلمة والكلمة التي تلبها في سطرها الأفقى بطريقة ما . وأدى هذان التجديدان إلى زيادة الفوارق بين الحط النبطى وبين أصوله الأرامية القديمة .

وبدأ كتبة الأنباط خطوة وصل الحروف بالوصل بين حرفى الباء والراء في كلمة « بر » ممعنى « بن » نظرا لكثرة استخدامها في ذكر نسب الشخص إلى أبيه . واتخذوا الوصل بين هذين الحرفين نموذجا لكلمات ثنائية أخرى تبدأ بحرف الباء (مثل به) ، وذلك منذ القرن الأول قبل الميلاد على أقل تقدير . ثم طبقوا هذا الربط على أغلب الكلمات الثنائية الأخرى (مثل يد، من ، نه ، إلخ) . — وبعض الكلمات الثلاثية التي يكثر استعمالها في كتابة النصوص مثل كلمة ملك ، وفعل عبد بمعنى صنع ، وذلك منذ القرن الأول الميلادى . وعملوا بعد ذلك على تطبيق هذه الطريقة على كثير من كلماتهم الأخرى خلال القرنين الثانى والثالث بعد الميلاد، مع استثناء حروف معينة تركوها مفردة (مثل الألف والواو) .

واستخدم الأنباط أربع وسائل في ربط الحروف ببعضها ، وهي :

- (أ) سند الحرف على ساق الحرف الذي يليه .
 - (ب) ربط الحرف بذيل الحرف الذي يليه .
- (ج) مزج الحرف مع الحرف الذي يليه (مثل لا) .
 - (د) ربط حروف الكلمة من أسفلها برباط واحد .

وشابه الأنباط فى محاولات الربط بين الحروف ، كتبة دولة تدمر في القرن الثالث الميلادى على أقل تقدير .

أما خطوة الفصل بين كل كلمة وأخرى ، فاستخدم كتبة الأنباط لها أربع وسائل أيضاً لازلنا نستعمل بعضها حتى الآن ، وهي :

(أ) التفرقة بين شكل الحرف إذا أتى فى أول الكلمة وبين شكله إذاأتى فى وسطها أو فى نهايتها .

(ب) إطالة ذيل الحرف النهائي للكلمة.

(ج) الفصل بين كل كلمة والكلمة التي تليها بفراغ قليل ، ولو أن هذه الوسيلة كانت قليلة الاتباع .

(د) إضافة حروف أجنبية استعاروها من نصوص جيراتهم ، إلى نهاية الكلمة (مثل الألف النهائية والتاء النهائية) . ولو أنهم مالبتوا حتى استغنوا عن بعضها بعد أن تعودوا على بقية وسائل الفصل الأخرى .

وظلت تنقص الكتابة النبطية خطوات أخرى لم يستكملها العرب إلا في صدر الإسلام ، وهي :

- عدم تنقيط الحروف المتقاربة مما أدى إلى تشابه كتابة التاء مع الثاء، والدال مع الذال ، والصاد مع الضاد . . . إلخ .

- وعدم كتابة حروف الحركة أو حروف المد فى داخل الكلمة (مثل كتابة ملك عوضا عن مالك) .

ـ وعدم تشكيل الحروف أو الكلمات .

- وكتابة تاء التأنيث الأخيرة تاء مفتوحة على الرغم من نطقها هاء ، مثل حرثت عوضا عن حارثة ، وكليبت عوضا عن كليبة ، . . إلىخ .

ولكن فى مقابل هذا تضمنت اللغة النبطية بعض القواعد التى عرفتها اللغة العربية ، مثل إضافة الـــ التعريف ، و استخدام الفاء والواو للترتيب ، والاستثناء بكلمة غير ، واستخدام الماضي فى الدعاء .

وبعد أن ورث العرب الشهاليون خط الأنباط واستخدموه ، أضافوا إليه بضعة تجديدات قبيل ظهور الإسلام وفى أوائله . ومن هذه التجديدات ربط بعض الحروف من رأسها لتصبح تحت مستوى السطر مثل الراء والنون فى لفظ الرحمن . وزادوا فى تحوير أشكال بعض الحروف إلى صور قريبة مما نستخدمه لها الآن مثل شكل الهاء فى بداية الكلمة ووسطها ونهايتها ، وشكل الهاء فى أول الكلمة وفى آخرها . . . إلخ .

وكما استفاد الكتبة العرب من أسلوب الحط النبطى أثروا فى زيادة صبغ النصوص النبطية بلهجتهم العربية على حساب اللهجة الأرامية منذ القرن الثالث والقرن الرابع الميلاديين (كما يتضح فى نقش النارة ونقوش سيناء) ، ثم جعلوها عربية خالصة فى القرنين الحامس والسادس الميلاديين (كما يتضح من نقش زبد ونقش حران) .

واختلف المؤرخون المسلمون القدماء في تحديد المنطقة التي تطور الخط

النبطى فيها إلى صورته العربية التى عرف بها قبيل ظهور الإسلام . واتجه أغلبهم إلى سبة هذا التطوير إلى الحيرة ، وقالوا فيها قالوه إن أهل الحيرة أخذوه عن الأنبار وإن الأنبار أخذوه عن اليمن ، وإن ثلاثة من قبيلة بولان في الأنبار اجتمعوا فوضعوا الحروف المقطعة والموصولة، والمنقوطة وغير المنقوطة .

ويبدوأنه ساعدهم على القول بهذا الرأى ما تواتر إليهم عن رقى حضارة أهل الحيرة فى عهود المناذرة ،وما علموه من أنبعض عربها النصارى كانوا يكتبون الإنجيل ويقرأونه.ويدونون أخبارهم ويرسلون أبناءهم إلى الكتاتيب ، وأن فريقا منهم كان يقرأ الفارسية واليونانية .

واتجه الباحثون المحدثون وجهة أخرى ، ومنهم خليل يحيي نامى الذي أصدر بحتا عن أصل الحط العربي استبعد فيه الرأى السابق ، على اعتبار أن المسيحيين من أهل الحبرة كانوا يكتبون بالحط السرياني ، والحط السرياني وإن كان فرعا من الكتابة الآرامية إلا أنه فرع بعيد عن أصول الكتابة العربية . . وكان المؤرخ العربي هشام الكلبي أكثر توفيقاً من بقية المؤرخين المسلمين القدامى في تخمين منطقة تطوير الحط البنطي إلى صورته العربية، فنقل عنه ابن النديم أن العرب أخذوا خطهم عن أهل مدين . وأن المقاطع التي حفظ العرب بها أنجدبتهم تعبر عن أسماء ملوك مدين . ورأى خليل نامى وغبره أنه لابأس من قبول الشطر الأول من هذا الرأى دون الشطر الأخبر ، وذلك على اعتبار أن الأنباط انتشروا في نفس المنطقة الني كان يسكنها قديما أهل مدين وكتبوا فيها خطهم (في مثل مغاير شعيب والحوراء في شمال الحجاز): وعن هذا الحط الأنباطي أخذ عرب الحجاز ولكن ليس عن خط أهل مدين بالذات ، ويسر ذلك لهم قربهم من المناطق الشهالية وتعاملهم معها فى التجارة وماتتطلبه شئون التجارة من الكتابة . وكانت أهم مراكز الكتابة في مناطقهم هي مكة ويترب . وقد ذكر البلاذرى أنه لما ظهر الإسلام كان في قريش سبعة عشر رجلا كلهم يكتب . وكانت الشفاء بنت عبد الله العدوية تحسن الكتابة . ولمسا دخل الإسلام يترب كان من الأوس والخزرج عدة يكتبون .

تشابهت النصوص القديمة في شبه الجزيرة العربية مع نصوص الحضارات الأخرى في الشرقَ الأدنى وغيره في بعض أغراضها واختلفت عنها في بعض آخر . فتشابهت معها في اهتمامها بتسجيل أخبار الانتصارات الحربية ، وإقامة المنشآت العامة والمشروعات العمرانية والدفاعية ، وتسجيل الدعوات الدينية وألفاظ التعبد ، والهبات المقدمة إلى المعابد ، وتسجيل مراسم الضرائب وبعض المعاملات الشخصية كالبيوع والمواريث ، وتسجيل أسماء أصحاب المقابر ودعواتهم وتخصيصها لهم.ولكن هذه النصوصلاتزال تنقصها حتى الآن ماتتضمنته نصوص الحضارات الكبيرة القديمة الأخرى من قصص وأساطير وعلوم وتعاليم مطولة ، ولاتزال تنقصها كذلك المدونات التارنخية المنسقة التي تتحدث عن قصد عن أحبار الماضي وحوادثه وترتب أسماء حكامه وعهودهم تدوينا مرتبا متصلا . وليس من اليسير أن نقرر ما إذا كان العرب القدماء قد تجاوزوا عن الكتابة في هذه النواحي فعلا ، أم أنهم كتبوا عنها ولكن لازالت نصوصها خبيئة تنتظر كشف اللثام عها، لاسيا وأن قلة قليلة من النصوص المطولة نسبياً بدأت تلفت أنظار بعض الباحثين إلى احمال صياغتها على هيئة السجع أو الرجز أو النشيد . ويقتضى هذا السياق أن نشر إلى حقيقة معروفة وهي أن نشأة الكتابة والنصوص المكتوبة لاترتبط بنشأة اللغة المنطوقة أو بمدى النشاط الفكرى عند أهلها . فليس من شك في أن كل الجماعات البشرية كانت لها لغاتها التي تتفاهم بها سنذ أن بدأت تجمعاتها على سطح الأرض . وليس من شك كذلك في أن كل حماعة كانت تتناقل عقائدها الدينية وأخبار أسلافها وأنسامها وآدامها وأساطيرها عن طريق الرواية قبل أن تعرف الكتابة بأزمان طويلة . ولعل في ثراء الشعر الجاهلي وثراء النثر معه مايرجح دسامة الآداب العربية الشمالية القديمة التي ألم يتعرف طريقها إلى التدوين أو التي لم يعثر على مدوناتها الكبيرة حتى الآن .

من المؤلفات المختارة في دراسات الفصل:

بیستون ، رریکانز ، والنول ، وموثر : المعجم السبقی -- من منشورات جامعة صنعاء – بیروت – ۱۹۸۲ .

خليل مجرى نامى : أصل الحط العربي وتطوره إلى ما قبل الإسلام - القاهرة ١٩٣٤ .

Beeston, A.F. L., A Descriptive Grammar of Epigraphic South Arabian, London 1962.

Pirenne, J., Paléographie des Inscriptions Sud-Arabes, Brussel, 1956.

الفصسال المالث ف جنوب شبه الجزيرة العربية

تمهيسد:

قدمنا بما يحتمل من قيام نشاط عمراني داخلي قديم في بعض مناطق شبه الجزيرة العربية، وقيام نشاط اقتصادى مناسب للتعامل به في داخلها ومع ما في خارجها معا ، وذلك حتى عندما كان أهلها لايزالون يتألفون من وحدات صغيرة وقبائل متفرقة ، ومن قبل أن ينشئوا دولا سياسية مستقرة بفترات طويلة . ويكفى هنا من القرائن التي تزكى هذا الاحيال في إيجاز عثورنا على نص مصرى قديم يسجل وصول وفد من تجار ﴿ جنبتينِ ﴾ بمتاجرهم من اللادن والكندر والمر والبخور إلى مصر فى العام ٣٢ من عهد الفرعون تحوتمس الثالث (أي في حوالي عام ١٤٥٨ ق . م .) . وكان « الجنبتيون » أو «الجبانيتاي » كما ذكرهم بعض المؤرخين الإغريق والرومان فيا بعد ، عشائر نشطة من العرب القتبانيين في جنوب شهه الجزيرة العربية . وحدث قبل وصول هذا الوفد إلى مصر أن اعتزم رجال البحرية المصرية في في عام ١٤٨٢ ق . م . خلال عهد الملكة حاتشبسوت التي سبقت الفرعون تحوتمس الثالث في الحكم، أن يصلوا بأسطولهم التجاري إلى مدرجات الكندر في الجنوب العربي ليتعاملوا مع تجارها مباشرة ويوفروا بذلك تكاليف الوساطة والوسطاء بينهما . وقد اعتبروا هذه المدرجات من أرض الله التي وقفها على تزويد معابدهم بأطايب البخور ، وأملوا خيرا فى أن يهديهم رجهم إلى طرق البحر والبر المؤدية إليها . ولكن وسطاء التجارة من سكان منطقة بوينة (أو بونت) على الشاطيء الأفريقي للبحر الأحمر فني نواحي الصومال أو إريتريا الحاليتين ، خشوا أن يفقدوا مكاسبهم فبالغ أميرهم أمام المندوبين المصريين حين وصلوا إلى أرضه في تصوير استحالة عبور مضيق باب المندب المؤدى إلى مدرجات الكندر (في الجنوب العربي) وصعوبة اختراق ماوراته من طرق برية ، وادعى أن أحدا لم يجرء على ذلك منذ أيام رع . ثم أوضى المندوبين المصريين بأن استورد من أجلهم ٣١ شجيرة من أشجار الكندر العربى الثمين حتى يزرعوها فى حدائق معبد آمون المدرجة فى مدينة طببة ماداموا حريصين علىأن يعودوا إلى بلدهم بهذا النوع الهمين من البخور، وسوف تغنيهم زراعته عن تكبد مشقة الوصول إلى مدرجاته . ورضي المندوبون المصريون بهذا ، ولو أن هذه الشجيرات لم تنجح زراعتها فى مصر نظرا للاختلاف فى الربة وفى المناخ عن بيئتها الأصيلة . وليس من المستبعد أن هذه الوقائع بلغت أسماع الجنبتيين فى جنوب شبه الجزيرة العربية وكانت من عوامل لفت أنظارهم إلى إمكان التعامل مع مصر مباشرة مادامت هى راغبة فى ذلك . وقد وجدوا فى عهد تحوتمس الثالث الذى ساد مناطق واسعة من فى ذلك . وقد وجدوا فى عهد تحوتمس الثالث الذى ساد مناطق واسعة من الهلال الحصيب امتدت من الشلال الرابع فى السودان إلى غزب الفرات بين المشام وبين العراق ، ووطد الأمن فيها ، ما شجعهم على تنفيذ رغبتهم . وليس من المستبعد مرة أخرى أن يعضهم سلكوا الطرق البرية فى سير طويل ومراحل متعددة حتى وصلوا إلى البلاط المصرى فى منف أو طيبة .

وبعد هذا العهد ظلت المناظر المصرية القديمة تصور ضمن تجار الكندر واللادن والبخور والمر الواردين إليها عن طريق البحر الأحمر وشواطئه ، والذين اعتبرتهم من وجهة نظرها أتباعا يؤدون الجزية إلى مصر . رجالا ذوى ملامح سامية ، يصلون إلى العاصمة المصرية تارة ، ويقفون عند سيناء تارة أخرى ، وعند بعض الموانىء المطلة على البحر الأحمر تارة ثالثة ، ويتبادلون المتاجر هنا وهناك مع المندوبين المصريين . ونستطيع أن نضيف إلى ذلك ثلاثة فروض، وهي أنه ليس من المستبعد أن بعض هؤلاء التجار فوى الملامح السامية كانوا من سكان السواحل العربية الشالية الذين قاموا بدور الوساطة في نقل المتاجر من الجنوب العربي إلى مصر ، وأن ماقام به بدور الوساطة في نقل المتاجر من الجنوب العربي إلى مصر ، وأن ماقام به الجنبتيون أسلاف القتبانيين من تعامل تجارى مع مصر في ذلك الزمن البعيد المعتبد تقوم بمثله طوائف عربية أخرى لم تعرف بعد أسماؤها القدعة ، وأن

ماكانوا يؤدونه من التبادل التجارى مع مصر كانوا يؤدون مثله مع الشام والعراق. وكانت سلعهم من البخور ومشتقاته تلقى الرواج الكبير هنا وهناك لكثرة استخدامها فى المعابد وفى القصور ، وفى المحافل والأعياد والمآتم والجنازات ، وفى تركيب العقاقير ، وإن زادت مصر فاستخدمها كذلك بكثرة فى عمليات التحنيط التى اشتهرت بها . وكانت الشعوب المستهلكة لحذه المنتجات التينة تنتج بعضها فى أرضها أحيانا ، وتستورد بعضها من المناطق الأفريقية التى تنتجها ، ولكن يبدو أن أفضل أنواعها هو ما كانت تستورده مباشرة أو عن طريق الوسطاء من مدرجات الجنوب العربى باالمات ولهذا عادت تجارته على أصحابه بأرباح وفرة .

وقد استشهدنا من قبل برأى ألبرايت وغيره من آن احتمال استخدام الإبل فى عمليات النقل والتنقل منذ القرن الثانى عشر ق . م أو نحوه قد زاد من الإمكانات الاقتصادية لعرب شبه الجزيرة العربية وزاد من إمكانات اتصالاتهم بالدول المحيطة بهم ، وأن هذه الإمكانات وتلك قد هيأتهم لتكوين دول ودويلات غنية مستقرة تأخذ بأسباب الحضارة الراقية .

وأغلب الظن أن التحول من الأوضاع القبلية إلى تنظيات الدول المستقرة لم يتم بسهولة أو في وقت قصير . ولعلهبدأ في بعض صوره على الأقل بنوع من التحالف على قدم المساواة بين القبائل ذات المصالح المشركة والمناطق المتقاربة، والمترابطة بروابط الدم والنسب، ثم عملت الظروف عملها في تغليب كفة فريق منهم على فريق في إطار هذا التحالف، ووصول أكبر زعمائه إلى الرياسة التي أصبحت وراثية في أعقابه ، سواء تحت راية الدين أم بتأثير القوة والثراء ونبالة الأصل . ويبدو أن أقدم الجماعات التي نهجت مثل هذا النهج المحتمل هي الجماعات السبأية التي أشارت الكتب السماوية إلى أهيبها منذ أيام سلمان عليه السلام ، أي منذ القرن العاشر ق . م على أقل تقدير . وطذا سوف نبدأ فيما يلى بدراسة المراحل الأولى من تاريخ دولتها «دولة سبأ» ، دون أن ينفي هذا أن دولا أخرى من الدول التي سوف نبحث تاريخها بعدها كانت تعاصرها فعلا في بعض عهودها الأولى .

* * *

دولة سبأ في عصورها المبكرة

توافرت لدولة سبأ بين المؤرخين القدماء والمحدثين شهرة لم تتوافر لما عداها من بقية الدول العربية الجنوبية القديمة . وترجع عوامل هذه الشهرة إلى عدة أسباب ،أهمها: ذكر سبأ في أكثر من قصة من قصص العهد القديم، وفي أكثر من آية من آيات القرآن الكريم ، وذكر أسماء بعض حكامها صراحة في النصوص المسارية العراقية منذ القرن الثامن قبل الميلاد ، واستمرار كيانها السياسي المتطور إلى ما قبل ظهور الإسلام بقليل ، وارتباطها بعدة حوادث دينية وسياسية تأثر بها العرب الشهاليون والجنوبيون قبيل ظهور الإسلام بقليل أيضاً ، ثم بقاء بعض معابدها ومنشآتها الكبرى ظاهرة فوق سطح الأرض خلال العصور الإسلامية نفسها وحتى الآن .

مشكلة النشأة:

تناول بعض المستشرقين نشأة السبأيين (أو السبثيين كما يكتب اللفظ أحيانا) من أكثر من زاوية واحدة ، ويمكن إيجاز آرائهم فيها في نظريتين رئيسيتين ، وهما :

أولا: نظرية زكاها عدد من الباحثين (مثل شرادر وكيبرت وهارتمان ودلتش و فريتز هومل) ، ورأوا فيها أن السبأيين عاشوا أصلا في شمال شبه الجزيرة العربية قرب منطقة الجوف الشيالي واستمروا فيها على البداوة زمنا طويلا ، ثم دفعتهم دوافع معينة إلى الاتجاه نحو جنوب شبه الجزيرة قبيل بداية القرن الثامن ق . م بقليل حيث استقروا فيه . واعتمدت هذه النظرية على على عدة قرائن سوف نناقشها واحدة بعد الأخرى بعد قليل .

ثانياً: نظرية ألمح اليها باحثون آخرون (ومنهم مولر وجلاسر وفنكلر وماير ثم ألوا موزيل) ، ويرون فيها أن السبأيين عاشوا منذ بداية أمرهم فى الجنوب العربى ، ولكن جالية منهم اتجهت خلال القرن الثامن ق .م أو قبله بقليل إلى الشهال وأقامت قرب واحة تياء ومنطقة الجوف الشهالي لترعى المصالح التجارية لقومها فى شهال شبه الجزيرة وعلى طرق القوافل المتجهة منها إلى الهلال الحصيب .

ومع منطقية كل من هاتين النظريتين ، يبدو أن النظرية الثانية منهما هي الأقرب إلى الصواب لاسيا فيا يختص بأحوال السبأيين في عصورهم التاريخية.

أما النظرية الأولى فئمة شواهد تدعونا إلى الاكتفاء بالحروج منها بما يحتمل من أن السبأيين عاشوا قبل تكوين دولتهم السياسية المستقرة في منطقتها الحصبة بجنوب شبه الجزيرة العربية ، على ماعاش عليه أغلب أهل القبائل القديمة لا يعتر فون محدود إقليمية مفروضة وتتفرق بطونهم بين الشال والجنوب وبين الشرق والغرب وفقاً لظروفها الحاصة ومصالحها الطارئة وعلاقاتها بجرانها. ولم يكن هذا هوشأن القبائل القديمة في الشال والوسط فقط من شبه الجزيرة العربية ، بل كان شأنها أحيانا أيضاً في الجنوب الحصيب نفسه .

ولتوضيح ذلك نعاود عرض ومناقشة قرائن هذه النظرية الأولى التي افترضت بداية حياة السبأيين في شمال شبه الجزيرة، وهي قرائن أوردها أصحابها ممن أسلفنا ذكرهم من الباحثين متفرقة في سياق مولفاتهم فخرجت واضحة حينا وغامضة حينا آخر . وهي في مجملها قرائن لاتخلو من منطقية وإن كانت في الوقت نفسه لاتخلو من شك . ويمكن أن نجملها من ناحيتنا في ثمان قرائن نعرضها فيا يلي واحدة بعد أخرى ، ونعقب على كل منها عما يزكمها أو ما بضعفها.

أولا: ذكرت التوراة كما ذكر القرآن الكريم أن حاكمة سبأية زارت سليان (عليه السلام) في عاصمته أورشليم (خلال منتصف القرن العاشر ق م) وهي حاكمة لم تعرف حقيقة إسمها ولم يذكره لها القرآن الكريم ولكن بعض الروايات العربية والعبرية والحبشية القديمة أطلقت عليها أسهاء يلمقه ويلقمه وماقدة وبلقمة وبلقيس ، على خلاف فيها بينها . وكلها فيها يرى أغلب اللغويين الحديثين قد تكون أسهاء محرفة عن إسم الملقه » المعبود الأكبر لدولة سبأ (وذلك مع وجود احمالات أخرى لتفسير بعض الأسماء المفترضة آنفاً لهذه الحاكمة بمعنى الزهرة في اللغة العبرية) العربية القديمة عومعنى الحارية أو المحظية في اللغة العبرية)

ولا بأس منأن نشر ابتداء إلى أن الجدل في اسم ومكان حاكمة سبأ هذه لا يتعارض مع الكتب السماوية في شيء ، فكما أن هذه الكتب لم تذكر اسمها صراحة ، فهي أيضاً لم تحدد مكان دولتها بالشمال أو الجنوب . وعلى هذا الأساس من حرية البحث نستعرض ما ارتآه فريتز هومل وأصحابه من أن هذه الحاكمة كانت تحكم منطقة قريبة من مملكة سلمان الفلسطينية وتقيم في منطقة ما من شمال شبه الجزيرة ، وذلك محجة أنه كان من المستبعد أن تسافر بحاشيتها من أقضى جنوب شبه الجزيرة إلى مقر سلمان في أورشليم ، وأنه ما من نص عربي جنوبي قد أشار إلى إمرأة حكمت سبأ الجنوبية أو وليت حكم دولة أخرى من دول الجنوب ، على حين ذكرت النصوص وليت حكم دولة أخرى من دول الجنوب ، على حين ذكرت النصوص الأشورية نحوست ملكات عربيات حكمن في منطقة شمالية من شبه الجزيرة العربية .

ومع منطقیة هذا الفرض ، نلاحظ أن هناك أربعة شواهد أخرى تدعو إلى إعادة النظرفیه ، وهي :

(أ) جاء فى القرآن الكريم عن حديث الهدهد مع سليان (فكث غير بعيد ، فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين) . وإذا عنت حملة (فكث غير بعيد) قصر المدة الزمنية على الرغم من طول المسافة المكانية ، وهو المرجح للدلالة على إعجاز الحدث ، فإن سياق بقية معجزة الهدهد يدل على أن أرض سبأ كانت بعيدة عن مملكة سليان بحيث لم يحط علما بها ، ولهذا لم يقم بينهما من قبل اتصال مباشر ، أو على أقل تقدير لم تكن إحداهما تحيط بأحوال الأخرى إحاطة كاملة .

(ب) وجاء عن حديث الهدهد أيضاً : (إنى وجدت إمرأة تملكهم وآوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم . .) ، ومثل هذا الثراء الذي يتوافر فيه كل شيء أقرب إلى أن يناسب المناطق العربية الجنوبية التي كانت لها في عصورها القدعمة مواردها الطبيعية والاقتصادية ذات الوفرة النسبية .

ولو كانت من المناطق العربية الشهالية فعلا لصح التساول عن ثلاث ظواهر، وهى : لم لم تظهر آثار دولتها الثرية هذه فى الشهال حتى الآن ؟ وهل لقلة البحوث الأثرية هناك دخل فى ذلك؟ – ولم أهمل الرواة والمورخون العرب الشهاليون ذكرها ولم يتفاخروا بها ؟ ، وهل كان ابعدها الزمنى الكبير عنهم دخل فى ذلك ؟ – وأخير آإذا كان السبأيون قد بلغوا مبلغاً عظيماً من الثراء فى الشهال فى عهد سليمان أى فى القرن العاشر قبل الميلاد ، فما الذى دعاهم بعد ذلك إلى النزوح إلى الجنوب ؟ – وهل كان لتقلبات الظروف المناخية دخل فى ذلك ؟ – أم أنهم كانوا يقومون فى عهده بدور الوساطة فى نقل المتاجر الجنوبية إلى الشهال ثم طمعوا بعد ذلك فى أن يسيطروا على مصادرها بأنفسهم ويقيموا عليها ؟ – هذه كلها تساولات تصعب الإجابة عنها بردود شافية للأسف فى حدود المعلومات التاريخية والأثرية المعروفة لنا حتى الآن على الرغم مما عقبنا به علمها من احتمالات شتى .

(ج) ذكر القرآن الكريم جنتى سبأ وسيل العرم ، وكل منهما لا شك في قيامه في جنوب شبه الجزيرة العربية دون شالها ، بعد ذكر قصة سليان ودولته ، وذلك مما يمكن أن يُدل على ترتيب مقصود للتنبيه إلى الرابطة القديمة بين الدولتين ، دولة سليان ودولة سبأ ، وإلى العاقبة التي انتهت إليها أمور هاتين الدولتين .

(د) ردت الأساطير الحبشية نسب أسرتها الملكية القديمة إلى سليان وماقدة ملكة شبا، أو بلقيس ملكة سبأ . وربما تواتر خبر هذه النسبة المزعومة إلى الأحباش عن طريق أسلافهم القدامى ، أو عن طريق جيرانهم السبأيين الجنوبيين ، أو عن طريق رواة العبرانيين الذين اتصلوا بهم منذ أواخر القرن الرابع ق . م . وهي على أى وجه من هذه الوجوه تشير إلى أن دولة الجدة ماقدة التي انتسب ملوكهم إليها ، إن حقاً وإن ادعاء ، كانت في أغلب الظن قريبة من بلدهم أى في جنوب شبه الجزيرة العربية .

وعلى أية حال فإنه يبدو أنه إلى جانب الكسب الديني الذي أحرزه

سليمان بتحويل حاكمة سبأ من عبادة الشمس إلى عقيدة التوحيد كما ذكر القرآن الكريم ، كان هناك كسب اقتصادى آخر ، إذ يسرت الصلة بينه وبين سبأ الانتفاع بطريق قوافل الإبل السبأية الجديدة التى تحمل منتجات البخور الجنوبية إلى دولته ، وهو طريق يعتبر أقل نفقة وأخطاراً من طريق نقل المتاجر بأسطول سليمان عبر البحر الأحمر إلى أوفير التى ذكرتها التوراة ، كما أنه أقل تكلفة قطعاً من طريق الوساطة عبر الحليج العربي والعراق إلى فلسطين . حوقد روت التوراة أن ملكة شبا حين قصدت سليمان «أتت فلسطين . حوقد روت التوراة أن ملكة شبا حين قصدت سليمان «أتت وقالت كذلك « ولما سمعت ملكة شبا عن اهتمام سليمان بإسم الرب أتت تمتحنه بأسئلة صعبة » . وأشار القرآن الكريم إلى هدايا حاكمة سبأ إلى سليمان ورفضه قبولها و تفضيله دعوتها إلى ديانة التوحيد .

وبقى أخيراً أنه إذا اعتبرت الحجة الأولى لنظرية هومل وأصحابه باستبعاد سفر الحاكمة السبأية من الجنوب العربي إلى فلسطين حجة غير ذات موضوع نظراً لترجيح استخدام الإبل فى السفر فى عصرها ، فإن الحجة الثانية لها لا تزال بغير رد شاف حتى الآن ، وهى لماذا لم تتضمن النصوص السبأية القديمة المعروفة اسم ملكة وليت عرش قومها فى الجنوب ؟ ولعل ما يمكن أن يرد به حتى الآن على هذا التساول هو أن الأمر قد يرجع إلى محض المصادفة ، بمعنى أن أرض سبأ الجنوبية لا تزال تتضمن نصوصاً قديمة المحادفة ، بمعنى أن أرض سبأ الجنوبية لا تزال تتضمن نصوصاً قديمة التشاور لم تكتشف بعد ، هذا إذا كانت الكتابة قد عرفت فعلا فى عهد تلك السيدة التى قرئت رسالة سليان فى حضرتها أو تلت هى مضمونها وطلبت التشاور فيها .

ثانياً: ذكرت النصوص الأشورية السبايين وحاكمين لهم في ثلاث مناسبات ترجع إلى أعوام ٧٣٨ و ٧١٤ و ٦٨٥ ق . م . فذكر نص للملك الأشورى تيجلات بيليسرالثالث في عام ٧٣٨ ق : م . أنه تلقى جزئ السبايين من الذهب والإبل والتوابل . وأكد نص للملك سرجون الثاني ملك آشور في عام ٧١٤ ق . م . أنه تلقى من « إتى أمر » السبأى (أو السبقى)

جزى من الذهب والأحجار الكريمة والأعشاب والحيول . ثم ذكر نص لولده الملك الأشورى سينا خريب في عام ١٨٥ ق. م . أنه حين احتفل بوضع حجر أساس «بيت أكبتو» (وقد يكون معبداً أو حصناً أو قصراً). ، استقبل مندوباً عن الحاكم السبأى «كريبي إيلو» حمل إليه جزاه (أو هداياه) من المعادن الثمينة والأحجار الكريمة والطيوب ، ووضع جانباً منها بأمر مولاه في أساس المبنى الجديد

ولم يحد الباحثون المحدثون بأساً في اعتبار اسمى الحاكمين السبأيين اللذين ذكرتهما النصوص الأشورية ، محرفين عن «ينع أمر» و «كرب إيل» وهما من حكام سبأ الأوائل . ثم أضافت النظرية الأولى أن السبأيين الذين صورتهم هذه النصوص يدينون بالولاء لدولة آشور لا بد وأنهم كانوا محسون بسطوتها ويخشون بأسها ، وبمعنى آخر كانوا قريبين منها في شهال شبه الجزيرة وليسوا بعيدين عنها في مناطق الجنوب

ولكن هذا الاستنتاج يضعفه من ناحية أخرى أن هومل وغيره (مثل سان جون فلبي) أرجوا بداية الكيان السياسي لحكام سبأ الجنوبية بغام ١٠٠ أو ١٨٠ ق. م. وإذا صح هذا فلا بد أنه حدث بعد فترة طويلة تكفي لاستقرارهم وبسط سيطربهم على الأراضي التي نزلوها جنوبا . وهو أمر يتعارضبداهة مع سابق الظن بوجود دولهم في الشمال وتأثرها المباشر بسطوة الأشوريين حتى عهد سينا خريب في أوائل القرن السابع ق . م .

ولا يكفى فى هذا القول بأن الضغط الأشورى على طرق التجارة فى شال شبه الجزيرة هــو الذي اضطر السبأيين إلى النزوح إلى الجنوب فالمصادر الأشورية لم تصور السبأيين كأعداء تعمل جيوشها على طردهم وحرماتهم من التجارة ، وإنما صورتهم مهادنين لملوكها تترافر فهم علامات الود والطاعة ، وإن أدوا الجزى إلهم أو أرسلوا هداياهم إلى بلاطهم

وهكذا يبدو أقرب إلى الاحمال أن السبأيين الشماليين المتصلين بدوله آشور كانوا مجرد جالية تجارية أقامت قرب تيماء ومنطقة الجوف الشمالي (م ٤ ــ تاريخ شبسه الجزيرة العربية)

كما رأت النظرية الثانية ، لترعى المصالح التجارية لدولتها على طرق القوافل ، وكانت تحس بسطوة الأشورين فعلا لقربها منهم وترى من مصلحها أن تنتفع من الاتجار معهم والاحماء بهم ، ولم تجد بأساً من أن تقدم إلى ملوكهم هداياها بأسهاء ملوك دولتها الجنوبية ، كما أن الأشوريين لم يجدوا بأساً من ناحيتهم في أن يروا طاعمها لهم تعبيراً عن طاعة دولتها الجنوبية لسلطانهم .

ثالثاً: ذكرت عبارة فى الإصحاح الأول من سفر أيوب فى التوراة أن لصوصاً سبأيين فتكوا برعاة أبوب ، وقال قائل : « البقر كانت تحرث ، والأتن ترعى بجانبا ، فسقط عليها السبأيون وأخذوها ، وضربوا الغلمان عد السيف ، ونجوت أنا وحدى لأخبرك » . ولما كان أيوب فيا بجتها من أهل الشهال أكثر من أهل الجنوب ، فإن ذلك قد عنى فى رأى هومل وأصحابه أن السبأيين كانوا يعيشون فى عهد أيوب قريباً من دياره فى شمال شبه الجزيرة وليس فى جنوبها ، وهو استنتاج طريف لولا أنه أقرب إلى أن ينطبق على بعض رجال الجالية السبأية الصغيرة التى أشرنا إليها ، دون دولة سبأ الغنية الكبيرة .

رابعاً: ذكرت عبارة أخرى من عبارات العهد القديم اسم سبأ إلى جانب اسم ددان. وكانت ددان هذه دولة شالية قامت حول واحة العلا في شال الحجاز. وقد عنى ذلك عند هومل وأصحابه أن سبأ كانت بدورها قريبة منها في الشال وليست بعيدة عنها. وذلك استنتاج منطقي هو الآخر، ولكن يمكن أن يرد عليه بما انتهنا إليه في القرينة السابقة من حيث أنه أقرب إلى أن ينطبق على الجالية السبأية التي سكنت حول واحة تيماء إلى الشمال الشرق من واحة العلا أو ددان.

وقبل أن ندع قرائن التوراة لا بأس من أن نشير إلى أنه لما كانت أسفار التوراة قد أقرت فى بعض قصصها الأخرى بالأمر الواقع من استقرار السبأيين فى الجنوب فى دولة سياسية كبرة ، اتجه بعض الباحثين إلى القول بأن هذه القصص عندما تذكر «شبا» تعنى جا سبأ النمن، وعندما تذكر «سبأ»

تعنى بها السبأيين القاطنين فى الشهال ، وإن كان كتبة التوراة قد خلطوا بين التسميتين فى صحفهم ولم يراعوا هذه التفرقة كثيراً .

خامساً: سبجل كبيران من حكام ددان أيضاً فى نص مشترك أنهما توجها بالشكر إلى أرباب معين (وكانت معين دولة جنوبية ارتبطت بها دولتهما بالولاء) على نجاة قافلة تجارية اضطرت إلى المرور فى مناطق شملتها الحروب ، وتعرضت خلال سيرها لهجوم سبأى (وخولانى) عليها . ورأى هومل أن الأخطار التي تعرضت لها هذه القافلة كانت فى شهال شبه الجزيرة العربية ، كما أضاف فلبى أنه ليس من المعقول أن يعمل السبأيون على نهب قافلة تجارية فى عهود نضجهم السياسي وإنما الأرجح فى رأيه أنهم كانوا لا يزالون يعيشون حيناداك على حال من البداوة .

ومرة أخرى يمكن التعقيب على هذا الاستنتاج بأنه إذا صح أن السبأيين الذين نعرضوا للقافلة المعينية كانوا من أهل الشمال فعلا فإنه ليس هناك ما يحول دون اعتبارهم من أفراد الجالية السبأية الشمالية الصغيرة لا سيا وأن فشل هجومهم عليها يدل على قلتهم وبساطة شأنهم. ويمكن أن نتجاوز هنا عن أن قبائل خولان التي ذكرت مع المهاجمين السبأيين قد عاشت هي الأخرى على أطراف الجنوب ، وأن تاريخ نجاة القافلة متأخر عن تاريخ إنشاء دولة سبأ الجنوبية بأجيال كئيرة

سادساً: جمعت بعض النصوص السيأية بين اسم سبأ واسم يقرأه هومل بهليح ويراه مرادفاً لاسم دقلة وأنه يدل على منطقة الجوف في شمال شبه الجزيرة ، كما جمعت بينه وبين اسم يقرأه هومل أيضاً بيشان أو فيشان ويراه مرادفاً لاسم وادى الدواسر أحد أودية الشمال أو أودية الجنة على حد تعبيره .

غير أنه يبدو أن هذا الاستنتاج لا يزال هو الآخر قرين الظن إن لم يكن قرين الافتعال ، وكل ما يمكن قوله الآن هو أن اسم يهبليح قد استعمل كذلك للدلالة على قبيلة عاشت حول صرواح أقدم عواصم سبأ في الجنوب. وأن اسم

بیشان إن دل علی وادی الدواسر أو وادی بیشة فهو أقرب إلی حافة الربع الحالی ، وإن دل علی قبیلة فهی قبیلة عاشت حول صرواح أیضاً وانتسب إلها أوائل الحکام السبأیهن .

سابعاً: يرى هومل أن اسم مأرب (أو مريب) الذى اشتهرت به عاصمة سبأ الجنوبية (بعد صرواح) ذو صلة بلفظ أريبي الذى أطلقه الأشوريون على أعراب شهال شبه الجزيرة وبادية الشام ، ولفظ يارب الذى أطلقته عليهم بعض نصوص التوراه ، وذلك مما يعني في رأيه أن السبأيين كانوا من الأقوام الشهاليين الذين عناهم الأشوريون والعبرانيون ، فلما انتقلوا إلى الجنوب أطلقوه على عاصمتهم .

ولكن يلاحظ على هذا الاستنتاج أن السبأيين في الجنوب لم يتخذوا مأرب عاصمة لهم منذ بداية أمرهم أى في الوقت الذي كانوا يستطيعون أن يتذكروا فيه أصلهم ويخلدوا ذكره ، وإنما اتخذوا أولى عواصمهم في صرواح قبل أن ينتقلوا إلى مأرب بعشرات السنين . وهم لم يصفوا أنفسهم صراحة في نصوصهم المكتوبة بتسمية عرب أو أعراب المرادفة لتسمية أريبي الأشورية . بل ولم يستعملوها إلا في عهود متأخرة نسبياً ليصفوا بها أعراب الجبال والوديان التابعين لدولتهم ، وذلك في حدود ما هو معروف حي الآن من نصوصهم .

ثامناً: نبه هومل وأصحابه إلى أن اللهجة السبأية هي أقرب اللهجات الجنوبية صلة بلغة القرآن العربية الشالية . وفي ذلك قرينة لطيفة لا تنكر . لولا أن هذه الصلة يمكن أن تفسر من ناحية أخرى باستمرار النصوص السبأية الحميرية حتى عهد نزول القرآن الكريم أكثر مما عداها من بقية النصوص الجنوبية الأخرى ، وأن عامل الزمن كان له أثره فى التقريب بين لهجات عرب الجنوب ولهجات عرب الجنوب ولهجات عرب الجنوب ولهجات عرب البعيد بيهما . وذلك فضلا عن وحدة الأصل البعيد بيهما .

وعلى أية حال ، فقد تعمدنا الإسهاب في مناقشة و جهاب النظر المحتلفة حول الأصول السباية كسروج لما يمكن أن تعاليج به مشكلات التاريخ العربى القديم على أساس من أدب النقد ، ومقارعة الحبجة بالحبجة ، وعدم التسليم برأى ما إلا بدليل يضعفه .

من المؤلفات المختارة في دراسات الفصل:

تكاتش ، ج . : سبأ - فى دائرة المعارف الإسلامية -- ج ١٨ -- ص ١٩٨ وما بعدها . نيلسن و هومل ورودوكاناكيس وجروهمان · التاريخ العربي النديم -- ١٩٢٧ -- ترحمة فؤاد حسنين -- القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٦٣ -- ٣٤ .

Abdel-Aziz Saleh, "The Gnbtyw of Thutmosis III's Annals and the South Arabian Gebbanitae of the Classical Writers", BIFAO, 1972, 245-262.

Eissfeldt, O., in CAH, II, 1965,593 and reference.

Grohmann, A., Arabian, 1961.

Musil, A., The Northern Hegaz, 1926.

الفصل الرابع

عهود المكربين (أو المكارب) في سبأ

اصطبغت سلطة أوائل حكام دولة سبأ بصبغة ثيوقراطية أو دينية ، فتلقب كل منهم بلقب «مكرب» وهو لقب لايزال غير محدد النطق والدلالة، وإن أمكن تفسيره احمالا بمعنى «المقرّب» للمعبودات، أى من يشرف على توفير القرابين وتقديمها إلى معابدهم ، أو بمعنى «المقرّب» بين شعبه وبين معبوداته باعتباره وسيطا مقدسا بينهما ، أو بمعنى «المقرّب» إلى أربابه . وهو على أى وجه من هذه الوجوه يتولى رياسة الكهنوت في دولته ويضمن إحاطة حكمة بقداسة روحية تكفل احترام الناس له وتدعوهم إلى تأييده . وتوافرت لهذه الصبغة الثيوقراطية سوابقها في أمم شرقية قديمة ، فتلقب أوائل الحكام السومريين في العراق ، على سبيل المثال ، بلقب « إنسى » أى النائب أو الوكيل ، إشارة إلى وكالته عن معبود مدينته في حكم أهلها ، وإشارة ألى القداسة بالوكالة التي برتكز عليها في ممارسة سلطاته الدينية والمدنية . وتكررت نفس الظاهرة في دول عربية جنوبية أخرى عاصرت السبأيين في بعض مراحل تاريخهم ، وكان منها أن تلقب أوائل الحكام في دولة معين بلقب «مزود» ، وهو ما سوف نتناول مدلوله في حينه .

ولازال الجدل التاريخي قائما في شأن تحديد البداية الزمنية لعهود المكربين السبأين (أو المكارب السبئين). فبينما يلتزم باحثون بوضع عهد حاكمة سبأ المعاصرة لسلمان موضع الاعتبار وبدء قيام دولتها بالتالى بالقرن الحادى عشر ق. م. أو نحوه - يكتفى بعض الباحثين الآخرين بالإقتصار على عهود الحكام الذين سملت النصوص القديمة أسماءهم ، ضاربين صفحا عن عهود ما قبل معرفة الكتابة في سبأ ، ولايذهبون بتاريخ الدولة المؤكد بناء على ذلك

إلى أبعد من عهد «يثع أمر » السبَّى الذى ذكره نص سرجون الثانى ملك آشور فى عام ٥٧١ أو عمام ٧١٤ ق. .

وقام جدل تاریخی مماثل حول أعداد المکربین الذین أتوا بعد « یشع أمر » وسبقوا عهود الملکیة الصریحة فی سبأ ــ فتر اوحت النظریات فی تقدیر عددهم بن ۱۰ ، ۱۷ ، ۱۷ ، ۱۷ ، نظریة مبرراتها بطبیعة الحال .

وترتب هذا الجدل و ذاك على ماسبق أن أشرنا إليه من أن كتبة السبايين وغيرهم من كتبة الدول الجنوبية لم يسجلوا الأحداث بتاريخ ثابت إلا في عهود متأخرة ، ولم يلتزموا بتسجيل سنوات عهود حكامهم إلا في عهود متأخرة أيضاً ، وفي حالات قليلة . ولم يتركوا قوائم ترتب أسماء حكامهم ومدد حكمهم واحدا بعد الآخر . وترتب على هذا كله أنه لم يعد في الإمكان معرفة تتابع حاكمين إلا إذا ذكر نص صريح أن أحدهما أكمل عمل الآخر ، وأو إذا ورد اسم حاكم وأبيه . بل إن الاعتماد على هذين الأساسين لايخلو من عاطرة في بعض أحواله، فقد يكمل أحدهم عمل جده وليس عمل أبيه، وقد يحكم بعد عمه وليس بعد أبيه، وقد تتشابه أسماء الحكام وآبائهم في فترات متباعدة . كما قد يحكم ابن مع أبيه في وقت واحد ،أو أخ مع أخيه في آن واحد . وهكذا كما قد يحكم ابن مع أبيه في وقت واحد ،أو أخ مع أخيه في آن واحد . وهكذا لم يجد الباحثون بدا من ترتيب أسماء الحكام التي أتت الآثار بها ترتيبا لم يجد الباحثون بدا من ترتيب أسماء الحكام التي أتساس افتراض ما بين احتهاديا . وتقدير عهودهم تقديرا اصطلاحيا ، على أساس افتراض ما بين احتهام عن طريق المصادفة في نصوص خارجية مؤرخة عاصرت يمهودهم عن طريق المصادفة في نصوص خارجية مؤرخة عاصرت يمهودهم عن بين مهما يكن من أمر بداية عمود المكريين وعددهم . فإن أهم على أنه مهما يكن من أمر بداية عمود المكريين وعددهم . فإن أهم

على آنه مهما يكن من آمر بداية عهود المكريين وعددهم . فإن أهم ماينسب إلى عهودهم هى آثار معابدهم الباقية ، وبداية مشروع سد مأرب . وعملهم على التوسع الخارجي في المناطق الجنوبية المجاورة لهم .

اتخذ المكربون عاصمتهم الأولى فى مدينة توافرت لها بعض المقومات الضرورية للعواصم السياسية ، وهى مدينة صرواح . فقد نشأت فى وادخصب شبه دائرى كفل لها مطالبها الزراعية وبعض مواردها الاقتصادية ، وأحاطت

بها بعض المرتفعات فكفلت لها الحصانة الطبيعية . وتوسط موقع صرواح بين مدينتي مأرب وصنعاء الشهيرتين ، وتقوم على أطلالها الآن كل من قرية القصر وقرية الحريبة ، ويظهر على سطح الأرض من عمائرها القديمة أطلال قليلة ، بينا بقيت أغلب آثارها تغطيها الأنقاض حتى الآن .

ويبدو أن الصبغة الدينية التي استعان المكربون بها في تدعيم حكمهم جعلتهم يولون اهتماما كبيرا لمعابد معبوداتهم واظهارا لتقواهم الشخصية وتأكيدا لصلتهم الروحية بهذ المعبودات وعملا على كسب ولاء رجال الكهنوت وبعض المدنيين أيضاً عن طريق تخصيص المرتبات العينية لهم من عائدات هذه المعابد.

وينسب إلى عهود المكربين البدء فى إقامة أو توسيع عدة معابد قديمة نتخير منها أربعة جرى الكشف عن بعض أجزائها ، وهى: معبد فى صرواح، وآخر فى صرواح أرحب (أو حجر أرحب) ، وثالث فى أوام ، ورابع فى المساجد. وكان هناك دون شك ما هو أكثر منها لولا أنه لم يكشف عنه بعد.

وحين نبحث أمر المعابد فى سبأ أو فى غير ها نبحثها على ثلاثة أسس: . وهى :

(أ) أن المؤرخ يستمد تاريخ الحضارات القديمة ويستنتجه من كل ما تركه أهلها في عالم الفكر وعالم المادة .

(ب) ما سبق أن ذكرناه من أن الآثار القائمة للأمم القديمة تعتبر من أصدق الدلالات على مدى إمكاناتها الاقتصادية والصناعية والفنية ، فضلا عن دلالتها على معتقدات قومها الدينية .

(ج) أن المعابد لاتزال أكثر ما بقى من آثار الأمم القديمة ، نتيجة لبناء أغلبها من الأحجار الصلبة ، ومحافظة القدماء علمها بالترميم والإضافة جيلا بعد جيل ، نظرا لمساكانوا يفتر ضونه فيها من الحرمة والقداسة .

ومع هذه الأسسالني بجب تقدير ها في الدراسات التالية لا بأسمن الاكتفاء

بالمعالم الرئيسية في دراسة المعابد وغيرها من الآثار المعمارية والفنية ، دون ضرورة للالتزام هنا بالتفاصيل الدقيقة فيها ، ولابأس كذلك من التعقيب على العناصر الدينية فيها بما تختلف به عن العقائد الإسلامية ، كلما تطلب الأمر ذلك .

أنشىء معبد العاصمة صرواح الكبير لمعبود دولتها الأكبر الذى أطلق عليه اسم «إلمقه» ربما بمعنى الإله المقتدر أو الآمر، أو الإله البهي أو الجميل. ودل لفظ «إل » أو «إيل » عند العرب الجنوبيين وعند شعوب سامية قديمة أخرى في العراق والشام على معنى الإله . كما استخلام بنفس المعنى في اللغة العربية الشمالية أيضاً في مثل أسماء : اسماعيل وجبرائيل وميكائيل واسرائيل . وهلم جرا .

وتأكيدا لقداسة أصلهم تلقب حكام سبأ بلقب والد إلمقه الى أبناؤه . وخص السبأيون معبودهم الأكر هذا بربوبية القمر واعتروه السيد وعول صرواح الله على تعدد المعبودات فيها إلى جانبه ورئاسته لهم . وقدسوا معه فى معبد العاصمة ربة باسم الحريمت الريما كزوجة له الهم وعند بقية فى أغلب الظن إلى ربوبية الشمس . وهكذا توافرت للقمر عندهم وعند بقية عرب شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام منزلة أكر من منزلة الشمس الحكس عكس شعوب الهلال الحصيب الزراعية الريما الانتفاع أهل شبه الجزيرة بالقمر فى مسرى القوافل وتوقيت الشهور المع شدة هجير الشمس وقسولها المسيا فى البيئات الصحراوية . وقد تعددت ألقاب هذبن المعبودين بتعدد الصفات التى نسما الناس إلهما واختلاف الأماكن التى عبدوهما فيها الصفات التى نسما الناس إلهما واختلاف الأماكن التى عبدوهما فيها المحدائية ما تحيله القدماء من معبودات نعقب على خصائصها كلما أدت مناسبة الحديث إلى ذكرها .

وتألفت العناصر المعمارية الظاهرة فى معبد « إلمقه» فى صرواح من جزئر ضحمن ، أحدهما مستطيل واسع ، والآخر يتصل به ويبدو على هيئة البيضاوى الناقص . وتضمن أحد نصوص المعبد اسم المكرب يدع إيل ذرح) و ذكر أنه سور معبد «إلمقه» وقدم ثلاث

ذبائع لربته «حريمت». ويميل أصحاب التأريخ المختصر إلى توقيت عهد هذا المكرب بنحو ٢٧٠ ق. م. – ويبدو أنه لم يشيد المعبد كله ولم يضع أساسه كله ، وإنما بدأ بتوسيع معبد صغير قديم لمعبود قومه وعمل على تسويره كما أشار إلى ذلك نصه ، وترك لحلفائه أن يزيدوه اتساعا وارتفاعا . ويدعو إلى الأخذ بهذا الرأى أمران ، وهما أن بقية نقوش المعبد تضمنت أسماء عدة مكربين وملوك سبأيين آخرين ، وأن مبانى المعبد الحالية التى ترتفع بعض جدرانها الباقية نحو عشرة أمتار تدل على مهارة كبيرة فى فن العمارة لم يكن من السهل على السبأيين أن يبلغوها فى أوائل عهودهم بالاستقرار وإقامة العمائر الضخمة . ولازالت الأجزاء الداخلية من المعبد لم تكتشف وإقامة العمائر الضخمة . ولازالت الأجزاء الداخلية من المعبد لم تكتشف كشفا علميا منظما حتى الآن ، ويبدو أن جزءا منه تحول إلى حصن فى العصور الاسلامية وزادت فيه حينذاك بعض المداخل والمخارج ، بل ولازالت تقوم فوق جدرانه بعض المساكن الحالية التي غيرت إلى حد ما من خارطته الأصلة .

وأنشيء معبد « معرب » في قرية المساجد ببلاد مراد وعلى مبعدة ٧٧ كيلو متر من مأرب الحالية ، من أجل « إلمقه » أيضاً . وأتم نفس المكرب يدع إيل ذريح عمارته في مناسبتان تحدثت عهما نصوصه ، مناسبة قام فها بتنظيات اجماعية ، وأخرى أحرز فها انتصارات حربية . وذكر عن المناسبة الأولى أنه أسس كل الهيئات الحاصة بمعبوده ، والحاصة به شخصيا باعتباره حاى دولته ، ثم الحاصة بتحقيق الاتحاد والتحالف بين طوائف شعبه . ومعنى ذلك أن دولته الناشئة كانت بسبيل إقرار تنظيات مستقرة تجرى علمها في شئونها الدينية والدنيوية . وتحليداً لذكرى هذه الإنجازات أقيم الجسرة الداخلي من المعبد وتألف من بهو أعمدة بقيت منها ثلاثة ، ويعقبه إلى الداخل فناء كبير تقوم في وسطه مقصورة العبادة الرئيسية وتحمل سقفهاأر بعة أعمدة في صفين ، بينما يتقدم المقصورة صفة ذات أعمدة . ويصل بين أعلى هذه الصفة وبين اعلى المقصورة سقف حجرى منحدر . ولا تزال هذه المحموعة المعمارية للمعبد تحتفظ بروعتها على الرغم مما لحق بها من تهدم .

آما المناسبة الحربية فقد أدت إلى توسيع رقعة اللولة بعد أن استولى يدع إيل ذريح بجيشه على منطقة يشقر ومزارعها . و لما كان يعتقد أن همذا التوسع قد تم بتأييد إلمقه (وذات حميم وعثر) عمل على توسيع مساحة المعبد أيضاً وإحاطته بسور استطيل كبير بلغت أبعاده ١٠٤ × ٣٧ مترا . وتقدمت واجهة هذا السور صفة أخرى فخمة ذات ستة أعمدة مستطيلة المقطع بلغ ارتفاعها بين ٥٠٤ و ٥ أمتار ، أقيمت فوق رصيف حجرى ليضمن توازنها . وتألف كل عمود منها من حجر واحد . وأدت هذه الصفة الحارجية إلى المدخل الرئيسي للمعبد الذي حف به مدخلان جانبيان فتوفر له شكل مهيب . واتصل أعلى الصفة بأعلى المدخل بسقف حجرى منحدر . ولا ندرى هلى كانت ظاهرة السقف المنحدراتي تكررت مرتين منحدر . ولا ندرى هلى كانت ظاهرة السقف المنحدراتي تكررت مرتين مقصودة لتصريف مياه الأمطار من فوقها بسهولة .

وبنى المعبد الثالث المكتشف من عهود المكربين فى بلدة صرواح أرحب (أو حجر أرحب) ، من أجل عبادة « عثر » الذى اعتبره العرب الجنوبيون ربا لنجم الشعرى وولدا لرب القمر وربة الشمس . وكان شأنهم فى هذا التعدد هو شآن أغلب أصحاب الديانات الوضعية القديمة ، ونعنى بها الديانات التي وضعها البشر ولم تكن مما أوحى به من الساء إلى الرسل والأنبياء ، وكانوا يتخيلون لكل ظاهرة طبيعية ربا مختص بها ، ويتخيلون لمعبوداتهم حياة تماثلها حياة البشر يتز أوجون فيها وينجبون . ويتآلفون فيها ومختصمون . وظل العسرب القدماء هكذا حتى ظهر الإسسلام فخلصهم من تعسدد وظل العسرب القدماء هكذا حتى ظهر الإسسلام فخلصهم من تعسد المعبودات ووجههم إلى ديانة التوجيد وعبادة رب العالمين دون سواه . وبني المعبد بتخطيط بسيط ولكنه لا مخلو من خصائص مميزة تمثلت في تعدد المشكاوات وإدخال عنصر الزخرف على أجزائه المعمارية ولا سيا الأصلية الأربعة وقامت في مؤخرة فنائه الداخلي المقصورة الرئيسية للعبادة ، وبني أمامها حوض مربع متسع ، لعله كان يستخدم لماء التطهير .

وظهرت عناصر التجديد في عمارة المعبد في أنه تبصدرت واجهته الخارجية مشكاة عليا تطل على الطريق . وتصدرت جداره الخلني مشكاة عليا أيضاً تطل على فنائه . كما تصدرت الجدار الداخلي لمقصورة العبادة مشكاة ثالثة كبيرة تطل على المتعبدين فيها . ويبدو أنه كان يوضع في كل مشكاة من هذه المشكاوات تمثال لصاحب المعبد . ثم تجديد زخرفي آخر ، تمثل في إقامة تسعة أعمدة مثمنة الأضلاع على الجوانب الخارجية لحوض ماءالتطهير الكبير . وإقامة تسعة أعمدة أخرى كل عمود منها ذو ١٦ ضلعاً داخل مقصورة العبادة الرئيسية . وكان لكل عمود منها تاج زخرفي في أعلاه يضيق من أعلى إلى أسفل مما يشبه بعض العمائم اليمنية . وقد تهدمت الأعمدة ولم من تيجانها .

وتكرر اسم المكرب يدع إيل ذريح ، الذى أولى اهتاماً خاصا للمعابد ضمن نصوص معبد ضخم آخر يقع إلى جنوب شرقى مأرب الحالية بنحوأر بعة كياء مترات ، وهو معبد أطلق السبأيون عليه اسم بيت أوام أى معبدها على اعتبار أنه يعنبر بيتا مقدساً للمعبود الأكبر فى البلد الذى يعبد فيه، وخصصوه لإلمقه بعل أوام أى سيدها ، وكانت منطقة أوام هذه ذات صلة بعشيرة مرثد السبأية التى انتسب إلها كثير من حكام سبأ ، وأطلق المسلمون على المعبد غلى المعبد على هيئة بيضاوية تقريباً ، ولا يزال داخله لم ويظهر السور الكبير للمعبد على هيئة بيضاوية تقريباً ، ولا يزال داخله لم يكتشف بعضه ، بيما اكتشفت بعثة أمريكية آثارية أجزاءه القريبة من مدخله فأظهرت بضعة عناصر معمارية راقية بنيت فى أغلب الظن بعد عهودالمكر بين ولهذا نواجل الحديث عنها إلى حين نبحث منشآت عصور الماكية فى سبأ .

ويكفى هنا مايستنتج من اتساع النشاط المعمارى فى عهود المكربين فى أكثر من مكان . وإذا لم يكن لدينا حتى الآن ما نقدمه من صور هذا النشاط غير المعابد ، فإن المعابد لم تكن تقام فى مناطق مقفرة وإنما لابد أنه صحب قيامها نشاط أكسر فى توفير العمران السكانى والاقتصسادى بقربها : وإذا كان مكرب واحد مثل يدع إيل ذريح قد أسعد الحظ ذكراه بأن أبقى على نصوصه فى ثلاثة معابد على أقل تقدير لتكون شاهداً على اهتماماته الدينية والعمرانية والتنظيمية والحربية كما أسلفنا ، فالمرجح آن مكربين آخرين سبقوه وخلفوه كان لهم مثل نشاطه، وتحدثت بعض نصوصهم الباقية فعلا عما عملوا على تشييده فى عهودهم من معابد ، وإن لم يعتر على آثار معظمها حتى الآن . وأخيراً فقد كان اتجاه النشاط الإنشائي والديني إلى قرب مدينة مأرب مبشرا بقرب انتقال الأهمية السياسية إليها واستغلال ماحولها ، وقد أقيم فيها بالفعل أكبر مشروع بدأه السبأيون فى عهود المكربين وهو :

مشروع سد مأرب :

قامت مأرب عند ملتقى طرق تجارة القوافل القديمة الواردة من بيحان وحضر موت وموانى البحر العربي والبحر الأحر الجنوبية ، فضمنت لنفسها موارد اقتصادية كبيرة من مكوس التجارة . وقامت فى الوقت نفسه عند النهاية الشمالية الشرقية لتل يمتد نحو نصف كيلو متر وبعرض يبلغ نحو ٣٥٠ متر اكفل لها بعض الحماية الطبيعية . كما أشرفت، وهذا هو الأهم، على وادى أذنة الكبير الذى عمل السبأيون على استغلاله فى الزراعة على نطاق واسع .

وغالباً ما كانت الأمطار الغزيرة تسقط على مرتفعات اليمن فى بعض واسمها السنوية وتجرى على هيئة السيول العنيفة فى عدة وديان ينهى بعضها إلى فتحة طبيعية كبيرة توسطت بين جانبى جبل بركانى مرتفع سمى جبل البلق ، وهو جبل يفصل بين الصحراء وبين مرتفعات اليمن فى منطقة مأرب ويسمى جانباه عند هذه الفتحة باسم ، جبل البلق الأوسط وجبل البلق الشمالى. ويبدو أن تسمية « البلق » كانت تعنى الحجر كما تعنى الفتحة أيضاً . وإن سميت هذه الفتحة الآن باسم « الضيقة » . ويتراوح اتساعها فى بعض أجز ائها بين ، ٥ متر وبين ، ١٩ مترا ، متوسط للاتساع يبلغ ، ٢٣ مترا . وكانت السيول بعد أن تعبر هذه الفتحة تندفع إلى وادى أذنة (أو مترا ، وكانت السيول بعد أن تعبر هذه الفتحة تندفع إلى وادى أذنة (أو مترا) الكبير فتتفرق فيه ، ولا تلبت حتى يضيح أغلها فى التربة بغير فا دة .

واستهدف السبأيون (أو السبئيون) من إنشاء السد ثلاثة أغراص، وهي أن يقللوا من اندفاع السيول إلى وادى أذنة وما يمكن أن تؤدى إليه من بوار الزرع وتدمير القرى في مواسم الأمطار العنيفة. وأن يحولوا دون ضياع أغلب مياه السيول في جوف الأرض حين تتجاوزه. وأن يرفعوا مستوى مياه الرى عدة أمتار تسمع لها بأن تصل إلى المدرجات المرتفعة القابلة للزراعة على جانبي الوادى ، ثم توزيعها عن طريق فتحات جانبية يسهل التحكم فيها . وهكذا يميل المهندس ريتشارد بوين من دراساته لمشروعات السدود الجنوبية إلى تعديل الفكرة القديمة عن الغرض من السد وهي فكرة تخزين المياه خلفه في محيرة صناعية كبيرة أو نحوها وذلك لوجوده في بيئة يمكن أن تتشرب أرضها المياه بسهولة .

وطبق بوين هذه الفكرة ، والعهدة عليه فيها بحكم تخصصه ، على سدود بيحان وغير ها من المناطق الجنوبية الأخرى . وكرر أن العرب الجنوبين لم يعملوا قط على خزن المياه وراء السدود ولكنهم بنوها لكسر حدة السيول وتوزيعها على أكبر مساحة ممكنة . كما أشار إلى أن سدود الجنوب بنيت في وديان جافة وليست عبر أنهار ، مع عدم توافر الخبرة لبنائها تحت الماء .

وأقدم من سجل اسمه من حكام سبأ على صخور سد مأرب مكرب يدعى سمهو عالى ينوف (حرفياً: سمه على ينف). وهو مكرب يرد فلبى عهده إلى منتصف القرن السابع ق. م، ويرده ألبرايت إلى القرن الخامس ق.م. (ويعتقد فيسمان بوجود مكربين اثنين حملا نفس الاسم وحكما فى هذين التاريخين). وتخير المسئولون عن بناء السد منطقة تلى فم وادى أذنة وبمعنى آخر تلى مدخل فتحة جبل البلق نظراً لتحديدها النسبى . وإمكان التحكم فيها، وسهولة الاعتماد على جوانبها الحجرية البركانية الصدة.

وبدأوا بتشييد جسر ضخم من الرديم تختلف الآراء في تحديد امتداده الأصلى، وكسوا واجهته بالأحجار في مواجهة تيار الماء، ثم أعيد بناوه كله بعد ذلك بأحجار جيدة في عهود تالية . وامتد هذا الجسر في الجانب الأمن

من اتساع الفتحة، وجعلوا له بوابة متسعة اعتمد أحد كتفها عليه ، أى على الجسر أو الجدار من ناحية ، واعتمد كتفها الآخر على الجبل نفسه من ناحية أخرى . ووجه المشرفون على المشروع المياه بعد هذه البوابة إلى مجرى واسع ينتهى إلى حوض ضخم حددوا جوانبه بالحجر للحيلولة دون سرعة تهدمها أو تسرب المياه منها . وتركوا فى نهاية الجانب الأيمن منه فتحات مناسبة يسهل التحكم فيها لتصريف المقادير الضرورية من المياه لرى الجانب الأيمن من وادى أذنة عن طريق ترع تختلف أطوالها واتساعاتها واتجاهاتها . وأطلقت النصوص القديمة على مشروع عهد سمهو عالى ينوف اسم رحب ، أو رحاب ، أو رحابوم ، كما يقترح بعض اللغويين قراءته ، وهو اسم قد يعنى السد بمعناه الواسع . بينما أطلق اليمنيون المسلمون على بوابته اسم مر بط الدم (أى مر بط القط تأثرا بأسطورة عربية قديمة مستحيلة التصديق) .

وعدل مشروع السد وأكمل فى عهد المكرب « يشع أمر بيين » ابن حفيد سمهو عالى ينوف (الذى تسمى بمثل اسمه) منذ حوالى ٤٦٠ ق . م . وعمل رجاله على توفير مياه الرى للناحيةاليسرى من وادى أذنة كما توفرت للناحية البيسي منه من قبل . فحدوا الجسر أو جدار السذ فى عرض فتحة الجبل حتى شهايتها ناحية اليسار ، وأطلقوا على مشروعهم الجديد اسم (وادى) حبابض و تركوا فى شهايته بوابة ضخمة أخرى ذات فتحتين – وأجروا خلفها مثل ما تم خلف بوابة الجانب الأيمن ، فحدوا وراءها مجرى طويلا دعمت جوانبه بالحجر ، وانتهى إلى حوض واسع ذى فتحات تودى إلى عدة ترع للمياه بالحجر ، وانتهى إلى حوض واسع ذى فتحات تودى الى عدة ترع للمياه بالحجر ، وانتهى المناحية اليسرى المتسعة من وادى ذنة .

هذه صورة عامة لفكرة سد مأرب وبداية أجزائه ... أما أبعاده الحالية فيفهم من وصف من اهتموا بدراسة مقاساته التفصيلية أن الأرتفاع الحالى للجزء الباقى من جدار السد يبلغ ١١ مترا ، ويبلغ امتداده العرضى ١٢,٤٠ من الأمتار ، ويبلغ عرض البوابة اليمنى ٥٥,٥ من الأمتار ، وامتداد ضلع الحوض الواقع خلفها ٧٨,٨٠ من الأمتار .

أما في الناجية اليسرى وهي الأكبر فيمتد المحبرى المائي الأساسي فيها

نحو ١٩٦٠ مترا، وتتفرع من الحوض الذي ينتهي إليه ١٤ ترعة يبلغ عرض الواحدة منها نحو ثلاثة أمثار. وقد فتحت في أعلى الجانب الأيسر لسد حبابض أربع فتحات تساعد على تصريف المياه الزائدة عن المنسوب المطلوب، وتودى إلى تخفيف ضغط المياه على جدار السد نفسه. وقد اتبعت فكرة الأهوسة في الفتحات أو البوابات خلال مراحل التقدم المعماري التالية. فشي في الكتفين الجانبيين لكل بوابة تجويفان رأسيان ممتدان بارتفاعها لتنزلق فيهما كتل الأخشاب الصلبة حين يراد قفل البوابة. وترفع فيهما إلى أعلى حين فتحها. ولاتقل طرق البناء المتمثلة فيام بقي سليا من السد دلالة على براعة المعماريين، فقد شيد في عصور اكتاله من أحجار ضخمة قطعت من جبل البلق وثبتت في مداميكها عونة صابة. وربط أحيانا بين بعض أحجارها وبعض آخر بقضبان من النحاس المنصهر والرصاص المنصهر رغبة في زيادة ترابطها وتماسكها . (وقد بقارن لهذا استخدام ذي القرنين لمصهور الحديد والنحاس في بناء سد دفاعي كبير -- أنظر سورة الكهف ... آية ٩٦) .

والمرجح أن جانبي وادى أذنة اللذين انتفعا بمشروع سد مأرب هما اللذان عناهما القرآن الكريم بقوله: (لقد كان لسبأ في مسكنهم آية ، جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدة طيبة وربغفور..). ولاتزال آثار القرى التي انتفعت بالحرس الأيمن لسد مارب تدل على عمرانها القله يم وإن تخربت الآن إلى حد كبير ، ومنها مدينة النحاس وخرابة مروث وعرم بلقيس والعايد . وكانت مأرب أكثر انتفاعا بالحرى الأيسر ، وقد أطلقت النصوص على منطقته اسم يسرن .

والواقع أن روعة وضخامة سد مأرب باجزائه كما سبق وصفها تدعوان إلى الشك فيما إذا كان قد بدأ هكذا منذ عهد منشئه سمهو عالى ينوف وعهد سفيده البعيد يثع أمر بيين ، أم أن شقى المشروع بدءا متواضعين في عهديهما ثم زاد اتساعهما وارتفاعهما وتقويتهما في عهود من تبعوهما من المكربين والملوك ، ولعل هذا الرأى الأخير هو الأرجح . فقد أصلحت جدران السد أكثر من مرة بعد أن تعرضت للهدم نتيجة لتراكم الإرساب خلفها حينا ، وبتأثير عامل الزمن في مبانها حينا ، وشدة السيول حينا آخر . وسحل عدد من

الحكام السبأيين أخبار مرات الإصلاح التي تمت في عهودهم . وكان من ذلك على سبيل المثال أن أعيد بناء الهويس الشهالي في عهد الملكين ذمر عالى سأبر وثأران بعد القرن الميلادي الأول . واتخذت الفتحات الشهالية للسد صور بها النهائية في عهد الملك شمر برعش في حوالي عام ٢٢٥ م . ثم جدد المبنى كله أو دعم في عهد الملك شرحبيل يعفور في عام ٤٤٩ م . كما أعيد إصلاح صدع فيه في العام التالي أي عام ٤٥٠ م .

و بمن آخر إصلاحات السد فى عهد أبرهة ملك سبأ حوالى عام ١٥٥ م وبدلت فيه حيندالك جبود ضخمة . بحيث ذكرت نصوص أبرهة أن رجاله قضوا فى ترميم السد أحد عشر شرا . واستهلكوا ٢٠٨٠٦ غراره من الدقيق . و ٢٠٧٠٠٠ على من التمر . و ٣٠٠٠ بعير وثور . و ٢٠٧٠٠٠ رأس من الغنم . وعلى الرغم من قيام تورة ضده حينداك فى منطقة مأرب و تفشى الوباء فيها . إلا أنه أقام حفلا كبيرا بمناسبة انتهاء العمل فى إصلاح السد . حضره وفد من الحبشة . ووفد من فارس ، ووفد من بيزنطة . ووفدان من الحبرة وغسان .

وعلى أية حال فقد استطاع السبأيون على امتداد عصور اهمامهم بساد مأرب أن يتدوا مشروعا كبيرا حق لهم أن يفخروا به بين المشاريع المائية الأخرى في العالم القديم . وهي مشاريع كان من أقدم ما يمكن ترجيحه منها حتى الآن مشروع سد اللاهون في مصر الذي شيد في أوائل القرن الثاهن عشر ق . م . لتوجيه جانب من فيضانات النيل إلى منخفض الفيوم لرفع مستوى المساء فيه حتى تنتفع به أكبر مساحة ممكنة من أراضي المدرجات الخصبة التي تحيط به . ثم الانتفاع ببعض مياهه لرى الأراضي القريبة منها الخصبة التي تحيط به . ثم الانتفاع ببعض مياهه لرى الأراضي القريبة منها في غير أوقات الفيضان . وربما سبق مشروع هذا السد سد آخر في منطقة الجيزة بمصر أيضاً أقيم حوالي القرن السادس والعشرين ق . م . ولكن استخدامه لم يعمر .

وظل سد مأرب يؤدى أغراضه حتى بهاية عهد أبرهة فى عام ٧١٥ م أى بعد عهد بداية إنشائه بأكثر من أحد عشر قرنا . ثم الهار أغلبه عام ٥٧٥ م بما وصفه القرآن الكريم ووصف نتائجه فى قوله : (فأعرضوا فأرسلنا (م ه ـ شبه الجزيرة العربية) عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور . وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالى وأياما آمنين . فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور) – سورة سبأ – الآيات م ا – ۱۸ .

وأقام السبأيون سدودا أخرى محلية فى عهود متفرقة فى المناطق التى تصلها مياه السيول بعيدا عن منطقة مأرب . ومنها سد يعرف باسم وبنى الحشرج لتنظيم مياه وادى السيلة ، ويتكون من ثلاثة جدران ضخمة يقال إن كلا منها يمتد ما بين ١٥٠ ــ ١٨٠ مترا ، وتوجد فتحات كثيرة طويلة بينها ، وعثر جلاسر على عشرة نقوش على صخورها .

ولم تغن السدود السبأيين عن دعوات الاستسقاء وطلب رحمة السهاء من حين إلى حين . وتخلف من نصوصهم القديمة التي وجههوها إلى معبوداتهم بص من عصر المكربين لرجل قدم هداياه وأضاحيه إلى معبوده عثر ذبيان ، وقال في نهايته : « وسقى خرف ودثا سبأ وجوم شبعم » ، أى وسقى (الرب) خريفا وربيعا سبأ وجوما (سقاية) مشبعة .

واختلف اللغويون في تفسير كلمة « جوم » في هذا النص، ففسرها بعضهم بمعنى الشعب أو بمعنى الحلف . وفسرها بعض آخر بمعنى النهر أو معنى السهل ، وفسرها بعض ثالث بأنها تعنى الأراضي المنخفصة من تهامة البمن .

التوسع الحربى :

غالباً ما تترتب على المشروعات الداخلية الكبيرة فى الدول الفتية الناشئة مطالب ونتائج متنوعة يعبر الحكام عنها ويتولون رسم سياستها باسم شعبهم . فهى من ناحية تستدعى توفير الأمن لتنفيذها، وتستدعى العمل على تغطية نفسه نفقاتها سواء من موارد داخلية أو خارجية ، كما تستدعى فى الوقت نفسه العمل على حمايتها من الأخطار المتوقعة الداخلية منها أو الحارجية أيضاً . قاذا

تم تنقيد هذه المشروعات وآتت تمارها وزاد الدخل القومى منها غالبا ماير تفع شأن أصحابها فى نظر أنفسهم ونظر شعبهم ، وهنا إما أن تشجعهم شهرتهم على أن يستزيدوا من الزفاهة لأنفسهم ويخلدوا إلى النعيم . وإما أن تشجعهم على أن يستزيدوا من قوتهم العسكرية والسياسية ليزيدوا لأنفسهم عن طريقها ما يعتقدون أنهم يستحقونه من الحد والشهرة .

ومرت دولة سبأ بأمثال هذه الملابسات والظروف حين مهدت لمشروعات الرى الكبرى فيها وحين أتمتها . فقبيل البدء في مشروع سد مأرب عملت دولة سبأ على الاستزادة من موارد اقتصادية جديدة ولو على حساب جرانها ، تما أخذت تومن نفسها منهم . وكان أقرب هؤلاء الجيران إليها : دولة معين في شمالها ودولة أوسان في جنوبها الغربي . وكانت الأولى تنافسها فيا تأتى به تجارة البر . وكانت الثانية تنافسها فيا تأتى به تجارة البحر . وبدأت دولة سبأ منذ عهد المكرب يدع إيل بيين الذي يؤرخ أصحاب التأريخ المختصر عهده ببداية القرن السادس ق . م . تقص أطراف دولة معين القريبة منها . ويفهم من نصوصه أنه عمل على تسوير مدن الحدود وتقوية أبراجها ليتخذها جيشه مراكز دفاعية أو هجومية في الوقت المناسب . ويحتمل من نفس جيشه مراكز دفاعية أو هجومية في الوقت المناسب . ويحتمل من نفس النصوص أن مدنا حدودية معينية الأصل دخلت فعلا في حوزة دولته مثل النفس نشق ودابر (في جنوب منطقة الجوف) : ثم أعاد رجاله تحصينها لنفس الأغراض الدفاعية والهجومية السابقة .

وجرى خلفاء هذا المكرب على سياسته وعملوا على توسيع المدن الحدودية ومنها المدن المعينية التي دخلت في طاعة دولتهم . وأسكنوا فيها جماعات من السبأيين لينتفعوا بها ، ويكونوا رقباء على أهلها : وسندا لدولتهم فيها . وكان من ذلك أن زيد اتساع مدينة نشق ٢٠ شوحطا في عهد المكرب كرب إيل بيين (في حوالي عام ٥٠٥ ق .م .) — ثم زاد اتساعها مرة أخرى وأصلح ماحولها وأوقفت على مصلحة السبأيين في عهد ولده ذمر عالى وتر ، منذ حوالي عام ٥٣٥ ق .م .) .

وانتفعت الدولة بحالة الأمن والرخاء التي وفرتها هذه الإنجازات وأمثالها ممضت في تنفيذ مشروع سد مارب الكبير . وما أن تم تنفيذ مراحله فى عهد يشع أمر بيين حتى التفتت إلى توسيع الحدود وإرهاب الجيران مرة أخرى . فقد واصل هذا المكرب العمل على تسوير المدن وتجديد الحصون وروت نصوص عهده أنه هاجم (والأصح أن جيشه هاجم) مدن معين حتى منطقة نجران . ودمر بعضها وأحرق قراها وقتل منها الألوف وسبى الألوف . وروت نفس النصوص أنه (أو جيشه) اندار على دولة قتبان التى تجاور دولته من الجنوب وأنزل بمدنها دمارا مماثلا . ويلاحظ هنا أننا وإن سلمنا باتجاه النشاط الجربي لدولة سبأ إلى هذه الابجاهات إلا أننا عرصنا على أن نقول وروت نصوص الملك السبأى كذا أو ادعت كذا العلى وألوف الأسرى وتوالى الانتصارات دائما لصالح أصحابها . ذلك ان القتلى وألوف الأسرى وتوالى الانتصارات دائما لصالح أصحابها . ذلك ان المالغات فى تقارير الحروب أمر مالوف فى العصور القديمة بل والعصور الملائدة أيضاً . والعصور الملائدة أيضاً . وهو ما سنضعه دائما فى الحسبان فى مناسبات آخرى تالية .

وبعد جيلن أو خوهما نشطت سبا إلى حرب توسعية اخرى في عهد آخر مكربيها كرب إيل وتر (الثاني). وكان داهية في الحرب والسياسة، ويفهم من نصوص عهده آنه هادن دولة قتبان و دولة حضر بوت ليتفرغ لحربه مع دولة أوسان. معين , وضمن حيادهما مرة أخرى ليحمى ظهره في حربه مع دولة أوسان. وبدأ فاتجه باطماعه إلى دولة معن ايستغل ما أنزلته الجيوش السباية من قبل في نفوس اهل مدنها من الرعب وما صاروا إليه على أيامه من تفرق الكلمة وما لجا إليه بعض أمر أثبم من إعلان استقلالهم الذاتى عن جسم دولة م، وهاحمها بعض حيوشه . وعندما اتبعه إلى دولة أوسان استمال إليه بعض حلفانها وأتباعها ليضعفها وخرمها من معونتهم ، ثم انحط علها بقواته . وهكاد أخذت الجيوش السبأية تضرب هنا وهناك وتخرب وتحرق المدن والقرى بضراوة ثم اتجهت شمالا لتكل سيطرتها على منطقة الجوف ومنطقة نجران . وهنا اذعت نصوص كرب إيل وثر سيطرته على الألوف من الأسرى وقضاءه على الألوف من الجنود مما سنعود إلى ذكره حين نعالج تاريخ كل من الدولتين معين وأوسان في تفصيل . وتكفى الإشارة هنا إلى ماعة بت به نصوص ذلك

المكرب المنتصر من أنه أعاد توزيع الأقاليم التي خضعت له . فاحتجز بعضها لنفسه : وخصص بعضها لمعبوده الأكبر «إلمقه» . وأقطع بعضها للقيائل الموالية له ولاسيا قبيلته التي كانت تسمى فيشان أو بيشان . كما تنازل عن بعضها لدولتي قتبان وحضر موت مكافأة لحما على حيادهما خلال حروبه الطويلة مع خصومه : وتعويضا لحما عن سبق اعتداء أوسان على حدودهما .

وعندما اطمأن كرب إيل وتر إلى سلامة مركزه شجعته انتصاراته على أن يصبغ حكمه بالصبغة المدنية علانية إلى جانب قداسته الروحية . فأعلن نفسه ملكا . وادعى في نصوصه أن ربه إلمقه هو الذي تخيره ملكا أو صبره ملكا وأيده في مشروعاته . وسمل أخبار انتصاراته (عن طريق كتبته) في نص كبير في المعبد الأكبر بالعاصمة القديمة صرواح . ومن تصاريف الأقدار أن نص النصر الكبير هذا قد آل مصيره إلى التلف والمهانة في بداية العصر الحاضر بعد أن أطل وجه الحجر الذي نقش عليه على حظيرة للماشية وأطل وجهه الآخر على طريق السابلة ليعبث الصغار فيه ما شاءت لهم رغبة العبث .

وكما كان كرب إيل وتر خاتمة لعهود المكرين أصبح بداية لعهود جديدة فى تاريخ دولته وهى عهود الملكية السبآية التى يبدؤها أصحاب التأريخ المختصر خوالى عام ١٠٠ ق . م . (بينما كان أصحاب التاريخ المطول يبدأونها خوالى عام ٦٣٠ ق . م .) .

وقبل أن ندع عهود الكربين نود الإشارة إلى نظرية جديدة خرج بها الباحث A. G. Loundine منك عام ١٩٥٦، ولم تستقر صحبها تماما حتى الآن ومفادها أن السبايين وإن لم يورخوا نصوصهم بسنوات حكم المكربين ولم يدرجوا أسماء أولتك المكربين في قوائم متصلة . مما أدى إلى الاختلاف الواسع في تأريخ عهودهم كما أسلفنا من قبل : إلا أن التنظيات السبأية جعلت إلى جانب المكرب موظفا كبرا بلقب الرشو الراسوة الكرب موظفا كبرا بلقب الرسو الرسوة المحتى الكاهن النائب اليورخ الناس باسمه في فترة نيابته التي تسمى الرشوة الورشاوة الاوكان يلى

الكهانة لمعبود قومه «عثر» بالوراثة ولمدا عن والد فى أكبر عشيرة فى الدولة بعد عشيرة الملك (وهى عشيرة حزفر من قبيلة خليل) — ويشرف إلى جانب كهانته على مشروعات الرى والزراعة مخاصة . وربما لم تكن لنيابته فترة محدودة فى عهود المكربين ولكنها أصبحت محددة بست أو سبع سنوات فى عهود الملكية كما سنعود إلى ذلك فيا بعد ، وقد يحمل مع لقبه الحاصل لقب «مود» أى صديق إشارة إلى الصلة أو المودة بينه وبين مكرب دولته .

من المؤلفات الختارة في دراسات الفصل:

أحمد فخرى : دراسات فى تاريخ الئرق القديم – القاهرة ١٩٦٣ . ص ١٥٥ – ١٨٥ . جواد على : المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام – بيروت ١٩٦٨ – ج ٢ – مادة سبأ . نبلسن ، وهومل . ورودوكاناكيس ، وجروهمان : المرجع السابق – ص ٧٥ – ٨٧ . ٢٩٢ – ٢٩٢ .

Bowen, R. Jr., Albright, W. F. and Others, Archaeological Discoveries in South Arabia, I, Baltimore, 1958, 70-75.

Philby, H.J.B., The Background of Islam, Alexandria, 1947; 32-41. Phillips, W., Qataban and Sheba, New York 1955. Shahid, I. Pre-Islamic Arabia, C.H.I. Cambridge 1970.

الفصسل لخاسس دولة قتيسان

أ ــ التكوين السياسي:

قامت دولة قتبان (ق ت ب ن) إلى الجنوب من دولة سبأ وتضمنت وادى بيحان ووادى حريب وما يشغل جزءاً من اليمن وجزءاً من عدن الحاليين . وعاصر كيانها السياسي في بعض عهوده بقية الدول العربية الجنوبية ، سبأ وحضرموت ومعين وأوسان . وتراوحت آراء الباحثين في تعيين بداية هذا الكيان القتباني السياسي بما بين منتصف القرن التاسع ق . م . وبين القرن السابع ق .م ولكن الوجود الاجتماعي والنشاط الاقتصادي لجماعات القتبانيين قد رجحنا (في ص ٤١ ــ ٤٣) إرجاعه إلى ما قبل ذلك بعدة قرون ، حينا دللنا على قيام التبادل التجاري بين الجنبتين القتبانيين وبين مصر القديمة في عهد الملك تحوتمس الثالث خلال القرن الخامس عشر قبل الميلاد . ووجد هذا الدليل المصرى القديم أدلة أخرى تقاربه في نتائج أبحاث بعثة أثرية أمريكية حديثا في قتبان . فقد عثر الباحثان ألبرت جام وفرانك ألبرايت . A. Jamme and F. P. Albright على مخربشات قتبانية (أي نصوص قصيرة غير متقنة) في هجر بن حميد ووادي فرع اتجهت بعض سطورها من اليسار إلى اليمين مما يعني في رأيهما قدم عهدها ، كما تعرفا فيها على أشكال حروف هجائية أرجعا أسلوب كتابتها إلى حوالي القرن العاشر ق . م . واعتبارها من حيث الشكل بقية من مرحلة التحول من الخط الكنعاني القديم الذي يحتمل أن نقله بعض العرب عن جنوب الشام إلى خط آخر تميزت به النصوص الجنوبية وهو الخط المسند . وأضاف جام عن بدائية أشكال هذه الحروف أن رسمها لم يلتزم باتجاه ثابت، فبعضها يميل يميناً وبعضها يميل يساراً ، وبعضها مقلوب وبعضها رسم على جانبه ، وكان تعدد الاتجاهات في رسم الحروف من مظاهر المرحلة الأولية في الأبجدية الكنعانية في الشام حتى

القرن الثانى عشر ق . م . وزكى فان بيك وآخرون هذا الوجود القتبانى القديم من ناحية أخرى بدراسة تتابع الفخار فى مستويات العمران فى هجر بن حيد عيث أرجعولا أنواع الفخار فى أقدم مستويات هذه البلدة إلى مايدور حول القرن الحادى عشر والقرن العاشر ق . م . وزاد وندل فيليبس على هذا فافترض من ملاحظة مستويات أطلال المبانى فى المدن القتبانية احتمال بناء بعضها فى أواسط الألف الثانى ق . م .

ومع هذا القدم النسبي للكيان القتباني ... و نعني بالنسبية هنا ما يتعلق بالجنوب العربي ، وهو أحدث بطبيعة الحال في تكويناته السياسية كثيرا عن دول الهلال الحصيب الكبيرة القديمة ... فقد لاحظ بعض اللغويين أن اللهجة القتبانية وإن بدت أقرب إلى لهجات حضر موت و معين مها إلى اللهجة السبأية ، إلا أن أسلوب الكتابة القتبانية الرسمية وأسلوب تركيب أسماء وألقاب الحكام الكبار فيها ظلا أقرب إلى أمثالهما في دولة سبأ. ومن التفسيرات المحتملة الحكام الكبار فيها ظلا أقرب إلى أمثالهما في دولة سبأ. ومن التفسيرات المحتملة أصلهم القبلي . أو كانوا يشاركون القتبانيين أصلهم القبلي . أو كانوا يشاركوبهم أرضهم في عصور قديمة . ولكن هذه ألكرض خضعت في فترة ما لنفوذ سبأى سياسي وانتقل إليها ماكان شائعا وإذا صح الشطر الأول من هذا التفسير كان فيه ما يزكي ما سبقت الإشارة وإذا صح الشطر الأول من هذا التفسير كان فيه ما يزكي ما سبقت الإشارة إليه من أن الجماعات العربية القيمة في الجنوب وفي الشيال ، كذلك ظلت لفترات قديمة طويلة لاتاتزم عدود إقليدية أو قومية قاطعة فيا بيها : من لفترات قديمة طويلة لاتاتزم عدود إقليدية أو قومية قاطعة فيا بيها : من قبل أن تقوم فيها الدول السياسية واضحة المعالم والحدود ...

وبدأ الحكم في دولة قتيان بنفس الصبغة الثيوقراطية أو الدينية الى دأ بها في بقية الدول العربية الجنوبية . فتلقب أوائل حكامها الكبار مند القرن السابع في م . (في عرض أصحاب التاريخ المختصر) بلقب «مكرب» وهو نقب تناولنا مدلولات مثيله من قبل في سياق الحديث عن حكام سباً . ومنذ بهاية القرن الخامس ق . م . أو بداية القرن الرابع ق . م . فيما يرى ألبر ايت علم المقتبانيون الصبغة المدنية والسياسية في حكمهم وتلقبوا بألقاب غلب الحكام القتبانيون الصبغة المدنية والسياسية في حكمهم وتلقبوا بألقاب

الملوك . وليس من المستبعد أن ذلك التحول قد ارتبط فى حينه بنصر سياسى أو حربى رفع من شأن الحاكم القتبانى فى فظر نفسه ونظر شعبه وجعله يعتبر نفسه لايقل مكانة عن ملوك سبأ الذين سبقوا فى التحول إلى نظام الملكية ، لاسها بعد أن خف الضغط الذى فرضته هذه الدولة على جير انها فى عهد ملكها الداهية كرب إيل وتر .

ويبدوأن قتبان قد استفادت من وضع كانت قد سمحت لها به دولة سبأ المعتزة بقوتها. ثم استغلته هي لمصلحتها. فقد مربنا أن كرب إيل وترمنشيء نظام الملكية في سبأ أقطع قتبان بعض الأراضي التي استولت جيوشه عليها من دولة أوسان مكافأة لها على التزامها بموقف الحياد خلال حروبه ، وهو مطمئن إلى بقائها موالية له . وكانت هذه الأراضي الأوسانية الأصل تطل على ساحل البحر الأحمر وتنتفع من موارده التجارية ، ولهذا عملت قتبان على تدعم سلطائها علما وتوسيع رقعتها لمصلحتها .

ومع منطقية هذين السبين السياسي منهما والتوسعي للتحول إلى الملكية في قتبان ، لابأس من تقدير عوامل أخرى داخلية غالبا ماتهائل نتائجها في نظم الحكم الثيوقر اطية الأصل . ذلك أن تجارب التاريخ أوضحت أن الصبغة الثيوقر اطية في الحكم أشيه بسلاح ذي حدين : فهي وإن ضمنت القداسة للحاكم الأعلى وكفلت له الولاء الروحي من شعبه . إلا أنها كانت خلق أمامه على مر الزمن منافسين من كبار رجال الكهنوت الذين يشاركونه السلطة باسم الدين : وحينذاك يرى من مصلحته أن يرتفع عن مستوى باسة الكهنوت إلى مستوى الملكية ذات السلطات الشاملة .

وعلى أية حال . فإن التحوُّل نحو الملكية في قتبان لم يمنع بعض ملوكها من العودة إلى التلقب بلقب المكرب بين حين وآخر تأكيدا لصفتهم الدينية ولا سيا في أوقات الأزمات (وقد تلقب به الملك يدع أب ذبيان في القرن الثاني ق . م . ، وكذا الملك شهر يجل بهرجب) ، ولم يقلل من استمساكهم بالألقاب التي أكدت صلتهم المباشرة بمعبوداتهم والتي كان منها ما يعتبر الملك ولد (المعبود) عم ، والابن البكر (لكل من) أنباى وحوكم .

واستمر الحكم الأعلى وراثيا فى الأسر المالكة فى قتبان يتولى العرش فيه الابن بعد أبيه ، أو الأخ بعد أخيه إن لم يكن له ولد يحلفه . وربما اشترك ولى العهد مع الملك الحاكم بعد أن تتقدم به السن كى يأخذ عنه خبرته ويمارسها بصورة عملية ، ويؤيد حقه الوراثى عن طريق هذا الاشتراك ويضمن عدم منافسة إخوته له فيه بعد موت أبيه ، وحينذاك تصدر المراسيم باسمى الحاكمين الشريكين معا . ولم يكن الوطن القتبانى أقل منزلة عند أهله من مقدساتهم الدينية ، فإلى جانب القسم الرسمى بأسماء المعبودات لاسيا عم وأنباى ، وباسم الملك الحاكم ، كان يقسم كذلك باسم قتبان .

وفى ظل الملكية قام فى قتبان مجلس الأعيان من شيوخ القبائل وكبار الموظفين أطلق عليه اسم (م س د) أو «مسود» ، ووجد له شبيه بنفس الاسم فى دولة معين ، ولاندى أيهما سبق الآخر . وجرت العادة على أن يجتمع هذا المجلس فى العاصمة « تمنع » بدعوة من الملك ، ربما لمرتين على الأقل فى كل عام ، للنظر فيا يعرض عليه من شئون الضرائب والمنشآت العامة ، وللمداولة فى أمور الحرب والسلم . وإصدار العفو الكلى أو العفو الجزئي فى القضايا الكبيرة . ويتعرف الملك على نتائج قرارات المجلس فإن أقرها صيغت على هيئة مراسيم وأعلم اباسمه ، أو وقعها معه رئيس مجلس المسود . وربما وقعها كذلك فى بعض الأحوال كبار رجال المجلس بأسمائهم مشفوعة وربما وقعها كذلك فى بعض الأحوال كبار رجال المجلس بأسمائهم مشفوعة متعددة : فهو مجلس ملكى مجتسمع بأمر الملك وينفض بامره ، وهو مجلس متعددة : فهو مجلس ملكى مجتسمع بأمر الملك وينفض بامره ، وهو مجلس استشارى يحق للملك أن يقبل اقتراحاته أو يرفضها ، ثم هو فى الوقت نفسه عبلس للدولة يضم كبار أعيان قبائلها وأقاليمها ويبحث فى مصالحها عليها وربما وقع أعضاؤه الكبار عليها كذلك علما بعد موافقة ثم يوقع رئيسه عليها وربما وقع أعضاؤه الكبار عليها كذلك عليها بعد موافقة ثم يوقع رئيسه عليها وربما وقع أعضاؤه الكبار عليها كذلك علما بعد موافقة ثم يوقع رئيسه عليها وربما وقع أعضاؤه الكبار عليها كذلك عليها بعد موافقة ثم يوقع رئيسه عليها وربما وقع أعضاؤه الكبار عليها كذلك بعد توقيع الملك عليها .

وعلى الرغم من صدور المراسيم باسم الملك القتبانى الحاكم إلا أنها لم تكن تورخ بسنوات حكمه ، وإنما تورخ بعام رياسة رئيس مجلس المسود . ويبدو أن هذه كانت رياسة دورية بتعاقب عليها كبار أعضاء المجلس لفترات محدودة قد تقتصر على عام أو عامين لكل منهم ، وقد تزيد عن العامين في أحوال استثنائية يتجدد فيها اختيار الرئيس أكثر من مرة لسبب أو لآخر

وكانت الأوامر أو المراسيم الملكية تنقش على مدخل العاصمة « تمنع » أحيانا ، وتنقش على نصب تقام في السوق الرئيسية وفي المعابد . وتخدم بذلك أغراضاً شيى منها توفير العلنية للمراسيم ، وتخليدها لذكرى الملك الحاكم الذي صدرت باسمه ، ولتظل مرجعاً لما يعقبها من عهود وقوانين . ويضاف إلى هذه الأغراض فيما يختص بنقشها على نصب المعابد أن من المعابد ماكان لها موضعها المتوسط داخل المدن ، ويتردد عليها كثير ممن يعرفون القراءة ، فضلا عما توحى به من وضع الأوامر الملكية تحت رعاية أربابها ، وإشعار الناس أن هولاء الأرباب شركاء فيها ، لا سيما إذا تناولت حقوقاً مفروضة للمعابد ومنشآتها وكهنتها . وليس ما يمنع بعد هذا من افتراض وجود منادين يعلنون مضمون هذه الأوامر والمراسيم شفاهة في الأحياء والأقاليم والقبائل بالم

ومن أهم ما تضمنته نقوش البوابة الجنوبية للعاصمة تمنع . والتي يحتمل تسميتها بوابة « ذو سدان » . بقايا نص لتشريع صدر في عهد الملك يدع أب ذبيان بن شهر في بداية القرن الثاني ق . م . وفيه ما يقضى على القاتل القتباني بالحرمان (من الحقوق المدنية أو الدينية) محكم خروجه على القانون ، فإن تجاهل مقتضيات هذا الحكم وأصر على البقاء في قتبان أباح الملك دمه ، دون أن تترتب على قاتله عقوبة أو ملامة .

ب ـ في الحياة الاقتصادية:

اعتمدت اقتصادیات قتبان وسلطة حکامها علی ۱۰ اعتمدت علیه أغلب الدول العربیة الجنوبیة . من التجارة الداخلیة والتجارة الخارجیة ، وتنمیة الثروة الزراعیة والصناعیة . وربیها الثروة الرغویة أیضاً . ثم الاستفادة فی الوقت نفسه من تحصیل المکوس والضرائب علی هذه و تلك . ووجدت مسلة حجریة صغیرة داخل العاصمة تمنع نقشت علیها بعض تنظیات التجارة الداخلیة والضرائب فی عهد الملك شهر هلال بن یدع أب ، وهدفت إلی ضمان حقوق

الدولة فى ضرائب التجارة ، وحماية مصالح المواطنين التجار والمستهلكين ، وتركيز تجارة العاصمة فى سوق شمر ، وإلزام التجار الأغراب بتبليغ الدولة عن شئون تجارتهم سواء للإذن بممارستها أو لتقدير الضرائب علمها .

وجاء فى هذا المرسوم على سبيل المثال أنه « أيما تاجر فى تمنع أوفى برم ، « لهاكانت تجارته ، بجب أن يدفع ضريبة فى تمنع ليكون له دكانه فى (سوق) شمر ، وهذا حق (وواجب) لكل تاجر أياما كانت قبيلته ، فإذا أسس دكانه أصبح له الحق فى أن يتاجر وحده أو يشارك غيره ، دون اعتراض من مدير شمر ، وإذا سمح مدير شمر للتجار القتبانيين بأن يتجولوا بين القبائل للتجارة و أعلن ذلك أصبح حقاً لهم .

فإذا أخطروه بأن أجنبياً نافسهم فى هذه التجارة أو خدع أحدهم ، غرم هذا الأجنبي خمسن وزنة ذهبية .

ومن أدى ضريبة سوق تمنع ليتاجر فيها . فتاجر مع قبيلة أخرى : فقاد حقه فى ممارسة هذه التجارة ، وذلك حفاظاً على حق القتبانيين الذى خصصه الملك .

وإذا أجر مواطن داره أو محتنا، (؟) لتاجر أصبح ملزماً بأداء ضريبة السوق فى تمنع إلى الملك ، من تجارة (المستأجر) وما تغله ، فإن لم تكف دفعها مما مملكه ومن كسبه الخاص .

وإذا باع شخص تجارة جملة . وكان ينبغى أن تباع نى سوق شمر . وجب أن يجرى بيعها بالتجزئة عن طريق وسطاء قتبانيين .

ولمذا دخل تاجر سوق شمر بتجارة يود أن يبيعها ليلا . وجب على الناس أن ينفضوا من حوله حتى يطلع النهار .

وانتهى المرسوم بالنص على أن للملك حق السيادة على كل معاملة وكل تجارة تجرى فى منطقته ـــ وهذا أمر ينبغى غلى كل ملك (تال) أن يوايده » .

ويبدو أن ما يستخرج حتى الآن من كميات الملح من نهاية وادى بيحان . وعلى أعماق مختلفة فيه ، ثم يصدر بعضه إلى مناطق أخرى من الجنوب العربى . كان بمثل موردا اقتصاديا له اعتباره كذلك فى العصور القدعة . ومن أجل خدمة وتشجيع قوافل التجارة الخارجية أو تجارة المرور (التر انسيت) لا سما فما نختص بالبخور بأنواعه ومشتقاته . ومن أجل إحكام الإشراف علمًا في الوقت نفسه . مد القتبانيون الطرق البرية ومهدوها . ومن أهمها طريق ممر مباتمة (العقبة) الذي بذل فيه مجهود بارع بالنسبة لعصره وبيئته ليصل عبر الجبال بين وادى بيحان ووادى حريب . وتعبره القوافل المتجهة من عدن إلى نواحي مأرب في سبأ . عبر الأراضي القتبانية . وقمد مهدت أرضيته بالأحجار باتساع يتراوح بين أربعة وخمسة أمتار . وامتد نحو ثلاثة أميال بن ارتفاع وانخفاض بانحناءات كشره فى أجزاء سُقتها الطبيعة وأجزاء أخرى مهدُّبها يد الإنسان على مدرجات جبلية تحمى جوانبها جدران منحوتة أو مبنية , وأقيم على كل من طرفى هذا الطريق الطويل حوض للماء لخدمة القوافل وسقاية الإبل. ووردب ثلاثة نصوص من عهد الملك يدع أب دبیان بن شهر تحدثت عن تعبیده فی أیامه . و لوحظ أن هذا المحهود کان مکن توفيره باستخدام طريق سهلي آخر عند من غرب العاصمة تمنع رأساً إلى وادى حريب . لولا حرص القتبانيين على التحكم في التجارة التي تمر في منطقتهم ورغبتهم في إطالة مسالكها داخل أرضهم ليحصلوا أكبر نسبة من المكوس علمها . ونظراً للأهمية الاقتصادية لهذا الطريق نشأت بعض البلدان حوله . ومنها ذوغيلان (حصن الحضيرى) عند مدخله . و بجوارها هجر بن حميد على جانبه الشرقي . وحنو الزرير على جانبه الغربي . ولعلها قامت في بداية أمرها كمحطات للقوافل ومراكز لتحصيل المكوس ثم اتسع عمرانها .

ومنهد القتبانيون طريقاً آخر في ممر نجد مرقد على الحافة الصحراوية بين وادى بيحان ووادى حريب أيضاً . ورصفوه . وتمر التموافل خلاله بين جدارين يبلغ سمك الواحد مهما نحو المتر ــ وقام فيه مركز لتخصيل المكوس من قوافل التجارة المتجهة إلى حريب التي تبعد عنه بنحو خمسة أميال . أو الحارجة منها في اتجاهها إلى بيحان والعاصمة تمنع .

و تو فر للاستثمار الزراعي دور كبير آخر في اقتصاديات قتبان ، ولا سيا في سهلي بيحان وحريب . وبدأت مشروعات الري في وادى بيحان منذ القرن الحامس ق . م . وهو واد كبير ينحدر من المرتفعات الجنوبية ناحية الشمال التقريبي ويبلغ متوسط اتساعه بين ثلاثة وأربعة كيلو مترات ، وإن زاد عن ذلك كثيراً أو قل عنه في بعض أجزائه . وفي انحداره تتعاقب على جانبيه تكوينات بركانية من الشست والكوارتز . ثم لا تابث هذه التكوينات حتى تختفي تحت رملة السبعتين الصحراوية الضخمة . وقامت على البداية الشمالية للوادى مدينة تمنع عاصمة قتبان . كما قامت على بدايته الجنوبية حاضرة أخرى تعرف الآن باسم بيحان القصاب ولا زالت أغلب آثارها لم تكتشف بعد .

وعادة ما كانت مياه الأمطار الموسمية تصل إلى وادى بيحان على هيتة السيول فتملأ مجراه الذى ممتد نحو ٢٥كيلو متر بعد أن يترك الجبال. وباتساع يتراوح بين مائة ومائتي ممتر عرضا. وقد تنقطع هذه السيول لعدة سنوات ، وتتشرب الأرض الرملية جانباً منها ــ ولكن مواسمها وسيولها القديمة أرسبت على مدرجات الوادى مع توالى الأزمنة طبقات كثيفة من الطمى تراوح عمقها في بعض مواضعها بين ١٥ وبين ١٨ مترا.

ولا ندرى هل استفاد القتبانيون خبرة ما من نتائج مشروعات الرى فى أراضى جارتهم سبأ وقلدوها أم لا ، ولكن الدلائل تشير إلى أنهم أحسنوا استغلال أوضاع واديهم فأنشأوا فيه شبكة مائية ضخمة . يفهم من وصف المتخصصين لها أن مجارى المياه الرئيسية منها ، والتى تتلقى معينها من سيول الأمطار الموسمية ، امتدت كيلو مترات طويلة وبلغ اتساع بعضها نحو ٤٠ مترا وارتفعت عن مستوى الأراضى الزراعية بنحو أربعة أمتار ولهذا بنيت فيها أهوسة ساعدت على نقل مياه الرى من المحارى المرتفعة إلى أهوسة أخرى موعية منخفضة في مستوى الحقول . حيث تتوزع منها على قنوات كثيرة صغيرة . وكانت سرعة توزيع المياه على هذه الفروع الصغيرة مما يضمن المحترة ما يضمن المحترة ما . وعادة ما كسيت منحنيات الترع بمداميك حجرية تتراجع مع جوانب المحرى إلى الحلف نهنع تآكلها .

وقامت منشآت رى أخرى وشقت نرع فى وادى حريب الذى يقع إلى

الغرب من وادى بيحان ويصل بينهما وادى مبلقة عبر الجبال. ووادى حريب أعرض من وادى بيحان ولكنه أقصر . وامتدت النرع والمنشآت الماثية إلى وديان فرعية تتصل به (مثل وادى العن ووادى مقبل ووادى مبلقة ووادى وهبة) . ولا تزال بعض أطلال مبانى هذه المشروعات الماثية ظاهرة بينما غطت الأكوام على بعضها الآخر ، وتآكلت بقينها نتيجة لارتفاع المجارى المائية عن الحقول المنزرعة كما أسلفنا مما جعل عوامل التعرية تعمل عملها فيها . ولا تزال تتناثر في الوديان نتيجة لهذه المشروعات بعض حفر وجذور ماكان ينمو فيها من تخيل التمر والدوم وأشجار المر الذى أشار الرحالة استرابون في القرن الأول ق . م . إلى شهرة قتبان بالاتجار فيه وإنتاج بعض أنواعه .

ومارس القتبانيون إنشاء السدود ضمن مشروعات الرى . على نطاق ضيق . ومنها سد فرعى فى منطقة الحضرة يحتمل إرجاعه إلى القرن الرابع ق . م . لصد مياه وادى حاد . وشيد بأسلوب بسيط فبنى بأكوام من الرديم والطين الجاف دعمت واجهتها المواجهة لتيار الماء بالأحجار كما دعمت أعاليها بالأحجار أيضاً . ونمة بقايا سد آخر بجوار بيحان القصب .

ومن المشروعات الماثية القتبانية أيضاً حفر الصهاريج . ولا تزال تتوزع على قمة جبل ريدان وسفوحه آثار صهاريج قتبانية كان البعض منها يتسع لآلاف الجالونات . ويبدو أنها وزعت على مستويات محتلفة بحيث إذا فاض الماء من أحدها نزل الفائض منه إلى ما يليه . وحفرت هذه الصهاريج في الأرض وكسيت من الداخل بلياسة من أسفلها حتى الارتفاع المحتمل لما تختزنه من الماء . واختلف الرأى في توقيت إنشائها بين ما يعاصر العصر الفارسي في القرن الحامس ق . م . وبين القرن الميلادي الأول .

ولم تغن كل هذه المشروعات القتبانيين عن حفر الآبار العادية فى المناطق الني تحتاجها ، ويحتمل أنه كانت تتسرب إليها المياه الزائدة فى المزارع فتخترن طبيعيا فيها حتى يحين وقت الحاجة إليها ويتيسر رفعها .

وحول نبع طبيعى فى وادى فرع إنى بيحان ظاهرة طريفة ، حيث مهد الطريق إليه عمرات ضيقة مرصوفة ، وليتيسر وصول الرعاة ورجال القوافل

إليه حفرت علامات على الصخور قبل الوصول إليه بنحو كيلو متر ، ومنها ما يمثل شخصا يشير بإصبعه إلى وكان الماء . ولهذه العلامات ما يماثلها فى مناطق متفرقة من صحور بيحان وفى مناطق قريبة من الربع الحالى حيث تشتد الحاجة إلى معرفة أماكن المياه .

ومع هذه التيسيرات لتوفير مياه الرى والشرب : لوحظ فى آثار المدن والقرى (فى هجر بن حميد والحرجة وجبل الحضرة والنقب) أنه كان يوضح أمام كل دار حوض قليل العمق مليس فون الداخل . لمائه بالماء .

وظلت مشروعات المياه تودى أغراضها حتى القرن الثالث الميلادى - لا سها فى وادى بيحان . غير أن استمرار الاستفادة مها كان يتطلب استمرار العناية بها . فقد كان ارنفاع المجارى الرئيسية عن مستوى الأراضى المزروعة يعرضها لعوامل التعرية كما دكرنا . كما أن ارتفاع الإرساب نتيجة لنظام الصرف المستعمل وتوزيع المياه فى الحقول . كان يتطلب الارتفاع بالقنوات الفرعية والارتفاع محداخلها إلى مستوى الحقول .

واستفادت الدولة من ضرائب الزراعة كما استفادت من ضرائب التجارة. ويفهم من دراسات البساحث رودوكاناكيس Rhodokanakis للنظم القتبانية أن الضرائب في قتبان وفي غيرها من الدول العربية الجنوبية كانت بعادل العشر أو ما يقرب منه ، وتودى عيية عادة أى من نفس محصول الأرض والمصانع والمتاجر. ويتولى الإشراف على تحصيلها ولاة الاقاليم وشيوخ القبائل أحياناً . كما كانت الدولة تأخذ بنظام الالتزام في تحصيل ضرائب أحياناً خرى ، فتسمح لبعض كبار أهل القرى والاقاليم والمعابد بأن يتولوا جباية ضرائب معينة وتحصص لهم جعلا منها .

وامتد حصيل، الضرائب إلى ما هو أكثر من هذا ، فورد فى أمر أصدره ملك قتبانى إلى كبير إحدى القبائل بأن يؤدى إلى خزائنه من ضرائب قبيلته ما ترجمه رودوكاناكيس : « عشركل ربح صاف وكل ربح يرد عن طريق الالتزام وكل ربح بجى من بيع ومن إرث » . وقد تدل العبارة الأخيرة على

تحصيل رسوم على عقود البيع وعقود التوريث على نحو ما تجرى عليه قوانين الضرائب في أغلب المجتمعات المعاصرة .

جـــ من آثار العمران والفنون :

قدر الاتساع القديم لمدينة تمنع (هجر كحلان الحالية) عاصمة قتبان بنحو ٥٢ فدانا – وخلد الرحالة بليى أهميها حيها روى أنها كانت تتضمن و٥٢ معبدا . ومع ما فى رواية بليى من وبالغة واضحة فإن الآثار الباقية فى تمنع تشهد بروعتها النسبية القديمة فعلا رغم عوامل التخريب التى لحقت بها قديماً وحديثاً . وقد أنشئت هذه العاصمة فوق ربوة مرتفعة بعض الشيء عند النهاية الشهالية لوادى بيحان ، وكان محيطها سور محمها وإن تداخلت بعض المساكن فى أجزائه نتيجة لازدياد العمران . وتضمن السور أربع بوابات كشف عن البوابتين وتعرف عادة باسم البوابة الجنوب الشرقى للمدينة . وكانت أولى البوابتين وتعرف عادة باسم البوابة الجنوبية ، هى الأقدم ، وترتب على بنائها بأحجار صلبة كبيرة أن بقى للآن جزء من بنيانها يرتفع أكثر من ثلاثة أمتار، وأجزاء من الصرحين أو البرجين اللذين كانا محيطان بها . ويبدو أنه كان وأجزاء من الصرحين أو البرجين اللذين كانا محيطان بها . ويبدو أنه كان الخلف عارض خشبي ضخم يزل من أعلى إلى أسفل حين غلقه ويدعمه من الخلف عارض خشبي أفتى متين . واحتفظت جدران البوابة ، وهذا هو الأهم ، بنصوص عديدة سملت بأساء بعض ملوك قتبان ، وكان من أقدمهم يدع أب ذبيان سر كما تضمن أحدها تشريعاً للدولة أشرنا من قبل إلى فقرة منها من فيها إلى فقرة المنها من قبل إلى فقرة المنها من قبل إلى فقرة المنها من قبل إلى فقرة المنها منه المنه المنه المنه المنه المنه الله فقرة المنه ال

وقام فى داخل المدينة مبى متسع فخم ، اعتبره فان بيك معبداً رئيسياً ، واعتبره جام قصراً ملكيا للاحتفالات العامة . وقد شيدت الأجزاء الأقدم منه على مرحلتين خلال عهود المكربين بين القرن السابع والقرن السادس ق . م . ثم جددت أجزاوه وأضيفت إليها إضافات مرتين أيضاً على الأقل فى عصور الملكية فى أواخر القرن الرابع ق . م . ثم فى القرن الأول ق . م . وتشابهت بعض هذه الإضافات مع أساليب العارة الشائعة فى الحضارات الحارجية التى اتصل القتبانيون بها ، فشيدت جدران المبى خلال مرحلة البناء الثانية بمشكاوات الم

رأسية (أو دخلات رأسية) متسعة تعاقبت على مسافات متساوية وكان هذا الأساوب المعارى شائعاً من قبل فى أقطار شرقية قديمة مثل نواحى العراق ومصر وفارس وغيرها . وعندما تمت المرحلة الأخيرة لتجديد المبنى فى عهد الملك شهر بحل بهرجب فى بداية القرن الأول ق . م . أخذت عناصره ببعض خصائص فن العارة الهيلنستية الشائعة فى عصره . وقد بدأ فى صورته العامة عند اكهاله تودى إلى بابه درجات متسعة بحف بها جداران جانبيان . ويودى مدخله إلى فناء كبير مرصوف كانت تحيط به من ثلاثة جوانب أعمدة مربعة ، ببنا يتوسط ضلعه الشرقى (المقابل للمدخل) خمس درجات حجرية متسعة أخرى يزيد عرضها عن ستة أمتار ، وتودى إلى بهو كبير مرتفع تحتمل تكسية أرضيته وأسافل جدرانه الداخلية ببلاطات من الألباستر القرمزى رقمت أرضيته وأسافل جدرانه الداخلية ببلاطات من الألباستر القرمزى رقمت عروف تساعد على وضع كل صف منها فى موضعه المناسب . وتوسط هذا البهو ممر للمواكب قامت على جانبيه أربعة صفوف من المبانى الصغيرة لم يتضح الغرض منها حتى الآن . ولعل الارتفاع التدريجي من باب الدخول لم يتضح الغرض منها على الهو كان مقصوداً لذاته .

وكشفت البعثة الأمريكية للآثار التي أظهرت تفاصيل هذا المبنى الفخم منذ عام ١٩٥٠ – ١٩٥١ عن مساحة واسعة أيضاً حول البوابة الجنوبية لمدينة تمنع تضمنت مزيداً من الجدران المتصلة بها ومدخل فنائها وشارعين وعدة مبان . كما كشف الأهلون بعد ذلك بطريق المصادفة عن مبان أخرى . وتعددت الفروض بشأن الأغراض التي خدمتها هذه العناصر المكتشفة . وكانت منها دور تضمنت نصوصاً تحدد أساءها وأساء أصحابها أحياناً و مثل : دار يفش ، و دار يافع ، و دار هدث ، و دار شبعان ، و دار عثمان الحخ) .

وظهرت مبان أخرى افترض مكتشفوها أنها خدمت أغراضاً عامة . فنى داخل بوابة المدينة وجدت على سبيل المثال ساحة رصفت بالحجر وقامت على جانبها دكات حجرية مما احتمل معه أنها كانت ساحة سوق أو ساحة الجماعات (بما يشبه ساحة أو دارا للندوة) . ومبنى آخر شيد على دكة مرتفعة ويؤدى إليه درجان (أحدها من ناحية الجنوب والآخر. من ناحية

الشرق) . وتضمن في مدخله صفوفاً من المناضد الحجرية ، مما دفع بمكتشفه إلى أن يفترض أنه كان يمثل دار محكمة مركزاً للشرطة أو نحوه .

ومن أهم الدور الح ، التي أشرنا إلى الكشف عنها قرب بوابة المدينة مبنيان متصلان سمى أقدمه بن يفش ، وسمى تخر بيت يافع (أو يفعم)، واتصل به بطريق يؤدى إلى فنا. وكنموذج للمبائي الثرية في تمنع لا بأس من تقديم وصف مفصل أبيت يفش . أتمد تألف من طابقين : طابق أرضى ذى صفات أوبواكي مسقوفة وعدة غرف تقوم بدور صانع خاصة صغيره من طابق علوى تضمن شرفات ومقصورة مباخر وغيزن للبخور . ويستنتج من ستة نصوص تعلقت به أنه شيد في أو اخر القرن الثاني في أ م . (كما يعتقد أا ايت) . ثم اشتراه وجدده رجل من أثرياء العاضمة يدعي هوفعم بن ثوب في بداية القرن الأول ق . م . ووقفه بإسمه (ور بمابإسمه مع إثنين من أسرته مرة أخرى ؟) على كبار معبودات قتبان : أنباى ، وإيل تعلاى ، أسرته مرة أخرى ؟) على كبار معبودات قتبان : أنباى ، وإيل تعلاى ، وعثم ، وذات سنتم ، وذات ظهران ، وورفو . وبقيت بين أطلال هذا المبنى ثلاث غرف في حال طيبة بحبث عثر في داخلها على صناديق البخور ومرايا برونزية وما شامها .

وأمتع ما عثر عليه بجوار جداره الجنوبي المواجه لبوابة العاصدة تمثالان من البرونز (ارتفاع كل مهما ٦١ سم وطوله ٧٠ سم) ولا يعرف إن كانا في الأصل متجاورين أو متقابلين . و يمثل كل مهما لبورة بكفل أسد ترفع إحدى ساقها الأماميين، ويعتلها غلام عار يمسك قوسا بيمناه ويقبض بيسراه على حلقة لسلسلة كانت تنهى بطوق يحيط بعنق اللبؤة ، ولعله كان يمسك أيضاً بسوط أو نحوه . والغلامان توأمان مع اختلاف يسير بيهما في الملامح ، ويعتبر التمثالان من أروع القطع الفنية التي احتفظت بها مناطق الجنوب العربي حتى الآن والتي تزكى ما رواه استرابون في القرن الأول ق . م عن مهارة العرب الجنوبيين في الصناعات المعهانية . وسعل على قاعدة أحد التمثالين إسما الفنانين تويب وولده عقرب (حرفيا : ثويم وعقر مم) ، اللذين قاما بزخرفة الدار وقلدا بالتمثالين نموذجا من الفن الهيلينسي السكندري فنجحا في عملية

التقليد إلى حد ملحوظ وإن ظل تشكيلها أقل اتقاناً من الأصول الهيلينستية المماثلة لها والتي وجد بعضها في منف في مصر . وإلى جانب الهدف الزخر في في هذه المحموعة الفنية افترض بعض الباحثين أنها رمزت إلى معنى ميثولوجي (أي ديني أسطوري). وفي تحديد هذا المعني آراء شتى . ومنها ما يري أن اللموتين ترمزان إلى شمس الشتاء وشمس الصيف ، وأن راكبهم' التوأمين ممثلان عثتر نجم الشعرى ابن القمر ، كما يقومان بدور سدنة عم المعبود الأكبر لدولة قتبان وقد أخضعا له الشمس وروضاها . وليس ما يمنع من افتراضأن المحموعة كلها كانت تخدم كذلك غرض الحاية الرمزية لبيت يفشان ، أو غرض الحماية الرمزية لما يدخل من بوابة المدينة المحاورة له من قوافل التجارة . ولكل من هذه الفروض والآراء ما يبرره من عقائد العرب الجنوبيين ومن العقائد الهيلينستية المنقولة لا سها من مدينة الاسكندرية التي روى بعض المؤرخين الكلاسيكيين أن وفوداً من التجار العرب الجنوبيين كانوا يشتركون في مواكبها وأسواقها ويتبادلون الأفكار مع أهلها ، فضلا عمن كان يقصد بلاد العرب نفسها من رحالة العصر الهيلنستي ، وما يصلها عن طريق التجارة من القطع الفنية ذات الدلالات أو الأغراض العقائدية والتي تغرى الفنانين بتقليدها .

ولم تخل دار من الدور الباقية الأخرى من آثار تدل على ثراء أهلها وتدل على أهمية ما يمكن أن يظهر من آثار بقية المن نق حين يتم الكشف عنها ، وهو ما ندع التفصيل فيه الآن .

وكانت لقتبان فنونها المحلية فى النحت والنقش وصناعة الحلى وقطع الزينة وهذه نتجاوزعها أيضاً مؤقة المراعاة للإيجاز. ومن نماذج النحت فى الحجر التي تأثرت بالفن الهيلينستى ودلت على اتساع صلات قتبان بالحارج، رأس مرمرية توضع فى مستوى تمثالى اللبوتين والغلامين البرونزيين، وهي لأنثى أطلق عمال الحفائر الأثرية عليها اسم مريم أو مريام فاشهرت به. وعبر عليها فى إحدى مقابر حايد بن عقيل جبانة العاصمة، ومحتمل إرجاع صناعها إلى ما بين القرن الأول وبين القرن الثانى ق. م. وقد انعقدت خصل شعرها خلف رأسها من نفس مادة الحجر بما يشبه الطريقة المصرية القديمة، واحتفظ خلف رأسها من نفس مادة الحجر بما يشبه الطريقة المصرية القديمة، واحتفظ

محجرا عينها بآثار التطعيم باللازورد على عادة كثير من تماثيل الجنوب وعادة التماثيل المصرية أيضاً. وعنقهاطويل كانت تحيط به قلادة ، وأذناها مثقوبتان ليتدلى منهما قرطان. ومع ما أخذت به هذه الرأس من الأسلوب الهيلينسي ، حز فنانها على صدغها تقليداً لوشم أو تشريط قد يعبر عن عادة محلية أو قبلية ، إن لم يكن تقليداً لأثر حجامة أجريت لصعاحبة الرأس ابتغاء الشفاء من مرض ما .

د ـ علاقات قتبان مجرانها:

شهدت دولة قتبان أطواراً مختلفة من التوسع ومن الانكماش فى تاريخها الطويل. وكيفت سياستها نحو جرانها الأقربين. صداقة أو عداء أو حياداً. بما يتمشى مع قدراتها وإمكاناتهم . فقد مر بنا فى تتبع العلاقة بينها وبين جارتها القوية سبأ ، كيف أنها لزمت الحياد والشماتة أيام حروب كرب إيلوتر السبأى ضد معن وأوسان (قبل عام ٣٠٠ ق . م) ، وكيف أمنت سذا على أرضها من أطاعه بل وحصلت منه على بعض أراضي أوسان القريبة من البحر الأحمر مكافأة لها على مسلكها إزاءه . غير أن تلاصق الحدود بين الدولتين . الطموحتين سبأ وقتبانكان من شأنه أن سهي استمرار فرص التنافس والاحتكاك ثم الاشتعال بينهما . وقد ورد في نصين ذكر حربين بينهما صعب توقيتهما إن كانتا سابقين على أيام الحياد في عهد كرب إيل وتر السبأى أم تاليتين لها . وصعب كذلك ترتيب أسبقية إحداهما على الأخرى . وعن إحدى هاتين الحربين تحدث قائد سبأى (يدعى تبع كرب) عن حرب بين الدولتين استمرت خمسة أعوام . وكانت قتبان فيما يبدو هي البادئة بها . وانتهت إلى ما يشبه الصلح أو الهدنة . الأمر الذي دعَّاه إلى أن نخصص أوقافاً كثيرة لمعابد أرباب سبأ الكبار ، وذلك مما يعني من ناحية أنه اعتبر الصلح كسباً ينبغي شكر أربابه عليه . ويعني من ناحية أخرى أن الحرب بين الدولتين لم تننه إلى نتيجة فاصلة وأن أياً منهما لم تستطع القضاء على الأخرى .

وتحدث قائد قتبانى يدعى يذمر ملك عن الحرب الأخرى وروى عن مرحلة منها أنه هزم عدة قبائل وعشائر واستولى على مدنها وتخيلها وأرضها ،

ثم أعلن تقديمها إلى المعبود عم وإلى أنباى وإلى ملكه يدع أب بجل بن ذمر عالى ملك قتبان . وذلك مما يعنى أنه مع فخره بمجهوده فى الحرب قد رد الفضل فى النصر والحق فى تملك الأرض المكتسبة ونتائج النصر إلى معبودى دولته الكبيرين وإلى ملكه الذى كان يعتبر نفسه ولداً لها وممثلا لها على وجه الأرض . وزاد ذلك القائد عبارة فى نصه تحدت فيها عن مرحلة حرب واسعة شنبها سبأ وإمارة رعنان وقبائلها التى ساءها أن تملك القتبانيون جزءاً من أرضها ، ضد قتبان . ولكى يضخم المائد القتبانى من كثرة الأعداء وضراوة الحرب ألمح إلى أنه تجمع فيها حقد عهود المكربين وعهود الملوك السبأيين ضد ملكه يدع أب يجل بن ذمر عالى ملك قتبان وضد قتبان نفسها وضد أولاد عم جميعا .

وبعد هذه الحرب التي لا يعرف شيّ مو كد عن نتائجها ، والتي يفتر ض ألبرايت أن الملك القتباني الذي دكر في سياق نصها وهو « يدع أب بجل » قد حكم في منتصف القرن الرابع ق . م — شقت قتبان طريقها وظلت تسيطر على أجزاء من المناطق الساحلية التي كانت تشغلها من قبل دولة أوسان والتي عاشت في بعض أجزائها قبائل حمر ذات الصلة والقرابة بالقبائل السبأية . وقد تلونت هذه القبائل الحمرية حينداك بالولاء القتباني واعتبرت نفسها من "ولد (المعبود) عم » معبود القتبانيين . وأطلقت على حصنها الرئيسي اسم ريدان ، وهو اسم يراه الباحث فون فيسمان قتباني الأصل كان يطلق من قبل على حصن رئيسي للعاصمة القتبانية تمنع وقام على ملتي الوديان إلى الجنوب على حصن رئيسي للعاصمة القتبانية تمنع وقام على ملتي الوديان إلى الجنوب منها . وقد ذكر في نص إنشانه (فبيل بداية القرن الرابع ق . م) أنه في اتجاه حدن ، ولا زال حصن حدن (أو حادي) هذا قائماً أسفل الجبل حيث توجد أطلال ريدان .

على أنه لم يكن من المنتظر أن تسير الأمور فى مصلحة قتبان دائماً . فبعد عام ٢٨٥ ق . م استطاعت جيوش الملك السبأى يشع أمر ببين أن تستر د بعض الأراضى التي اكتسبتها قتبان من أسلافه خلال القرن الرابع ق . م ، وذكر نصه من المدن التي استردتها جيوشه حينذاك مدن نعان وصنعاء وذبحان ذو حمرور .

وشهدت قتبان فترة ازدهار أخرة في عصر أسرة حاكمة ثالثة أو رابعة بلغت شأوها في عهد « شهر بجل بهرجب » الذي يؤرخ ألبر ايت وفون فيسمان عهده ببداية القرن الأول ق . م . وقد تطلعت قتبان في عهده إلى دولة معين الواقعة إلى الشمال منها فاجترأت جانباً من أرضها وعقدت معها حلفا احتفظت لنفسها فيه بالمكانة الأسمى ، ولعلها استهدفت من وراء هذا الحلف أن تضيق به على دولة سبأ فتضغط هي علمها من الجنوب وتضغط حليفتها معىن علمها من الشمال . ويرجع إلى أيام هذا التحالف نص من عهد ملك معين « وقه إيل يثع » أرخه كاتبه المعيني باسم ملكه واسم ولى عهده وشريكه في الحكم « إيل يفع يشور » الثانى ، كما أرخه فى الوقت نفسه باسم الملك القتبانى ٰ « شهر يجل بهر جب » ، وذلك مما يدل على اعترافه الضمني بنفوذ قتبان على بلده . وعندما انفرد ولى العهد المعيني إيل يفع يشور بالحكم بعد أبيه حضر حفل توليته في عاصمته كاهنان قتبانيان نيابة عن ملكها . ولعل هذه الفترة من الازدهار القتباني هي التي روى عنها الرحالة الروماني بليني أن إنتاج الكندر كان يأخذ طريقه من حضرموت وعاصمتها شبرة إلى حيث تتسلمه قتبان وعاصمتها تمنع على طريق البخور الممتدحتي ساحل البحر المتوسط ، وروى عنها كذلك ما سبق أن استشهدنا به من أن الجبانيتاى (أو القتبانيين) لهم مدن كثيرة أكبرها نجاو وتمنع ، وأنه كان في هذه الأخبرة ٦٥ معبداً مما يشير إلى شرائكها.

ولكن يبدو أن بلوغ القمة قد يعقبه الانحدار أحياناً . فقبيل عهد شهر يجل بهرجب اهتر أحد الموارد الاقتصادية للدولة بعد نجاح السفن المصرية في عصر البطالمة في اجتياز منصيق باب المندب حوالي عام ١٢٠ أو ١١٧ ق . م للاتجاه إلى الهند والانجار معها رأساً دون وساطة عرب السواحل الجنوبية ومنهم القتبانيون . وليس من المستبعد أن هذا الوضع كان من أسباب تحول أطاع قتبان إلى دولة معن لكى تعوض من مكاسب تجارتها البرية ما أوشكت أن تخسره من مكاسب تجارة الساحل .

ولكن ترتب على تحفيف قبضة قتبان الاضطرارى على المناطق الساحلية للبخر الأحمر أن تألبت عليها قبائل حمير المنتشرة فيها ، ويبدو أنها كانت قد نجحت فى تجميع كلمها من قبل بداية القرن الأول ق . م ، وبيتت النية على الاستقلال عن قتبان . وليس ما يعرف حتى الآن عن تفاصيل هذه المحاولة إلا أنها حققت هدفها فى النصف الأخير من القرن الأول ق . م . فقاتلت قتبان وأخذت منها ما كان باقياً لها من سواحلها .

وتوفرت بهذا فرصة ذهبية لسبأ التي سكتت على الازدهار القتباني المجاور لها على مضض ، وعانت من تضييق قتبان عليها من الجنوب وتضييق حليفتها أو تابعتها معين عليها من الشيال . فاستغلت فرصتها وبدأت بأضعف الفريقين وهي معين فهاجمت عاصمها واستولت على مناطق واسعة من أراضها قبيل الربع الثالث من القرن الأول ق . م .

وانكمشت قتبان على خارطة الجنوب بعد أن خسرت أرض همر وخسرت حليفتها معين، ولكنها جاهدت في سبيل البقاء وساعدها على الاستمرار أن غريم لل دولة سبأ كانت تعانى هي الأخرى من مشاكل متعددة نتعرض لها في حينها ، فلا تستطع إحداهما أن تقضى على الأخرى ، وإن اتصلت المناوشات بينهما .

وفى هذه المرحلة المضطربة من تاريخ قتبان توالى ملوك لا يذكر لعهو دهم من الأعمال الإنشائية إلا أن أول عملة ذهبية قتبانية سكت فى عهد أحدهم وهو وراو إيل غيلان » فى الحصن الملكى القتبانى «حريب». وكانوا فى مجموعهم ضعاف الحيلة إزاء اضطراب موازين القوى فى الجنوب، وكان از دياد ضعفهم مشجعاً أو مترتباً على هجوم جديد غير متوقع من جارتهم الشرقية دولة حضرموت التى بسطت نفوذها على الأجزاء الشرقية من قتبان، الشرقية حتر على ثلاثة ملوك حضرمين، وقد روى أحدها أن ملكه الحضرى عمل على تسوير مدينة غيلان بعد أن تغلب أبوه على قتبان (أو على جزء منها). وروى آخرانه تم فى عهد ملك حضرى مشروع للرى فى منطقة وعلان (القتبانية).

وكان فى العاصمة تمنع ملك قتبانى لا يزال يحسن الطن بسلطته وهو « شهر هلال بن ذرأكرب » . إذ وجد له نص مرسوم يطلب فيه إلى كبير العاصمة (أى المدير المحافظ أو من يؤرخ باسمه) بتحصيل الضرائب ممن يسكنون ويزرعون الأراضى في سدو (قرب العاصمة)، وأمر المزارعين بأن يلتزموا عمرسومه ابتداء من أول ذى فرعم إلى السادس من ذى فقحو يومابيوم وشهرا بشهر واستنتج الباحث رودوكاناكيس من العبارة الأخيرة أن ذا فرعم يمثل أول شهور السنة الزراعية عند القتبانيين وأن ذا فقحو يمثل آخرها ولو أنه ما من بأس فيا يبدو أن يكون ذو فرعم أول الحصاد ، وفو فقحو آخرد ، فواسم الحصاد هي التي يستطيع المزارعون أن يوفوا فيها بالتزاماتهم العشرتين الأوليين من الشهر .

وفى عهد الملك شهر هلال أيضسا حوالى عام ١٠٠ أو ١٠٦ م دمرت تمنع عاصمة قتبان تدميراً عنيفاً لا زالت آثاره باقية فى معالمها القديمة التي اكتسى بعضها بطبقة كثيفة من الرماد دلت على حريق متعمد، لا تعرف حتى الآن حقيقة المتسببين فيه .

وعلى الرغم مما لحق بها ، جاهدت قتبان فى سبيل البقاء لفترة أربعن علماً أخرى أو نحوها ، فاكتفت مناطقها الغربية ، ونقلت عاصمها إلى ريب التي أشرنا إلى سك أول عملة ذهبية قرانية فيها ، ووجدت بها بالفعل عملات أخرى ضربت بها ، ونقشت على بعضها صورة البومة وتحتها خنجر . وكانت صورة البومة من رموز بعض العملات الإغريقية السكندرية . ويبدو أن قتان قد اضطرت نتيجة لضعف حيلتها أن تنضم إلى حضرموت فى مشاكلها ضد دولة سبأ بعد أن أصبحت هاتان الدولتان هما مركز الثقل فى الجنوب المعراد محارب ، فى صف حضرموت ، ثم تهاوت حوالى عام ١٤٠ م (أو ١٤٠ م) بعد أن استهلكت قوتها ، وانحسر كيانها السياسي ، وهجرت مناطقها الزراعية بعد أن قلت رعاية مشاريع المياه فيها ، وغطت الرمال عليها . وآلت أرضها بعد إلى حوزة دولة سبأ و ذوريدان منذ أوائل القرن الرابع الميلادى .

ملحوظة:

أسهبنا بعض الشيء في الفصول السابقة في مناقشة تاريخ دولة سبأ وتاريخ دولة قتبان ، من حيث مشكلات النشأة ، وتطور الحياة السياسية ، ومشاريع العمران وفروع الفنون ، وتأثير العوامل الداخلية والحارجية في كيان كل دولة منهما – لكي نجعل من هذه المناقشات نموذجاً للتوسع فيا يعالج به تاريخ بقية الدول العربية القديمة الأخرى التي سنحاول الاكتفاء مخطوطها الرئيسية في ليلي ، مراعاة للتخفيف مؤقتا . وندع التفصيل فيها للجزء الثاني من متاريخ الشرق الأدنى القديم حين يصدر في وقت لاحق قريب بإذن الله .

* * *

من المؤلفات الختارة في دراسات الفصل:

جُوَادَ عَلَى : المرجع السابق - ج ٢ - مادة قتبان .

نيلسن وآخرون : المرجع الدابق – ص ١٣٧ -- ١٣٩ ، ٢٧٩ – ٢٨٩ .

Abdel-Aziz Saleh, op. cit.

Bowen, R. Jr., Albright, W.F., and Others, op., cit., 43-68, 155-163.

Philby, op, cit., 59-63.

Phillips, op. cit., 51 f.

Pirenne, J., Le Royaume Sud-Arabe des Qataban et sa Datation, Louvain 1961.

Rhodokanakis, N., Katabanische Texte zur Bodenwirtschaft, I-II, Vienne 1919, 1922.

الفصيسل لسادس دولة معين

كانت دولة معن أقرب الدول الجنوبية اتصالا بالمناطق الشهالية فى شبه الجزيرة العربية . ونشأت فى الجوف الجنوبي فيا يمتد بين حدود حضرموت وبين المنطقة الحدودية الحالية الفاصلة بين المملكة العربية السعودية وبين جمهورية اليمن الشهالية عند نجران. وانتفعت معين بسهل متسع يغذيه بالحصوبة ومياه الرى نهر خارد وفروعه .

واختلفت تقديرات المستشرقين فى تعيين البداية السياسية لدولة معين في بين القرن الثالث عشر ق . م . وبداية القرن الحادى عشر ق . م . وبداية القرن الرابع ق . م . ويبدو أن أكثر هذه التقديرات احتمالا هو بداية القرن الرابع ق . م .

و اتخذت الدولة عاصمها في مدينة « قرناو » في شرق الجوف الجنوبي. وبنيت مستطيلة في مساحة صغيرة نسبياً تبلغ نحو مائة ألف متر مربع ، وسورت بسور ضخم ذي مدخلين تحميما الأبراج الحجرية ، وبتى جزء من البرجين اللذين يحفان بمدخلها الشرقى . وقام إلى جانب العاصمة معبد كبير رددت النصوص المعينية اسمه وهو معبد « رصف » ولا زالت بقية من أعمدته ونقوشه وزخارفه قائمة تشهد بكفاية أصحابها وإن تجاوزنا عن وصفه مراعاة للإيجاز واكتفاء مما وصفنا به أمثاله في سبأ وقتهان .

وتناولت البحوت الأثرية من مواطن العمران الأخرى فى معين مدن : يثل (خربة براقش) ، وكمنهو (خربة كمنة) ، ونشان (خربة السودا) ، ونشق (خربة البيضا) ، ورجمة (فى أمحدود نجران) وغيرها .

تعاقبت على حكم معين خمس أسرات حاكمة لم تعتفظ النصوص الباقية بألقاب حكامها الأوائل ، ولكن يرجح أن سلطتهم بدأت بنفس الصبغة الدينية التى ظهرت عند جبر انهم ، فتلقب كل منهم بلقب « مزود » ربما بمعنى من يزود المعبودات أو المعابد بقر ابينها ، أو من يزود دولته نخبر انها . واعتمد هذا الترجيح على بقاء هذا اللقب « مزود » ضمن ألقاب حكام معن المتأخرين حتى بعد أن تلقبوا بألقاب الملوك .

وعملت معين على استثار أراضيها الصالحة للزراعة بإقامة بعض مشروعات الرى الصغيرة للاستفادة من الأمطار والسيول ومياه نهر خارد وفروعه ، وذلك مما جعل الرحالة الرومانى بلينى يصف أراضيهم بأنها أرض خصبة تكثر فيها الأشجار والنخيل والأعناب ولهم فيها قطعان كثيرة . غير أن معين اعتمدت في حياتها الاقتصادية أكثر ما اعتمدت على الاشتراك بنصيب كبير في تصدير منتجات الجنوب إلى أسواق التجارة الحارجية ، ولا سيا منتجات اللادن والكندر والمر التي كانت ترحب بها معابد الهلال الحصيب ودول البحر المتوسط ترحيها كبيرا ، وذلك مما جعل نفس الرحالة بليني يعقب بقوله والمعينيون منطقهم يمر فيها ترانسيت الكندر عبر طريق ضيق . وهم الذين بدأوا التجارة وأهم من مارسوها . واتخذ (نوع من) البخور اسمه من اسمهم وهو البخور المعيني "Minacan" .

ويبدو أن مكاسب هذه التجارة التي سبقت عهد بليني بقرون طويلة هي التي حركت أطاع دولة سبأ منذ عهود المكربين ضد دولة معين. وقد مر بناكيف تكررت الحروب بينهما في عهود المكربين الأواخر؛ وكيف أسرفت جيوش كرب إيل وتر (الثاني) السبأى في تدمير مدن معين وتشريد أهلها حتى ما يمتد إلى نجران. وإذا كنا قد تشككنا في صحة الأعداد الضخمة التي ذكر بها نصوصه عن قتلي المعينيين وأسراهم (راجع القصل الحامس)، فإن نفس هذه الأعداد تعبر ضمنا عن اتساع عمران معين القديم.

وعندما استردت معين كيانها بدأت بها عصور الملكية في أوائل القرن الرابع ق . م . واعتاد ملوكها على أن يتلقبوا بكنيات شخصية معبرة حاول هومل وغيره تفسيرها ، مثل : صدق بمعنى الصادق أو العادل ، ويشور بمعنى المستقيم ، وريام بمعنى المتعالى . . . إلخ .

وعلى الرغم من غلبة نظام الحكم الملكى فى معين ظل لمشايخ القبائل وأعيان العاصمة مجلس « مسود » (بنفس الإسم الذى عرف به مثيله فى قتبان ويراجع له الفصل السادس). وقد وصف بأنه « مسد منعن » أى المحلس المنيع أو شىء من هذا القبيل . وكانوا يجتمعون فيه بدعوة من الملك للبحث فى أمور الضرائب والمنشآت العامة والمداولة فى أمور الحرب إن وجدت ، والتصديق على العقود التي تبرمها الدولة مع كبار الأفراد وتعهد إليهم بمقتضاها بتنفيذ بعض مشروعاتها الدينية أو المدنية وتتفق معهم فيها على الموارد التي ينفقون منها على هذه المشروعات .

ويغلب على الظن أنه قامت إلى جانب هذا المجلس الرئيسي فى العاصمة مجالس أخرى فرعية فى المدن الكبيرة والأقاليم كانت تشكيلاتها واختصاصاتها تشبه المحالس البلدية أو القروية الحالية .

وتولى رياسة حكم الأقاليم والمدن الكبيرة فى معين موظفون تلقب كل منهم بلقب «كبر» أى كبير ، أو وال ، وتولى كل منهم رعاية شئون إقليمه باسم ملكه فى شئون القضاء وفى جباية الضرائب وفى إقامة المشروعات الإقليمية .

غير أن الكبراء أو الولاة لم يكونوا المشرفين وحدهم على جباية الضرائب وإنما أخدت دولتهم فى نفس الوقت بنظام الالترام فى تحصيل بعض ضرائبها ، وهو نظام سبق أن أشرنا إلى تطبيق مثله فى قتبان وغيرها (فى الفصل السادس). وكان معدل الضرائب يدور حول العشر أو ما يقرب منه ويؤدى عينيا عادة .

و يحكم موقعها الشهالى ظلت معين أكثر اتصالاً بطرق التجارة الشهالية الرئيسية التى تخرج من عاصمتها « قرناو » ومن تابعتها « نجران » ، إلى نجد وما وراثها وإلى الحبجاز وما وراثه . ولرعاية قوافل المتاجراتي تسلك الطريق التجارى البرى الكبير على طول الحبجاز والممتد إلى العقبة وما يتفرع منها إلى سيناء المصرية ، وإلى غزة ومعان في جنوب الشام ، زودت معين هذا الطريق عاميات وجاليات معينية كان استقرارها في مدن الحبجاز من عوامل النزاوج والاختلاط السلمى بين عرب الشهال وبين عرب الجنوب كماكان من أسباب

ما تناقله النسابون عن تناثر بطون جنوبية أو قحطانية بين العرب الشماليين (في مثل مدينة يثرب في عصور تالية) .

وأقامت أكبر الجاليات أو الحاميات المعينية فى واحة العلا شالى يترب وكانت فى بعض عصورها مقرآ لدولة ددان ودولة لحيان مما سنتناوله فيما بعد بتفصيل. وعندما زاد النفوذ الاقتصادى لهذه الجالية زاد بالتالى نفوذه السياسى حتى غدت منطقتها حليفة لدولة معين يتولاها كبير أو كبيران على صله بالملك المعينى الجنوبي . وربما حدث هذا التطور فى أواخر القرن الثالث ق . م . وأصبحت المنطقة تدكر معه فى النصوص إلى جانب أسمائها الساء بمة باسم حالجنوبية أى « معن » أو معين ، مع تخصيصها بكلمة « مصرن » .

وتعامل تجار معين ووسطاو ها من « معن » مع العواصم المصرية واستقر بعضهم فيها . ومنهم رجل يدعى « زيد إيل بن زيد » دفن فى مصر ووجد له تابوت فى منطقة منف كتب عليه بحروف المسند ما يفهم منه أنه عمل فى خدمة معبد مصرى لعله سيرابيوم منف ، وتولى توريد بعض المنتجات العربية إليه مثل المر والذريرة (قصب الطيب) وغير هما على سفينة بحرية فى مقابل ماكان يصدره إلى بلده من المنسوجات المصرية . وليعبر زيد إيل بن زيد عن استغراقه فى الحياة المصرية تلقب بلقب « وعب » وهو لقب دينى مصرى قديم يعنى الكاهن المطهر . وأرخ هذا النص بالعام ٢٢ للملك « توليا يوث بر تولومايوس» وقد يقابل عام ٢٦٣ ق . م . خلال عهد بطلميوس الثانى ، أو بعده .

ووصل تجار معينيون بتجارتهم إلى جزيرة ديلوس فى بحر إبجة فى النصف الإخير من القرن الثانى ق . م . حيث وجدت فيها آثار صغيرة نقشت بنصوص عربية تدعو لأصحابها آلهة معن (وآلهة سبأ) .

واستمرت معين في سبيلها السياسي وسبيلها الاقتصادي حتى دب الزهن في نظامها الحاكم واشتد بأس جبرانها ، وتجرأت عليها دولة قتبان ودولة سبأ . وبدأت قتبان فاقتطعت جانباً من أرضها ، وأجبرتها (كما مر بنا في الفصل السادس) على عقد حلف معها احتفظت لنفسها فيه بالمكانة العليا لا سيا في عيم معين « وقه إيل يثم» وولده « إيل يثم يتمور » الثاني . وحاولت

قتبان أن تستغل معين فى التضييق على دولة سبأ من الشمال ، ولكن هذا زاد من حقد سبأ عليها فما لبشت هذه الأخيرة حتى استغلت انشغال قتبان بمشكلاتها الداخلية مع قبائل حمير وانفرادت بمعين فلموسق عاصمتها قرناو واستولت على أجزاء متسعة من أراضيها قبيل الربع الثالث من القرن الأول ق . م . حيث لم يذكرها استرابون فى عام ٢٤ ق . م . حيما صحب حملة القائد الرومانى آيليوس جاللوس ضد الدول العربية الجنوبية ، مما يعنى أنها كانت قد فقدت استقلالها على أيامه .

ولكن الانكماش السياسي لم يود إلى وقف نشاط المعينيين في مجالات التجارة فظلوا يقومون بدورهم فيها ويجنون مكاسبها تحت طاعة دولة سبأ القوية ، وبهذه الصورة كتب عنهم بليني في القرن الميلادي الأول ما نقلناه عنه من قبل ، كما كتب عنهم الرحالة الجغرافي بطلميوس في القرن الميلادي الثاني به

**

من المؤلفات الختارة في دراسات الفصل:

رجواد عليم : المرجع السابق ، ج ٢ — مادة «معين» .

خِليل نامى : نقوش خربة معين – أالقاهرة ١٩٥٢ ، نقوش خربة براقش – القاهرة ١٩٥٧ . محمد توفيق : آثار معين في جوف اليمن – القاهرة ١٩٥١ ، نقوش خربة معين – القاهرة ١٩٥٧ .

. ۲۷۳ -- ۲۹۷ ، ۷۵ -- ۹٤ س السابق -- س ۱۹۳ -- ۲۹۷ ، ۲۷۳ -- ۲۹۷ و Philby, op. cit., 42---58.

Ryckmans, J.,L. 'Institution monarchique en Arabie Méridionale avant l'Islam (Maein et Saba), Louvain 1951.

Winnett, F.V., The Place of the Minaeans in the History of Pre-islamic Arabia, BASOR, 73, 1939, 3—9.

الفصلالالا

دولمة حضرموت

شغلت حضر موت منطقة واسعق من جنوب شبه الجزيرة العربية، وجمعت فى أرضها الواسعة بين الجبال العالية وبين الوديان العميقة. ويبدوأن واديها الكبير وادي حضر موت كان مجرى مائياً ضخماً خلال الدهور المطيرة القديمة ، ويمتد جزوه الحصب نحو ٦٠ مبلا وتجرى فيه بضعة أنهار صغيرة منها نهر ميفع وهو نهر يحتمل أن يكون لإسمه صلة قديمة باسم مدينة « ميفعة » التي كانت من أقدم العواصم المعروفة لحضر موت .

وانتفعت حضر موت بساحل طويل على بحر العرب (أو المحيط الهندى) قامت عليه ميناء رئيسية أسمنها النصوص القديمة «قنأ »، وأطلق العبر انيون القدماء عليها اسم كنية ، بينا أطلق الإغريق عليها اسم كانى Cane وتقوم على أطلالها بير على الحالية .

ولا يزال المعروف من تاريخ المراحل الأولى لحضرموت قليلا ولا زال الحلاف بين تقديرات الباحثين لبداية تكوينها السياسي واسعاً ، فبينها أخذ فلبي برأى هومل ببداية عصور الملكية فيها بأواخر القرن الحادي عشر ق . م . فلبي برأى هومل ببداية عصور الملكية في م . على أساس أنه بعد أن اختفت أرخها ألبرايت بأواخر القرن الحامس ق . م . على أساس أنه بعد أن اختفت شخصية كرب إيل وتر السبأى القوية من الجنوب قامت الملكية في حضرموت وربما بدأت بما يشبه التبعية لدولة معين يحيث حكمها معاً ملك واحد يدعي صدق إيل . وإذا صح هذا فقد يعني ترابط الجارتين معين وحضرموت في عبالات التجارة وتحالفها للوقوف في وجه دولة سبأ ذات المطامع الواسعة . وبعد جيلين أو ثلاثة انفرد بحكم حضرموت أمير من أصل معيني يدعي ومعدكرب به أسس بها أسرة حكم مستقلة ، مع بقاء العلاقات الودية بن ومعدكرب به أسس بها أسرة حكم مستقلة ، مع بقاء العلاقات الودية بن البيتين الحاكمين قائمة نحيث كان الكتبة في كل منهما يسجلون أحياناً اسم ملك المدولة الثانية إلى جانب اسم ملكهم في النصوص التي تتناول ذكر المنشآت

الجديدة والاحتفالات الكبيرة . وامتد هدا الموضع الذي لا زال الشك يحيط بتفاصيله فترة صعب تحديد أمدها ، ثم غابت أسناء ملوك حضرموت . وعلل بعض المؤرخين هذه الظاهرة باحبال تحضوع حضرموت مرة أخرى خضوعاً مباشراً لدولة معين ، بينا عللها بعضهم الآخر مخضوعها الدولة أخرى من المدول الجنوبية مثل سبأ . وكان الملك السبتي شعر أوتر قلد زوج أحته ملك حلك من الملك الحضرم العزياط ثم خاصمه و هاجم عاصمته .

وبعد هذه الفجوة از دهرت الملكية الحضرمية من جديد وبدأها ملك يسمى يدع إيل بين . ومرة أخرى ليس ما يعرف يقيناً عن الظروف التي بدأ بها ملكه ولكن تخلفت بضعة قرائن بمكن الاستفادة منها في تصور هذه الظروف. ومنها أن يدع إيل بين هذا ذكر في نصوصه أن أباه رب شمسكال من أحرار بهأر ، وذلك مما قد يعني أنه لم يكن من بيت مالك قديم وأنه بلغ العرش بمسعاه الشخصى . وقد يزكي هذا الاستنتاج أن عدداً من رعاياه تعاخروا في نصوصهم بأنهم ساعدوه . دون أن يبينوا نوع هذه المساعدة . وليس من المستبعد أنها كانت مساعدته على بلوغ العرش . وقد لدت العلاقات بين مملكته الجديدة وبين دولة سبأ التي أصبحت أكبر الدول الجنوبية في ذلك الحين علاقات طيبة . وذلك مما يحتمل معه أن سبأ عاونته على إعلان ملكه أو أنها على الأقل رضيت بما قام به في سبيل إعلان ملكه .

وزادت منذ عهد يدع إيل بين شهرة العاصمة الحضرمية « سبوة » التى ذكرت نصوصه أنه عمرها بعد خرابها وأعاد تشييد حصن ومعبد رئيسى فيها. وتناقل المؤرخون والرحالة الكلاسيكيون اسم هذه العاصمة عمر ادفات متقاربة تحرفت بعض الشيء عن إسمها الحقيقي. ومن هذه المرادفات :

Sabbatha, Sabatha, Sabata .

وتعاقب بعد عهد يدع إيل بيس عدد من ملوك حضرموت . استطاعت دولتهم فى فترة ما من القرن الأول الميلادى أن تسيطر على الأجزاء الشرقية من دولة قتبان بعد أن ضعف شأن هذه الدولة الأخيرة . فسيطرت على جزء من وادى بيحان وعثر فيه على ثلاثة نصوص تمجد أساء ثلاثة ملوك حضرميين من وادى بيحان وعثر فيه على ثلاثة نصوص تمجد أساء ثلاثة ملوك حضرميين

كما أسلفنا من قبل(في سياق الفصل السادس). غير أن تدخل حضرموت في شئون الجزء الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة جر علها مشكلات كثيرة مع القبائل الحمرية حتى أصبحت الحدود بينهما بنن مد وجذر لإحديهما على حساب مصلحة الأخرى. وجرعليها مشكلات أخرى مع دولة سبأ نتحدث عنها خلال العصر الملكي السبأي . ثم أعقبت ذلك عهود سلام ظهر فها الملك الحضرمي « إيسل عزيليط » أو « إلعزيلط » الثساني . وأثبت فى نص من نصوصه أنه إيل عزيليط ملك حضرموت ابن عم ذخر .و أنه سار إلى حصن أنود ليتلقب (بلقب الملك) . وأشار عدد من أتباعه إلى أنهم صاحبوه في هذه الرحلة . كما سحل رجلان من أشراف حمىر أن ملك سبأ وذوريدان « ثأران يعوب » أوفدهما لحضور حفله . وتنم هده المصادر مجتمعة عن أن حصن أنود هذا الذي لا زالت بعض أطلاله باقیه تشرف علی واد ینتهی إلی العاصمة شبوة قد توفرت له ذکریات خاصة في عهود الملكيه الحضرمية ، وأن حفل التولية كان حفلا ضخماً يلائم المناسبة التي أقيم من أجلها . وأن العلاقات بين حضر موت وبين دولة سبأ التي دخلت في طور جديد من أطوار الملكية جمعت فيه بين سبأ وحمر ، أو سبأ وريدان ، قد غدت علاقات طببة . وورد في نص ملك حضرمي آخر أنه حين احتفل بيوم توليته العرش في حصن أنود ضحى بقرابين كثيرة نضمنت ٣٥ ثورا و ۸۲ کاشا و ۲۵ غزالا و تمانهٔ فهرد (۴) .

ويذهب الظن إلى أن إيل عزيليط الثانى ابن عم ذخر هو الملك الذى ورد دكره باسم إليازوس Eleazus في مصدرين إغريقيين ، عرف أحسدهما ماسم كتاب الطواف حول البحر الإريترى ، ومن الآراء الحديثة في شأنه ما يحتمل تأليفه في حوالى الربع الأول من القرن الثالث الميلادى ، وقد وصف فيه إلياروس بأنه ملك بلاد البخور والطيب وأنه أقام في عاصمته Sabatha فيه إلياروس بأنه ملك بلاد البخور والطيب وأنه أقام في عاصمته اللادن وامتد سلطانه إلى قنأ . وذكر عن مده الميناء قنأ أنها كانت السوقاً لكل اللادن الذي بذمو في البلاد ويؤتى به إلها على ظهور الجال وفي الأرماث المحلية المصنوعة من الجلد ، وفي القوارب ، ولها نجارة أخرى مع مدن الداحل البعيد ، ومع بير بجازا وسكيثيا (في وادي السند) وعمانة وفارس المحاورة البعيد ، ومع بير بجازا وسكيثيا (في وادي السند) وعمانة وفارس المحاورة

لها » . و فى هذا الوصف ما يشير إلى ثراء حضر موت من تجارتها البرية والبحرية فى أيامه .

وعبر الحضرميون عن معبودهم الأكبر الذي تخيلوه يهيمن على القمر باسم «سين » وهو الذي عبر عنه جيرانهم من الجنوبيين بأسهاء «عم » ، و « و « إلمقه » . وإذاكان هناك ما يضاف إلى هذه المقارنة فهو أن اسم «سين » سبق أن أطلقه الأكديون والبابليون كذلك في العراق على معبودهم الذي تخيلوه معنياً بالقمر أيضاً . مما يعني أنه كان اسها ساميا قديماً واسع الانتشار . وريماكات له صلته أيضاً بتسمية سيناء المصرية وإن وحدت آراء أخرى لتفسير هذه التسميه .

وانتشرت معابد سين هذا في العاصمة شبوة وفي الحواضر الحضرمية الكبيرة وعرفت في كل منها بصفة مميزة . وكان منها معبد كشفت عن آثاره بعثة جرترودكيتون طومسون في بلدة حضرمية عرفت قديماً باسم « مذاب » وتعرف الآن باسم « الحريضة » . وكشفت هذه البعثة حول المعبد عن عدد من المقابر القديمة تضمنت إلى جانب جثن أصحابها أعداداً كثيرة من أدوات الحياة اليومية كالأواني من الفخار والحزف ، والفلائد وما إليها ، مما يعني أن المعبد كان محوراً لعمران واسع من حوله صم مساكن الأحياء وقبور الموتى .

وإذا كانت حضرموت قد أقامت أغلب بنيانها الاقتصادى على امتداد نشاطها إلى منطفة ظفار المنطقة الرئيسية لإنتاج أفضل أنواع اللادن والكندر . ثم نصدير ها شرقاً وغرباً ، فهنى قد اهتمت كذلك بتنمية ثروتها الزراعية التى كشفت البحوث الحديثة عن عدد من مشروعات الرى التى خدماً ، والى نتجاور عن التقصيل فها وقتبان .

واستمرت حضرموت فى سبيلها الاقتصادين والسياسي عنى اشتدت المنافسة بينها وبن صديقاً بالله الهديمه سباً ودوريدان ، وتطورت هذه المنافسة إلى حروب عنينة عملت حضر موت معها على زياده حصونها وأسوار ها لمقاومة السبأين . وبقيت من هذه الأسوار أطلال سوركبركان محمى منطقة ميفعة .

ولكن الحروب انتهت بانتصار السبايين في عهد ملكهم «شمر بهر عش » الثالث في أواخر القرن الثالث الميلادي . وبلغ من أهمية انتصاره عليها أن شجعه على أن يهدا عهداً جديداً للملكية السبأية تلقب فيه هو ومن تلاه من الملوك بلقب «ملك سبأ وذوريدان وحضرموت وعنت » . ويذهب رأى حديث إلى اعتبار «عنت » هذه او عمانة تمثل الجزء الجنوبي من حضر موت والمطل على ساحل البحر العربي (أو المحيط اللهندي) . وريخا حاولت حضر موت الهوض بعد ذلك بقليل مولكن الحملات السبأية الحميرية تكررت عليها وأخضعها لنفوذها المباشر منذ أو اسط الدرن الميلادي الرابع .

* * *

من اللوئلفات الختارة في دراسانت الفصل:

Bowen, Albright, and Others, op. cit., 77—81, 139—142; Brown, W. L., and Beeston, A.F.L., JRAS, 1954, 43-62.

Caton Thompson, G. The Tombs and Moon Temple of Hurcidha (Hadhramaut). Oxford, 1944.

Philby, op. cit., 77-81.

Phillips, op. cit., 43 l

Pirenne, J., Première mission archéologique francaise au Hadramout, C.R. de AIEL, 1975: Deuxième mission..., ibid, 1976.

Stark, R.F., in GJ, 93, 1939, 1-17; JRAS, 1939, 480-498.

Van der Muelen and Wissmann, H. von, Hadramaut, Some of its Mysteries unveiled, Leiden 1932.

جواد على : المرحع السابق ، ج ٢ – مادة ﴿ حضر موت ۥ . ــــــــــ وآخروں ، المرحع السابق ، ص ٢٧٤ – ٢٧٩ .



العنسسل الشامن دولنة أوسسان

شهد جنوب شبه الجزيرة العربية من دوله الصغرى الترية قصيرة الأنجل دولة سميت باسم أوسن أو أوسان. بشأت إلى الجنوب من قتبان وامتدت في عصور مجدها حتى حدود حضرموت. ويقى اسمها حيا في ألقاب بعض مواطنها إلى ما بعد ظهور الإسلام.

ويبدو أن أوسان لم تكن في بداية أمرها غير منطقة رئيسية من دولة قتبان قرب مدخل البحر الأحمر وأشرفت على جزء من الساحل العربي الجنوبي أثم انفصلت عنها في ظروف غير معروفة بعد أن جمعت الأحلاف حولها من أقاليم وقبائل مسورا ويافع ولحج ودثينة وأبيان ، ووفرت لنفسها وحلفائها كيانا مستقلا جنبا إلى جنب مع قتبان وسبأ .

ومضت أوسان تشق طريقها الحضارى مستعينة فيه بنشاطها التجارى الذى انتفعت فيه تحليج عدن ، حتى اتسع طموح السبأيين فى أواخر عهود المكربين وتحولت أطماعهم إليها ، وحينداك تداولت المناوشات بيهم وبيبها ، وحافهم النصر عليها أحيانا وحالفها النصر عليهم أحيانا أخرى وذلك مماسمح ناملوك الأوسانيين أن يسجلوا أخبار انتصاراتهم فى معابد أربابهم ، وسمح فم كذلك بأن يأسروا جماعات من السبأيين وختفظوا بهم رهائن فى أرضهم .

ومالت كفة النصر إلى جانب السبايين في عهد المكرب الأخير كرب إيل وتر الثانى الذى دلت الشواهد على أنه تمتع إلى جانب مهارته فى إدارة دفة الحرب بمهارة أخرى فى شئون السياسة ، فاستطاع أن يضمن حياد قتبان وحضرموت فى حربه ضد أوسان كما ضمن حيادهما فى حربه ضد معين على نحوما سبق ذكره من قبل ، وإذا صبح أن أوسان كانت قبل استقلالها جزءا من قتبان فعلا كان فى ذلك تفسير لرضى هذه الأخرة عهامة

السبأيين لها . وعدم دفاعها عنها . وراد كرب إيل وتر على ذلك فاسمال حلفاء أوسان وأتباعها للتخلى عنها والانضام إليه فاستجاب له بعصهم. ومن حؤلاء أمير كان يتولى أمر إقليم دهس وقبائل يافع . وهو واحد من أكبر أقاليم أوسان وحلفائها .

وانحط كرب إيل وتر بجيوشه على أوسان في عهد ملكها مرتوم (أومرتو أو مرتاوا) وادعى فيما روت نصوص انتصاراته التي سجلت بأمره في معبد عاصمته صروا أنه (أى جيشه) قتل مى الأوسانيين آلافا كثيرة دل على مبالغته بشأنها أن تراوح عددهم في سياق عباراته بين ١٦ ألفا وبين ما هو أكثر من العتبربن ألفا ، وأنه أسر منهم آلافا كثيرة تراوح عددهم أيضاً في سياق عباراته بين ٤٠ ألفا وبين ٥٦ ألفا . وافتخر بأنه حرر الأسرى السبايين الذين احتجزهم الأوسانيون من انتصاراتهم القديمة ، واستعبد عوضا عنهم أعضاء مجلس المسود الأوساني أنفسهم وجعلهم رقيقا للمعبودة السبأية أوسان قد تفاخروا فيها بانتصاراتهم القديمة على نصب معابدهم . ثم عامل أوسان قد تفاخروا فيها بانتصاراتهم القديمة على نصب معابدهم . ثم عامل حلفاء أوسان بنفس القسوةفد مرجيشه مدنهم وأحرقها واستعبد هو مدنا أخرى لصالحه الحاص على نحو ماذكر في نص له أنه « اقتنى كل إقليم كحد بأحراره وعبيده » — وتعمد أن يقتطع أجزاء أخرى من جسم الدولة المهزومة ورد بعضها إلى قتبان ، كما كافا حضرموت ببعضها الآخر ، جزاء لهما على حيادهما بعضها إلى قتبان ، كما كافا حضرموت ببعضها الآخر ، جزاء لهما على حيادهما في حروبه مع أعدائه ، وربما تعويصا لهما عن سبق اعتداء أوسان على أراضهما.

وانطوت أوسان فى ظل الخضوع والسيان لفترة طويلة . ثم استردت كيانها السياسى فى ظروف عير معروفة . واعتلى عرشها من جديد ملوك وطنيون فى أواخر القرن الثالث ق . م . فيا يظن فلبى . وباعتبارهم محررين تو افرت لهم قداسة واسعة بين رعاياهم دعتهم إلى التقرب إليهم بالهدايا والقرابين ربما ليحتفظوا بها فى قصورهم بم فى قبورهم . أو ليضعوها بأسمائهم فى معابد دولهم . وأشهر من احتفظت الآثار بذكراه من هؤلاء الملوك ملك يدعى « يصدق إيل فرعم شرح عت » . وقد سجل أحد رعاياه على أثر له مايفيد أنه

« الفاضل مصدان الذي قدم (الأثر) إلى سيده يصدق إيل فرعم شرح عت ملك أوسان ابن ود » . وكان « ود » فيا أسلفنا اسما أو صفة لمعبود تخيله المعينيون من قبل يهيمن على القمر وامتد تقديسه إلى بعض قبائل وإمارات العرب الشماليين أيضا . وكان في انتساب ملوك أوسان إليه واعتبارهم ولدا له ، كما كان القتبانيون يعتبرون أنفسهم «ولد عم » ضمانا لإحاطة حكمهم بالقداسة الدينية بين رعاياهم . ولعلهم تعمدوا اتخاذ ود اسما لإلههم نخالفة لتسمية قتبان لإلهها الأكبر باسم عم .

واز دهرت أوسان فى عصر هذه الملكية الأخيرة وامند نفودها من باب المندب على الساحل إلى الأحور ، كما امتد فى الداخل إلى حدود فتبان . واشتهرت من مناطقها الأثرية مسوره ومرخا ونعان وحلة والسقية وأم ناب ، فضلا عن خليج عدل Arabia Endaimon . وكان فى امتدادها الساحلى الطويل ماسمح لها بتجارة واسعة مع شاطىء شرق أفريقيا المواجه لها حتى زيزبار نحيث سمى جرء من هذا الشاطىء حينا باسم الساحل الأوسانى وانعكست موارد هذه التجارة على ثراء مقابر ماوك أوسان وآثارهم التى يقل بعضها إلى متحف عدن .

ومن أهمها بصعة تماثيل من الألباستر مثلت عددا منهم في هيئاتهم العربية وملابسهم القومية ، على الرغم من أن فنانها قلدوا في نحتها أسلوبا فنيا يشبه أسلوب الفن الهيلينسي الذي انتشر في الشرق منذ القرن التالت في . م . وكانت الاسكندرية من مراكزه الرئبسية . وأظهرت بعض هذه التماثيل أصحابها بمدون أيديهم إلى الأمام كما لو كانوا يقدمونها قرابين وهدايا إلى معبوداتهم . ونوعت بين هيئاتهم فأظهرت بعصهم بشعور قصيرة ، وبعضا آخر بشعور طويلة تنسدل إلى ما تحت الأذنين أو تسترسل على هيئة الجدائل على الكتفين. ومثلتهم حليقي اللحي ، وجعلت لبعضهم شوارب خفيفة . وبينها أظهرت بعضهم بثياب طويلة كاسية تزخرفها أحيانا زركشة لطيفة في وسطها وعند دمالج الذراعين ، أظهرت بعضا آخر بنقبة (أو فوطة) طويلة .

ولاتر أهذه الماثيل من قلة التناسق بين أعضائها . حيث تبدو قاماتها قصيرة أحيانا إلى حد ملحوط . وسيقانها غليظة . وأكفها عريضة بالنسبة إلى بقية جسومها . ولكنها على الرغم من ذلك بلغت صناعها مستوى لايأس به بالنسبة لإمكانات بيئتها . كنا أصبحت بتنوع هيئانها مصدرا مهما للتعرف على سهات أهلها وأزيائهم .

وكجز عمن مشكلات التازيخ فى دول الجنوب العربى . افترض فلبى أن اللهاية السياسية لدولة أوسان حدثت فى أواخر القون الثانى ق . م . بيها افترضت جاكلين بيرت بقاءها إلى قبيل ميلاد المسيح . والمرجح على أية حال هو أن أراضها انطوت بعد ذلك خت سيطرة حمير ثم دولة سبأ و ذو ربدان . ودخلت معها تحت إشراف هذه الدولة الأخيرة المتاطق التى امتدت تجارتها أو ولا يتها إله اعلى الساحل الأفريقي المواجه لها .

* * *

من المؤلفات الختارة في دراسات الفصل:

Conti Rossini, C., Dalle Rovine di Ausan, Dedalo, 1927, 727-754. Hamilton, R., GJ, 101, 1943 Philby, op. cit., 82-86.

> جواد على : المرجع السابق – ج ۲ – مادة «أوسان» . نيلسن وآخرون : المرجع السابق – ص ۸۲ – ۸۲۱ ، ۹۱ ، ۹۹۸ – ۲۹۹ .

الفصسل لناسع عودة إلى دولية سبأ

في عصر المملكة السبأية

بدأت عهود الملكية في سبأ باتخاذ كرب إيل وتر الثاني لقب الملك عوضاً عن لقب المكرب ، أو إلى جانبه ، في حوالي عام ٤١٠ ق . م . كما يعتقد أصحاب التأريخ الحتصر (ومنهم آلبرايت وفون فيسمان) بعد أن أحرز لدولته توسعاً كبيراً على حساب جيرانها . ويبدو أن الرجل قد انصرف بعد انتصاراته إلى توطيد الأمن في أرجاء دولته الجديدة الواسعة عن طريق إعادة تعمير المدن المعينية والأوسانية الحاضعة له وإسكان جماعات من السبأيين فيها : وإعادة تحصيلها بعد أن اطمأن إلى موالاتها له . ثم عن طريق مواصلة سياسة أسلافه العمرانية والاقتصادية في الاهمام بمشروعات الرى وما إليها .

و لما كان الرجل قد ادعى أو اقتنع بأن معبود دولته الأكبر « إلمقه »هو الذى أيده فى مشروعاته وتخيره ملكاً أو صيره ملكاً كما أسلفنا من قبل، فقد ترتب على هذا آن ازداد شأن إلمقه بازدياد شأن ممثله على الأرض كرب إيل وتر ، وزادت معابده فى حواضر الدولة كما انتشرت عبادته فى البلاد التابعة لها . وزادت الأوقاف; المرصودة عليها من أهلها وأتباعها على حد سواء ، ومعها ضمنيا بفية معبودات سبأ الأخرى .

وتوسعت سبأ فى عصرها الملكى فيا كانت قد بدأت به من نظم فى عهود المكربين . كما تقبات بعض عناصر الحضارة وبعض التسميات النى أخذت بها الدول الجنوبية الأخرى ، الصديقة منها والمنافسة والحاضعة فى آن واحسا.

وأشرنا في نهاية الفصل الحامس إلى نظرية جديدة تفرض أن بعض النصوص السبأية أخذت تورخ أحداثها منذ عهود أواخر المكربين بنيابة عظيم

ذى صفة دينية يتلقب بلقب « رشو » وبجمع إلى كهانته للمعبود عثر شيئاً من الإشراف على شنون الرى والزراعة . ويرى صاحب هده النظرية أن النيابة قد انتظم آمرها فى عهود الملكية وأصبحت تحتسب لكبار أفراد ثلاث أسر كبيرة وهي أسرة حرور كبير خايل ، وأسرة حدمة . وأسرة فضحم .وكان هوالاء يتعاقبون ولدا عن والد بعد كل دورة ثلاثية من الأسر التلات. وتستمر بيابة كل مهم ست سنوات أو سبعاً، باستثناء مرة واحدة استمرت لتسع سنوات .

وتلقب الولاة بلقب « كبر » (وهو لقب كان له مايشبه في معين وقتبان). وتسمى مجلمهم باسم « مشد » (وهو مسد أو مسود في معين وقتبان أيضاً). وتلقب ولاة سبأيون آخرون بلقب « قين » ، وإذا زادن منزلة أحدهم لقب بلقب « أكبر أقينم » أو « أكبر أقين » بمعنى أكبر الأقيان أو الأقيال . وإلى جانب لقب « مود » بمعنى صديق أو نديم (للملك) في البلاط السبأى ـ ظهر أيضاً لقب « حرج » ويبدو أنه كان خص المشرف على المنشآت الحكومية .

و يمكن أن يرد إلى العصر الملكى فى سبآ إنشاء بعض العناصر المعمارية الراقية فى معبد أوام إلى الجنوب الشرقى من مأ رب والذى أشرنا من قبل إلى بداية إنشائه فى عهود المكربين . وهو معبد ذو محيط بيضاوى امتد قطره الطويل نحو مائة متر وامتد قطره القصير مابين ٧١ إلى ٥٥ مترا . وبلغ الأرتفاع الخالى لبعض جدرانه الباقية نحو تسعة أمتار ، وبلغ سمك بعض أجزاء جداره الحلني نحو أربعة أمتار وإن امتلأ داخله بالرديم وكسر الأحجار.

ولم يتميز هذا البناء بضخامته فقط وإنما تميز كذلك بفخامته ، ولهذا فما من بأس فى استعراض بعض أجزائه كنموذج لفن العمارة السبأية فى أيامه .

تقدمت هذا المعبد صفة أو سقيفة محمل سقفها صف من ثمانية أعمدة حجرية . كل مها حجر واحد قائم يبلغ ارتفاعه نحو ٧٠٦٥ م . ويتلوها مدخل ذو صرحين مرتفعين يودى إلى بهو ضخم حفت بصفاته الداخلية وحملت سقوفها أعمدة حجرية كبيرة بقيت بعض أجزائها، وكانت تبلغ ٣٢

عموداً وشكلت في الجدران الداخلة لهذا البهو ٦٤ نافذة حجرية وهمية متتابعة فلد بناؤها في أحجارها هنئة النوافذ الخشبية الشبكية في إتقان بارع.

ويفتر من وكسفو المعبد أن واجهة المدخل المؤدى إلى هذا البو وأخشاب بابه بل وأر ضبته و در جات ساه الرئيسي كانت وكسوة في بعض مواضعها بصفائح عريضة من البرونز تعبيرا عن الثراء . ويعتقد أحدهم (جام) أن الدرج المؤدى إليه كانت تتوسطه نافورة تصب ماءها في حوض برونزى كبير يواحه المدخل بينها يفترض غيره (ألبرايت) وجودخز انماء فوق صرحى المدخل كان عملاً من بئر في داخل المعباء تم جرى مياهه في مجار تمر خلال أرضية المعبد لتصب في الحوض البرونزى الكبير ثم يعاد توزيعها مرة أخرى في الأغراض التي خصصت من أجلها .

وعُر في المعبد . وعلى جوانب مدخل الهو خاصة على عدد كبير من التماثيل البرونزية الصغيرة والكبيرة مثلت أصحابها الأثرياء . ونقشت على هذه وتلك عبارات التعبد والإهداء إلى « إلمقه » صاحب معبد أوام . وقلدت بعض النماذج الطيبة منها أساليب الفن الفينيقي والفن الهيلينسي .

وما من شك في أن الصورة الإحمالية التي صورها مكتشفو مدخل هذا العبد . والتي فدمنا جزءاً منها . تدل على ماكانت عليه بقيته التي لم تكتشف حتى الآن من روعة وفحامة . وتدل بالتالى على ثراء العهود التي بني فيها وهي عهود أسلفنا أن أقدمها يرجع إلى عهود المكربين وأن أوسطها يرجع إلى العصر الملكي السبأي منذ بداية القسرن الرابع ق.م. . بينها يرجع أحدثها إلى القرن الأول الميلادي . وتخرب المعبد في أواخر العصور السبأية وقام مصنع في صنته الغربية . كما استخدم سورا لمنطقته حين قل سكانها بعد أن خرب سد مأرب . وتناثرت حوله المقابر والمساكن ، ثم تحول إلى حصر في العصور الإسلامية .

و تو فر لبقیة معابد سبأ ما تو فر فی غیر ها من طقوس و ثروات و ممتلکات عما یتناسب مع قدرات منشد، ومدی أهمیة المناطق النی نشأت فیها . وانتفع

أغلبها باعتفاد أتباعها في التبرؤات (وهي رجم بالغيب) عن طريق وسطاء من الكهنة . وهو ماكانوا يسمونه باسم « مسأل » . وإلى جانب ماتتلقاه هذه المعابله من النذور والقرابين والأضاحي من الدولة . كان بعض أثرياء مريديها يسجلون على أنفسهم حججاً أو أوقافاً مع الكهنة يلتزمون فيها بأداء قرابين معينة ويتوقعون . أو يتوقع لهم الكهنة بمعنى أصح . سوء المصير إن هم تخلفوا عن أدائها .

و تقبلت سبأ من عقائد جبر انها فی عصرها الملکی تسمیة « فر سموی» أو فوسهاوی بمعنی سید السماء أو رب السماء . وقد ورد اسمه أصلاضمن نصوص عشیرة معینیة قدیمة خضعت للسبآیین و هی عشیرة الحنکانیین الذین نسبت المهم مدینة حنان . و علی الرغم من أنهم أدخلوا فسموی هذا ضمن عقائد التعدد الفاشیة بیهم إلا أن من الباحثین من یری فیه تطوراً فی تفکیر هم ، و فلك علی اعتبار أنه إلی جانب اعتقادهم بوجود معبود لكل كو كب كبیر فی السماء . جعلوا من فر سموی هذا معبودا للسماء كلها كو حدة و احسدة .

وإذا كانت هذه بعض نواحى الازدهار العمرانى والإدارى فى سبأ فى عصرها الملكى . فقد مرت فى أواخر هذا العصر بمشكلات خارجية وداخلية عدة كان علمها أن تواجهها بما يناسها .

وترتبت أهم المشكلات الحارجية على رغبة قادة الإغريق وتجارهم في مشاركة العرب في الانتفاع بتجارة البخور والتوابل عن طريق البحر الأحمر وما يتصل به من تجارة المحيط الهندى أو احتكارها وحرمانهم منها . وأطلت هذه الرغبة برأسها منذ عهد الاسكندر الأكبر المقدوني الذي تطلع بعد أن دانت له دولة بابل حتى الحليج العربي . إلى السيطرة على تجارة نعار العرب واحتكار تجارة الهند . فأرسل في عامه الأخير ثلات بعثات نحرية كبيرة تجوب البحار وتتعرف على مواطن الضعف ومواطن الاستغلال في السواحل التي تحيط بشبه الجزيرة العربية . وبدأت هذه البعثات الملاحية رحلها من الحليج العربي ولكنها لم تتقدم كثيراً إذ بلغت أكثرها نجاحاً (بقيادة عمرية المسكندر أمر كذلك نخروج بعثة محرية رأس الحيمة عمرية الاسكندر أمر كذلك نخروج بعثة محرية

من مصر عن طريق اليحر الأحمر . ولكنبا تعثرت هي الأخرى وربما بلغت باب اللندب أو لم تبلغه .

وعندما تقاسم قادة الاسكندر المقلسونى حكم أقطار الشرق القديم بعد وفاته ، وحيما استقر البطالمة فى مصر بنى أواخر القرن الرابع ق. م . كان من سياستهم أن يستغلوا السواحل الطهويلة المطلة على البحر الأحمر إلى أقصى الحدود ، وأن يحققوا آمال الاسكندر لمصلحيم بخطوات متئدة عملية لم يكن تأثر عرب البهنوب بنتانجها محسوساً على درجة واحدة دائماً . ويمكن إيجاز مراحلها الأورال فيا يلى :

(أ) أرسل أحد البطالمة الأوائل ولعله بطلميوس الأول أو الثانى قائدا من قادة البحسر بدعى Ariston فى بعثة بحرية استطلاعية لينعرف على سوالحل بلاد العرب وطبيعة الملاحة فى بحارها وطائف بجزء كبير مها. ولما عاد إلى الاسكندرية قدم إلى دولته تقريراً مفصلا عما شاهده ولاحظه فى رحلته من الموانىء الشمالية والجنوبية

(بب) جددت في عصر البطالمة بعض الموانىء المصرية المطلة على البحر الأحمر بوأنشىء بعض آخر ، حتى تستعد لاستقبال المزيد من متاجر هذا البحر واتصديرها ـ (ومنها ميناء أرسينوى في نهاية خليج السويس، وميناء ميوس هرميس قرب ميناء القصير الحالية، وميناء برينيكي إلى الشرق من أسوان) ـ

(ج) العمل على تأمين السيطرة على خليج العقبة باعتباره مخرج تجارة البحر الأحمر المتجهة (برآ) إلى جنوب بلاد الشام .

(د) زيادة الأساطيل البطلمية المقاتلة في البحر الأحمر لتأمين السفن والمصالح التجارية فيه . وتشجيع الوسطاء على التعامل معها . وصرفهم عن الاعتماد على نقل المتاجر بالطرق البرية التي أشرف علمها العرب الشماليون والجنوبيون في شبه الجزيرة .

(ه) تشجيع الجاليات الإغريقية التجارية على استيطان موانىء البيحر

الأحمر وجزره .. وقد تحدث عما وعن بعض المواطن التي بزلت مها على الشاطىء العربي الرحالة Agatharchides في منتصف القسرن الناني ق.م. ووصلت بعض هذه الجاليات حتى جزيرة سوقطرى في البحر العربي وشاركوا العرب والهنود في سكناها . كما شاركوهم في نقل تجارة الهند وسواحل شرق أفريقيا .

وأدت هذه الحطوات المتتابعة إلى نتيجتين مختلفتين على المدى البعيد بالنسبة لدول شبه الجزيرة العربية . فانتفع بها أهل السواحل وازدهرت تجارة موانيهم الجنوبية والجنوبية الغربية . مثل ميناء قنأ فى حضرموت . وميناء عدن . وميناء موراه فى المنطقة التى تقاسمها كل من قتبان وأوسان وحمير (تم ورنها سبأ) . بينها تأثرت بعض الشيء اقتصاديات الدول العربية الداخلية التى اعتمدت على استغلال قوافل الطرف البرية ولا سيا الطريق الرئيسي الممتد من جنوب شبه الجزيره عبر الحجاز حتى العقبة وما ورائها في سيناء أو في جنوب الشام . وإن ظل تأثرها حتى المرحلة التي وقفيا عندها .

. وكان من أكثر المستغلين لنتائج هذه التطورات قبائل حمير التي أطلت على سواحل البحر الأحمر الجنوبية الغربية واستفادت من نشاط التجارة البحرية في موانبها لاسيما عدنو وزا (موشج) وميماء أخرى ذكرها رحالة الإغريق باسم أوكيليس .

ويبدو أن حمير كانت تمثل النئة الحاكمة لحلف قبل تداخل مع بعصه بدوافع المصاحة المشتركة ورابطة الدم والموقع . وقد صورتها المصادر العربية تنقسم إلى قبائل صغيرة تعيش حول لحيج بناحية ظفار ورداع (أى تجاور أوسان) وتمتاء شرقاً في سرو حمير ونجد حمير . وقد أسلفنا أن هاده القبائل اعترفت بسيادة دولة قتبان مند القرن الرابع ق.م. خيث أطلقت بعض النصوص على أهلها لقب « ولد عم » مثل القتبانين . وخيث أصبح حصيم الرئيسي يسمى « ريدان » تقلبدا لا محمد ريدان القتباني . ولكن حصيم الرئيسي يسمى « ريدان » تقلبدا لا معمد المناها المصاحة حمد بعد الردياد النشاط المعمد على سواحلها .

ونشأت ظاهرة جديرة بالاعتبار ربط بعض الباحتين بينها وبين نهضة همير . وهي أن المصادر العربية القديمة لم تنسب أحداثها إلى تاريخ ثابت (كالتاريخ الميلادي أو التاريخ الهجري الحاليين) إلا في نحو سبعة نصوص متباعدة عرفت حتى الآن . وأدت الدراسات المقارنة إلى تعيين عام البداية للتاريخ الثابت الذي ردت هذه النصوص السبعة أحداثها إليه بعام ١٠٥ ق.م. (أو عام ١٠٩ ق.م.) . ولكن تعددت النظريات في تعيين المناسبة الحامة التي ارتبطت بها هذه البداية ، ومالت أحدث هذه النظريات إلى ربطها باتحاد مير في كيان واحد ، وحلت بذلك محل نظرية أخرى سبقتها كانت تربط بينها وبين نشأة مملكة سبأ ودوريدان ، الأمر الذي دعا إلى اعادة ترتيب أحداث الجنوب على أساس جديد وهو ماسوف نأخذ به فيا يلى .

وقد مر بنا كيف اتجهت حمير بقبائلها المتحدة إلى الانقلاب على دولة قتبان واستقلت عنها في القرن الأول ق . م . وكانت سبباً في إضعافها ، وكيف دخلت في بعض الحروب ضد دولة حضرموت ، ثم أخذت تتحين الفرص لإثبات كيانها إزاء جارتها العجوز مملكة سبأ .

وكانت سبآ تشق طريقها في جهد، وعانت بعض الوقت من تنهييق جارتها فتبان ومعين، ولكنها قاومت وبدأت بمعين فقضت على استقلالها كا آسلفنا، وأسكنت مجموعات من السبأيين في بعض مانها. واكنها لم تلا تسفح طويلا بنصرها. إذ هددها خطر خارجي ربما لم تكن تحسب حسابه.

ونعود إلى العوامل الحارجية أو المنافسات الحارجية لنجد أن خباوتها الفاصلة بدأت منذ امتد اههام البطالمة الأواخر من رغبة الإشراف على البحر الأحمر وتجارته إلى رغبة الإشراف على تجارة المحيط المندى الذى كانوا يعلمون أن كثيرا مما يأتهم به التجار العرب من متاجر إنما يأتي عن طريقهم من الهند ، فودوا أن يوجنهوا سفهم إليها دون وساطة . و . جل المؤرخون خبر واحدة من أولى الرحلات التي تجحت في تحقيق هذه الرغبة ، وقد تراسه ملاح يدعى يودو كسوس الكيزيكي Eudoxos of Cyzicus وبلخ بهدا الهند حوالى عام ١١٧ ق م . وتعددت بعدها رحسلات بحابة وبلخ بهدا الهند حوالى عام ١١٧ ق م . وتعددت بعدها رحسلات بحابة

الإغريق والبطالمة وساعد على نجاحها اهتداء اليونانى هيبالوس Hippalus إلى إمكان استخدام الرياح الموسمية الجنوبية الغربية خلال الصيف (من يونيو إلى أكتو بر) فى تقصير أمد الرحلة من البحر الأحمر إلى سواحل الهند فى عرض المحيط مباشرة دون ضرورة إلى التزام خطوط سواحله الطويلة .

وأعقب البطالمة منافس أشد خطراً منهم وتمتل فى النفوذ الرومانى فى عهد الامبراطور أوجهطوس (أوكتافيوس) الذى أصبح يسيطر على أغلب مناطق العالم القديم دون منازع منه أواخر القرن الأول ق . م . ولم يكتف أوجسطوس بالنشاط العادى الذى يقوم به أعوانه من الإغريق والرومان فى تجارة الهند والبحر الأحمر . وأراد أن يقصى العرب عن هده النجارة جملة أو يجعلهم يعملون لصالحه فها . أو يسيطر على أرضهم جيوشه .

وكانت الصورة البراقة المسرفة التي أشاعها الرحالة والمؤرخون الإغريق والرومان في عالمهم الغربي عن ثراء بلاب العرب مما شجع على هذه الرغبة فقد كتب الرحالة الجغرافي استرابون مايقول إن السبآيين والجرهائيين في عصره كانوا من أكثر القبائل ثراء نتيجة لتجارتهم في الموادالعطربة، ولهذا توفرت لديهم كميات كبيرة من مصنوعات الذهب والفضة كالأسرة والموائد الصغيرة والأواني والكووس . فضلا عن قصورهم الرائعة التي كانت ابوامها وحدرانها وسقوفها مختلفه الألوان . يرصعون بعضها بالعاج والذهب والفضة والأحجار الكريمة . . . إلخ .

وليس من ضرورة بطبيعة الحال إلى تصديق هذا التصوير خدافيره، ولكنه كان كافياً لإثارة أطماع ساسة الرومان الطموحين إلى السيطرة والاستغلال . ولم يعدم أولئك الساسة والنجار تقديم المبررات لأطماعهم ، وصور استرابون بعضها فادعى أن أهل العربية السعيدة كانوا يحصلون على أرباح باهظة من تجارتهم مع الأغراب والرومان فلا يتركون لهم ولا للبلاد التي ينقلون تجارتهم إلها مجالا للكسب أو النراء .

احتلال أرضهم . وترأس جيشاً كثيفاً وانضم إليه عدد كبير من اليهود ومن الأنباط حلفاء الرومان . وخرج الجيش في عام ٢٤ق.م. على متن أسطول كبير (قيل إنه تألف من ١٣٠ سفينة) من خليج السويس واتجه في البحر الأحمر حتى Leuke Kome ولعلها هي ميناء الحوراء أو أماج الحالية التي استغلها قوم مدين في عصورهم القديمة ثم خضعت لنفود الأنباط . وسلكت جيوش حاللوس بعدها سبيل البر خلال ساحل الحجاز وتهامة اليمن وخربت في طريقها مدمًا كثيرة . وعندما وصلت إلى الجنوب بدأت بتخريب مدن دولة معين القديمة التي أصبحت سبأ مسئولة عنها . وروى استرابون أن ملك نجران مرحن اقتراب قوات الرومان ، ومتحت يثل أبوابها و دمر الغزاة مدن نشق ونشان و كمنة ولبة وحريب وحاصروا مأرب . ولكن حملنهم باءت في نهاية أمرها بالفشل ولم تتعد مأرب ، وفقدت كثيراً من سفتها ومن رجالها . و كان قد صحبها رجلان اهتم التاريخ بهما . استر ابون الجغرافي الرحالة الذي روى أحداثها (من وجهة نظره) وكان صديقاً شخصياً للقائد جاللوس ، تم رجل آخر اختلف الحكم عليه ، وهو رجل من الأنباط ترأس قومه الذين رافقوا الحملة واعتبره الرومان دليلا لهم على أساس خبرته بالطرق البرية في شبه الجزيرة وخبرته بطرق العرب في القتال. وقد ذكره استرابون باسم سلياووس وهو اسم قد يكون محرفاً عن اسم صالح أو سلى أو سلاء (يراجع عنه بعده) .

ورجعت أسباب فشل حملة جاللوس إلى عدة عوامل ذكر استرابون بعضها ، ومنها عدم كفاية جاللوس فى قيادة البحر وتنظيم الأسطول بحيث فقد كثيراً من سفنه قبل أن يصلبها إلى ميناء الحوراء ، وإنفاقه أغلب جهده فى إعداد سفن مقاتلة لم تكن لها خبرورة ملحة فى حملته لأنه لم يكن من المنتظر أن يقاتله العرب فى البحر . ولعله عدل لهذا الى طريق الروسار بجيشه فى طرق صحراويه و جبلية طويلة وعره ممتا نحو ١٢٠٠ ميل من الحوراء أو أملج إلى داخل اليمن ، وكان يستطيع أن يتابع طريقه في البحر مادام قد بدأه حتى ساحل اليمن ، وقلة الماء خلال حصار مأرب، وتفشي الجوع والأو من حنولها، فضلا عن عدم إخلاص الدليل النبطى فى النصيحة الرومان .

(م ٨ م تاريخ سبه الجزيرة العربيه)

وإذا زدنا شيئاً على تحليل استرابون فهو وضع مقاومة العرب لجيوش الرومان موضع الاعتبار فى عدة معارك كانت إحداها عند نهر ذكره استرابون وقد يكونهوغيل خارد، وشدة تحصن السبأيين فى عاصمتهم مأرب ومقاومتهم للحصار الرومانى . وأخيراً تفسير عدم إخلاص الدليل النبطى للرومان برغبته فى الوفاء لبنى عمومته العرب مما خيب آمال السادة الرومان.

ويبدو أن تجار الرومان قد وجدوا سبيلهم بعد ذلك إلى موانى ، بلاد العرب الجنوبية عن طرق أخرى غير طرق الحرب ، فتحالفوا كما يفهم من بعض الروايات المتأخرة مع أمير ظفار الحميرى على أن يقدم لجم بعض الامتيازات الإقليمية ، وربما بجحوا فى أن يتركوا بمبناء عدن جالية أوحامية رومانية تساعد سفهم ضد أخطار القرصنة فى البحر وتشرف على مصالحهم التجارية .

واستردت دولة سبأ كيانها بعد فشل الحملة الرومانية ، وانفسح السبيل أمامها فى الداخل بعد أن انكمش نشاط دولة قتبان وخسرت كيانها السياسي شيئاً فشيئاً تحت تأثير ضربات السبأيين والحضرميين والحميريين خلال القرن الأول الميلادى وبعده بقليل ، كما مر بنا من قبل .

ولكن سبأ لم تنتفع بهدوتها طويلا ، وأخذت المشكلات الجدودية والداخلية تعمل عملها السيء فيها، الأمر الذى قلل من هيبها أمام القوتين المباقيتين في ميدان المنافسة أمامها في جنوب شبه الجزيرة وهما قوة حمر وقوة حضرموت، ثم مهد لعصر جديد من عصورها المتميزة وهوعصر ملوك سبأ وذوريدان موضوع البحث التالى .

من المؤلفات المختارة في دراسات الفصل :

Bowen, Albright and Others, op. cit.

Jamme, A., Sabaean Inscriptions from Mahram Bilqis, Baltimore, 1961.

Philby, op. cit., 64-76.

Phillips, op. cit., 279f.

Ryckmans, J., op. cit.,

جواد على : المرحع السابق ، مادة ملكية سبأ .

نيلسن وآخرون . المرجع السابق ، ص ۸۷ – ۸۸ ، ۲۹۱ – ۲۹۲ .

الفصاللعاشر

دولـة ســأ وذو ريـدان وسيطرة حمــــر

اختلفت نشأة هذه الدولة عن نشأة غيرها من الدول فى أنها لم تبدأ ببداية زاهرة ، وإنما قامت خلال ظروف مضطربة استمرت أكثر من قرن ونصف القرن بين عام ٩٠ م وعام ٢٦٥ م . وهى ظروف لازالت تفاصيلها خافية ونصوصها متضاربة .

وكانت قد طهرت بين القبائل العربية الجنوبية والوسطى خلال القرن الأول الميلادى روح من التنافس الشديد ورغبة الانتشار وأطماع الرياسة والسيادة ، لأسباب غير محددة ، قد تكون منها تلك المحنة التي هزت كيان دولة سبأ خلال الحملة الرومانية عليها ، وروية دول الجنوب تنهار واحدة بعد واحدة لسبب أو لآخر ، وزيادة نراء بعض المناطق مع افتمار مناطق أخرى بتيجة للمنافسة بين التجارة البحرية والتجارة البرية ، وقد يكون منها كذلك ماجد من انتشار الحيول والقوات الراكبة بين رجال القبائل وما أدى إليه هذا من سرعة الحركة والكر والفر والشعور بالزهو ، وهلم جورا .

وكانت أكثر القبائل السبآية نهرة خارج مآرب هي قبائل مرثد وجرت التي ارتبطت نآسرة ملوك سبأ بروابط الأصل والنسب . ولهذا طلت صلات الموده عالية بينها وبينهم ، ولكن هذا لم يمنع بعض حكامها الكبار اللهين كانه ا يتلقبون من قبل بألقاب الأقيان أو الأقيال من أن ينلقبوا بلفب «ملك» ببر. فعن زآخر ، إل ولقب « ملك سبأ » أيضاً . الأمر الذي تقبله الملك السبأى النسر عي في مأرب ، في بعض الحالات . على مضض حتى يبتوا مساندين له.

وفى الوقت نفسه ظلت أكثر القبائل القريبة من مأرب ، عدداً وبأسا ، هى فبائل سمعى التى ضمت أثلاث : سخيم، وبتع ، و همدان (والآخيره هى التى انتسب إليها فيا بعد الرحالة أبو محمد الحسن الهمدانى أشهر من كتب فى العصور الإسلامية عن جغرافية شبه الجزيرة العربية وتاريخها) .

وكيفت هذه القبائل مسلكها إزاء سبأ بما يتفق مع مصالحها والظروف التي عاشت فيها ، فظات موالية للدولة فى عهود قوتها ، واستمرت كذلك حتى رأت الأطماع تعيط بها ، فبدأت تتحن الفرصة لإثبات كيانها الذاتى تحت زعامة بيت حكم كبير فيها انتسب إلى جد أكبر يدعى « أعين » . وجد أصغر يدعى « أوسلات رفشان » .

وفى حمأة هذه الأطماع والملابسات الداخلية التى مهدت لتمزق الكيان السبأى ، كانت قبائل حمير قد شقت طريقها حتى حدود سبأ ، واتحدت عاصمتها فى مدينة ظفار التى نشأت فى منطقة خصية قرب مدينة يرم الحالبة ، وحمتها عدة حصون قامت على التلال التى تحيط بها ، وكان حصن ريدان آكبرها ، فأصبح حصنها الملكى ، وانتسب إليه ملوكها فى لقهم الذى الشهروا به وهو « ذوريدان » .

و و جأة ظهر في نصوص هذا العصر المضطرب مايدل على أنه قامت في كل من مارب وظفار أسرة حاكمة ادعى ملوكها لأنفسهم لقب « ملك سبأ و ذوريدان » كل على حدن . وفي تفسير هذه الظاهرة افنرص الباحث فون فيسمان أن مأرب عاصمة سبأ تعرصت لهجوم من قبل ملك ريدان الحميرى في نهاية القرن الميلادي الأول ، وحينا انتصر عليها أضاف اسمها إلى لقيه ، ولكن تقديره لمكانة سبأ التاريخية والدينية جعله يقدم اسمها في مقده هذا اللقب ، وإن لم يطل حكمه . وعز على القبائل المحيطة عأرب ماصارت إليه فعملوا على إجلاء الملك الحميرى عنها وأعادوا إليها الملك السبأى المنهزم أو رجلا من أسرته اتخذ هو الآخر لقب « ملك سبأ و ذوريدان » في الوقت الذي لم يتنازل فيه الملك الحميرى في ظفار عن لقبه المزدوج .

ومع التجاوز عن الأسماء العديدة التي أتت النصوص بها ، مراعاة

للتخفيف مؤقتاً ، تكفى الإشارة إلى أنه كار، من أصحاب الفضل فى إعادة الملكية الشرعية إلى مأرب زعيم فبائل بتع ، وزعيمان لقبيلتى مرثد وجرت ، وقد عمل كل منهم من ناحيته ، ولم يكن عمله بغير ثمن ، فقد تلقب كل من الثلاثة عثل لقب ملك مأرب العائد ، أى « ملك سبأ » .

وعمل الهمدانيون على أن يكون لهم بدورهم نصيب فى ألقاب العصر وزعامته ، وكان قد ترأسهم بعد أوسلات رفشان ولداه « يرم أيمن » و «بارج أيه حبر حب » ، وقد مثلا ملك سبأ فى عقد صلح أنهى حروبا متقطعة قامت بينه وبين دولة حضر موت و الحميريين و القتبانيين (الذين كانت دولتهم تلفظ أنفاسها الأخيرة) . وكان الجزاء على عقد الصلح أن تلقب أكبر الأخوين يرم أيمن بلقب ملك وأورثه لولده .

وهكذا شهد العصر (فى منتصف القرن الثانى الميلادى) أربع أسر إقليمية أو قبلية ادعى كل رئيس فيها لقب « ملك سبأ » ، وذلك إلى جانب ملك مأرب الشرعى صاحب لقب « ملك سبأ وذوريدان » ، فى دولة كانت تسيطر علمها من قبل مملكة واحدة .

وإلى جانب هوً لاء الملوك الخمسة كانت هناك ملكية حمير التي تمسكت هي الأخرى بلقب « ملك سبأ و ذوريدان » وحاولت أن تحققه على حساب هذه الأطراف حميعاً .

وهنا تصدى زعيم همدان « علهان نهفان » الذى شارك أباه يرم أيمن في رئاسة قومه وفي لقب الملك ، لمواجهة الأزمة ، وتلمس الحلفاء حوله ، ووجد بعضهم في خصوم الأمس ، فتحالف مع دولة حضرموت ، ومع ماعات حبشية ذكرتها النصوص تحت زعامة « جدرت ملك حبشت » أو جدورة ملك الحبشة أو الحبش ، واختلفت آراء الباحثين في تحديد أصل هذه الجماعات ، عذهب رأى إلى اعتبارهم فرعاً من سكان جنوب اليمن أو تهامة الأصيلين نزح بعضهم إلى الساحل الأفريقي المواجه لهم وكان لهم أثر في تكوين حماعات الجعزيين الأحرار الذين نشروا اللغة السامية في الحبشة ، وقد عرفوا عند العرب حينذاك بتسمية الحبش على جانبي البحر الحبشة ، وقد عرفوا عند العرب حينذاك بتسمية الحبش على جانبي البحر

الأحمر . وذهب رأى ثان إلى اعتبارهم مولدين من مهاجرين أحباش إلى سواحل تهامة تكاثروا عليها ثم عملوا لمصلحتهم فى فترات التمزق الداخلى بالانحياز إلى فريق ضد فريق . وذهب رأى ثالث إلى اعتبارهم غزاة من الحبشة استغلوا فترات التفكك التى عمت المناطق اليمنية هاحتلوا مناطق ساحلية واسعة من شمال جبزان وعسير وجزء من ساحل الحبجاز ، رداً على التوغل الاقتصادى والبشرى العربى على الساحل الأفريقي ، وللسيطرة الكاملة على التجارة الأفريقية المنقولة بالوساطة إلى الساحل العربي بعد أن فشلت الحملة الرومانية فى السيطرة عليها . وأيا ماكان من هذه التفسيرات فإنها لا تخفى حقيقة واقعة وهي أن تمزق أهل الدولة الواحدة وتضارب مطامع زعمائها وتغليب المصالح القبلية أو الإقليمية فيها على حساب الصالح العام . كل دلك كان سبيلا إلى تدخل الأغراب فى أمورها .

وجدير بالذكر أن النصوص الجنوبية أخذت تشير في هذه الفترة إلى دورالأعراب أهل البادية باسم « أعرب » وإلى انضمامهم إلى هذا الفريق أو ذاله . ويبدو أنه أصبح لهم دور كبير في فرق الخيالة أو الفرق الراكبة في الحروب .

ولم يتحقق أمل علهان نهفان فى إعادة هيبة دولة سبأ وريدان ، إلا فى عهد ولده « شعر أوتر » الذى أضاف إلى هذا الأمل هدفاً آخر وهو تحرير الأراضى التى سيطر الحبش عليها ولو استدعى الأمر أن يقاتل معهم من كانوا يحالفونهم من القبائل العربية الأصيلة . وقد نجح فى تنفيذ أغلب هدفيه وبسط سلطانه على أغلب اليمن وشهاله ، فى أواخر القرن الثانى الميلادى .

ولكن نجاح شعر أوتر كان رهيناً بشخصه ، وبعد وفاته عادت الحروب بين السبأيين وبين الحميريين لسنوات طويلة . وتحالف الحميريون فيها مع الأحباش أو الأكسوميين الأفريقيين فى عهد ملكهم عذبه أو عذابا. ويبدو أن هو لاء الأحباش خططوا للعمل لمصالحهم الحاصة ووجدوا عوناً أو تحريضاً من الرومان الذين تلاقت مصالحهم معهم فى استغلال تجارة البحر

الأحمر وتةليل نصيب العرب منها . ولم ينقا. الجنوب . بم إلا وفاة عذبه الأكسومي أو الحبتبي وقيام الاضطرابات في بلده بعد وفاته .

تلك كانت مجرد نماذج من فترات التشتت والصراع والمد والجملر التي شهدتها دولة سبأ و جيرانها ، وقد تكررت أمنالها و تغيرت مواقع الأطراف هما بين تحالف و تخاصم عدة مرات خلال القرون الثلاثة الميلادية الأولى . والعريب أنه على الرغم من ذاك كله ، وعلى الرغم من منافسة ظفار الحميرية لمأرب السبأية في شئون التجارة والسياسة ، ومنافسة ذمار (قرب صنعاء) لمأرب أيضا في شئون العمران - ظلت أوجه النساط الإنتاجي والتجاري عائمة إلى حد ما وظلت تثير اهمام المؤرخين والرحالة الكلاسيكيين المعاصرين لحسا

فنى أوائل هذا العصر المضطرب تمت إعادة بناء الهويس الشهالى من سد مأرب (ى الفترة بين على ١٠٠ م ١٢٠ م) بعد انهياره الأول المعروف. وإلى هذه الفتره نسب الأخباريون العرب تشييد قصر محمدان الذى أسرفوا فى وصفه وتمجيد صاحبه إيل شرح يحضب ولك مرثد ــوقد احترق القصر ، ثم تم تدوره فى بداية العصور الإسلامية وأصبح تلا خربا .

ونسب إلى عهد هذا الملك فى نهاية الفرن الميلادى الثانى إرسال بعثة إلى ملوك غسان والأزد ونزار ومذحج وهى من أقدم المرات التى ذكرت فيها أسماء هذه القبائل .

وفى أوائل هذا العصر أيضا ، خلال القرن الأول الميلادى ، ذكر فى الرحالة بلينى فى كتابه عن التاريخ الطبيعى أمرين متقابلين ، ذكر فى أولهما أن السفن التابعة للرومان كانت تخرج من برينيكى (قرب أسوان فى مصر على البحر الأحر) إلى ميناء أو كيليس على مضيق باب المندب، أو إلى قنأ فى منطقة الكندر دون توقف ، ومن هناك إلى الهند رأساً ودون وساطة العرب . ولكنه أضاف إلى ذلك أمر أ آخر وهو أن العرب ظلوا من أغنى الأمم لتدفق الروة من روما وبارثيا إليهم وتكدسها بين أيديهم. فهم يبيعون ما عصلون عليه من (تجارة) البحر ومن (إنتاج) غاباتهم فهم يبيعون ما عصلون عليه من (تجارة) البحر ومن (إنتاج) غاباتهم

ولا يشترون شيئاً في مقابله . وذكر أن السبأيي كانوا أعظم القيائل ثراء بما تنتجه غاماتهم من البخور . وما يملكونه من مناجم الذهب ، وما يوجد عندهم من الأراضي الزراعية ، وما ينتحونه من الحبوب والكروم والعسل . للخ .

وفى تصويره لمدى استهلاك العالم الخارحي لمنتجات جنوب سبه الجزيره ، روى لليني أن جنازة Poppaea فى روه اقلا استنفذت مايساوى الإنناج السنوى للعربية السعيدة . وروى أنه ترتب على از دياد استهلاك البخور والصموغ فى أيامه ، أن أصبح الصمخ بجمع مرتين فى العام دون أن يترك التجار الوقت الكافى لميقانه لكى تنضيج .

و هكذا يبدو أن تجار الإغريق والرومان وإن سيطروا على أعلب تجارة الهند في الحبيط الهندى والبحر الأحمر . فقد ظل العرب ينتفعون ببيعها ويقومون بنقل منتجاتهم الحاصة من البخور والصموغ ومشتقاتها بقوافل الإبل ويعملون على تصريفها ويجنون أرباحها . وهو أمر لم ينتفع به الجنوبيون وحدهم، وإنما انتفع به العرب الشهاليون أيضاً لفترات طويلة مما سنعود إلى ذكره فها بعد .

بل إن السفن الإغريقية والرومانية وإن عرفت الطريق البحرى القصير المباشر إلى الهند، إلا أنها ظلت تلجأ إلى الموانىء العربية من حين إلى آخر للاتجار معها مباشرة ، أو للراحة فيها والتزود منها بالماء والزاد خلال رحلاتها الطويلة إلى سواحل الهند وعودتها منها . بل وظلت تسمح لبعض السفن العربية بالاشتراك معها في التجارة ، ودلك مما يعني أنها لم تقاطعها عملة ولم تحرمها من التجارة حملة . وقد كان للحميريين على ساحل البحر الاحر وساحل البحر وساحل البحر فساحل البحر فساحل البحر فساحل البحر فساحل البحر فساحل البحر وساحل البحر وساحل البحر فساحل البحر وساحل البحر و ساحل الب

وأدن هذه الأوضاع إلى أن ورد فى كتاب الطواف حول البحسر الإربارى Periplus Maris Erythaci من حسديثه عن جمعنوب شبه الجزيره فى جوالى عام ٢٢٠ م ، ماسبق أن استشهدنا به منه عن ازدهار ميماء « قنا » الحضرمية ، وتجارتها الواسعة مع عمان وبارثيا والهند . وقد

ذكر نفس الأمر عن ميناء موزا (موشج أو المخا) فقال إنها ميناء عامرة دائماً بأصحاب السفن والملاحين العرب ، وفى شغل شاغل بشئون التجارة، ويتعامل أهلها مع الساحل البعيد (الأفريقي ؟) ومع بريجازا (فى حوض السند) ويرسلون سفنهم إليهما.

وهكذا احتفظ العرب بنشاطهم على الساحل الأفريقي ، لا سيا في منطقته المعروفة باسم رأس التوابل، وفي منطقة الصومال، وعلى ساحل الحبشة، وامتد نشاطهم إلى ميناء رهابتا (وقد تكون ربطة العربية) بجوار زنزبار ، وذكر مولف كتاب الطواف أن رهابتا هذه ظلت تعترف بالسيادة لأمير معافر الحميري « بحكم امتياز قديم أخضع ساحلها لنفوذ دولة قديمة في بلاد العرب (وهي دولة أوسان) وأن طائفة من تجار ميناء موزا الحميرية كانوا يعملون باسم أميرهم فيها ويسيطرون على تجارتها ويتزاوجون مع أهلها ».

وظل للعرب نشاطهم فى جزر البحر العرب (أو المحيط الهندى) القريبة منهم مثل جزيرة سوقطرى (دفيبا سخترا = ديوس كوريديس= الجزيرة السعيدة) . وذكر مؤلف الكتاب السابق أنها كانت تابعة لملك اللبان يعنى بذلك ملك حضرموت ، وأنه كان يسكن على ساحلها الشمالى تجار من العرب والهنود والإغريق .

وليس من شك في أنه لو توافر للمناطق العربية الجنوبية سلامها القديم عوضاً عن الاضطرابات التي مزقت شملها في هذه الفترة لاستطاعت أن تحقق أضعاف مااستشهدنا به من روايات المورخين والرحالة عنها ـ ولكن هذا الذي استشهدنا به كاف للدلالة على أنه كان لايزال بها من الإمكانات ما تستطيع أن تستعيد به أمجادها القديمة أو بعضها على أقل تقدير .

وإذا كانت مارب قد استنفذت جزءاً كبيراً من طاقها بعد كفاحها الطويل في سبيل البقاء ، فقد بقى على « ظفار » أن تقوم بدورها ، وقد مالت موازين القوى النسبية إلها بالفعل منذ النصف الثاني للقرن الثالث الميلادي ، وبجوارها قام حصن ريدان الملكي الذي نافس حصن سلحين السبأي المجاور لمأرب ، وقد اعتبر الاخباريون العرب الحصنين قصرين السبأي المجاور المأرب ، وقد اعتبر الاخباريون العرب الحصنين قصرين

وأشادوا بما فيهما من فخاءة وروعة ما وسعتهم الإشادة . وضموا إلى ذكر قصر ريدان قصرآ فخيا آخر ذكروه باسم « شوحطان » .

نهضة حمير وملكية سبأ وذوريدان وحضرموت ويمنة :

مهدت الفترة السابقة لسيادة أسرة حميرية ريدانية تنسب إلى إيل عز نوفان بهصدق . أو إلى ولده الأوسع شهرة منه « ياسر بهنعم » الثانى الذى حرف بعض الأخباريين إسمه إلى ناشر النعم اليعفرى . وذكر عبيد بن شرية أنه سمى كذلك واشتبر به لأنه استرجع ملك الحميريين وجمع الأمر لهم . ولما كان رأس أسرة جديدة أسرفت روايات هؤلاء الأخباريين (لاسيا ذوى الأصل اليمنى) فى ذكر مناقبه وفتوحه فروت أنه ضرب فى الشرق والغرب والبحر ، بنفاصيل نتجاوز عن ذكرها لعدم ثبوت شىء

وشاركه فى الحكم قبيل عام ٢٧٠ م ولده شمر يهرعش (الثابث). ثم انفرد بالحكم فى حوالى ٢٩١ ــ ٣١٦ م، وتوافرت له شهرة أوسع من شهرة أبيه ، واحتفظت له بعض الأساطير العربية بسمعة عريضة ، فاعتبرته أعقل من حكم ، وأطلقت عليه لقب تبع الأكبر ، واعتبرته فاتحاً عظيا امتد حكم فى زعمها إلى أرض بابل وفارس وسمرقند وأرمينيا والصين والتبت . . . إلخ وعلى الرغم من وضوح عنصر الهويل فيا ادعته هذه الأساطير ، فإنه يبدو أنها اعتمدت على نصيب متواضع من الواقع وضخمته باسم القومية فى عصر نشطت فيه قوى خارجية من الفرس والروم والحبشة لتوجيه مصائر الأمة العربية

فقد حاول شمر بهر عس الثالث أن يحقق الوحدة السياسية لجنوب شبه الجزيرة وأن يزيد من إمكاناته ويوسع من حدوده واتصالاته . فاستولت جيوشه على أجزاء متسعة من دولة حضرموت وتوابعها وإن لم يقض تماماً عليها وبقيت تجاهد في سبيل البقاء لفترة قصيرة . وتغلبت جيوشه على أقاليم من تهامة واتسعت في وسط شبه الجزيرة وشمالا في أرض سهرة وعك، وربما غزت سواحل الحبشة أو على الأقل ضيقت على مصالح الأحباش في تجارة

البحر الأحمر ، وبلغت إتصالاته الدبلوماسية إلى قطوسف وكوك وختمل محودهما قرب المدائن بين العراق وفارس .

وفي نفس العهد الذي حقق فيه عرب الجنوب بهضتهم على يدى شمر رعش الثالث ، كان لعرب الشمال بهضة أخرى لا تقل قيمة عنها على يدى امرىء الفيس بن عمرو التنوخي المتوفي عام ٣٢٨ م ، وسوف بتناول تناصيل نص امرىء القيس المشهور هذا فيا بعد . وتكفي الإشارة هنا إلى ماذكره من أنه أحرز نجاحاً في حصار نجران مدينة شمر (بهرعش) ، أن الخاضعة له . وأنه شتت قبائل مذحج . وكان شمر بهرعش قد احتضن قائل مذحج . وكان شمر بهرعش قد احتضن قائل مذحج عده ، ومنها كندة ، واستعان بها في مهاجمة مناطق التنوخيين قيم منافسه امرىء القيس أو أنصاره على الخليج العربي ، كما وجه نشاطه من صعدة إلى أرض مالك بن كعب ملك أزد السراة .

وشجعت هذه الانتصارات المتوالية شمر يهرعش الثالث على أن يزيد في ألقاب ملكيته ألقابا أخرى ، فاتخذ لقب « ملك سبأ و ذوريدان وحضرموت ويمنة » حول أواخر القرن الثالث الميلادى ، وكانت يمنة (أويمانة) فيما يحتمل وأشرنا من قبل هي الجزء الجنوب من دولة حضرموت . وكان الرجل مصلحاً إلى جانب كونه محارباً ، فبقي من أيامه مص ينظم بيع الرقيق والماشية ، ويحدد المدة التي يكون البائع مسئولا فيها عن الحيوان الذي باعه إذا هلك بسبعة أيام . ويبدو أن هذا النص كان جزءاً من تشريع متكامل صدر في أيامه .

ومرة أخرى ارتبطت هذه المبصة الحميرية الكبيرة بشخصية شمر بهرعش الثالث (ومن قبله بشخصية أبيه) قبل أى شيء آخر ، خيث أن بعض أقاليم دولته فى حضرموت وفى تهامة ، حاولت الانسلاخ عنها فى أواخر أيامه أى عندما شاخ عهده . وربما ردها إلى طاعته ولكن إلى حين .

وتجددت المشكلات في عهود خلفائه الأقربين ولم ينجحوا في غير

إخضاع حضرموت التي استنفذت قواها ، أما الأطراف الغربية لدولتهم فاكتنف الغموض مصبرها .

فقد ورد في ألقاب ملك الحبشة « عيزانا » الذي يرى بعض الباحثين أنه عاصر خلفاء شمر بهرعش المباشرين منذ حوالى عام ٣٢٥م – أنه « ملك أكسوم وحمير وريدان وحبشة وسبأ وسلحين وصيامو وبجه وكاسوملك الملوك ويبدو أن سيطرته على حمير وسبأ اللتين أوردهما لقبه بعد عاصمته أكسوم كانت سيطرة مفتعلة أراد أن يمهد بذكرها لمرحلة مقبلة بعد أن أصبحت دولة سبأ و دوريدان في نظره لقدة سامخة طحنتها مشكلاتها الداخية . ولا يستغرب مثل هذا الأمل المفتعل إذا ما قورن بما حدث بعد كثير من القرون حين أمر الامراطور بابليون بسك نوط تذكارى باسمه تمجيدا لفتحه الجزر البريطانية . وهو أمر لم يتم وبقى النوط تذكارا لأمل لم يتحقن .

ولم يقتصر هدف «عيزانا» من هذا اللقب على مجرد الأمل في السيطرة على بلاد الجنوب العرف وما يصل إليها من متاجر ، بل كانت وراءه ملابسات أخرى، فقد سمح الامبراطور البيزنطى قسطنطين الأكبر بانتشار المسيحية في دولته ابتداء من عام ٢١١٩م، ثم أصبحت دينا رسميا للامبراطورية في عام ٢٠١٥م. والجهت بعثات بيزنطة في عهده إلى الحبشة وما نجاور هالمتبشير بالمسيحية والخاذ الدين مدخلا إلى عقد المحالفات السياسية والاتفاقيات الاقتصادية . ونجحت هذه البعتات من ناحيتها الدينية في إطلاق حرية العبادة المسيحيين من التجار الأغراب ومن تنصروا من رجال البلاط وأهل البلاد الى دخلتها المسيحية . ويبدو أن عيزانا ملك الحبشة قد سايرها على الرعم من أن اليودية كانت قد سبقت المسيحية إلى بلاده منذ قرون واكنها ظلن من أن اليودية كانت قد سبقت المسيحية إلى بلاده منذ قرون واكنها ظلن للمسيحية وفي لقبه الذي ادعى فيه سيطرته على سبأ وحمير كان يعمل على أن تكون له الصدارة في تمثيل البلاد الوافعة على جانبي السواحل الجنوبية للبحر تكون له الصدارة في تمثيل البلاد الوافعة على جانبي السواحل الجنوبية للبحر المام حديفته الدولة البرنطية القوية حامية المسيحية في الشرق ووربيه الرومان في السيطرة على سياسته وبجارته .

على أن الجدير بالذكر هو أنه إذا كان ملك الحبشة هذا أو خلفاؤه قد ودوا أن تكون لهم البد العليا على المناطق العربية الجنوبية . فقد أسلفنا من قبل أن هجرات عربية جنوبية قديمة كانت قد آثبتت وجودها وتأثيراتها في الحبشة ، عن طريق استخدام اللغة العربية الجنوبية في نصوصها إلى جانب اللغة الأفرينية . أو مختلطة بها، وكتابة هذه النصوص خروف المسند العربية وعن طريق النشاط الاقتصادى الذي جعل لطوائفهم البي عرفت باسم الجعزيين «أى الأحرار منزلة مرهوقة ومكانة سياسية كبيرة في الحبشة ، معامتداد نفوذهم على أجزاء مفرقة من الساحل الافريقي .

وعلى أية حال فما لبثت دولة أكسوء أن اضطربت أحوالها مى أرضها الأفريقية فانشعلت بنفسها .

وبقيت ملكية ، سبأ و ذوريدان وحضر موت ويمند ، العربية قائمة تجاهد في سبيل الاستمرار . ومن أعمال ملوكها إصلاح سد مأرب ثلاث مرات . وفي أولاها أصلح الجزء الأوسط منه عند تهدمه للدرة الثانبة المعروفة بعد عام ٣٦٠ م .

وتمرز من ملوك العصر « أب كرب أسعد » الذي مارس الحكم نحوستان عاما منذ أن اشترك مع أبيه بطفلا . و مندما استمل بالحكم أشرك معه ولده حسان بهم في حوالي عام ٠٠٤م . وأثرت له جهود لتوطيد الأمن في دولته والسيطرة على طرق القوافل المتجهة إلى الشهال . فكانت له حرو مس في منطقة معد . ولعلها امتدت أيضاً في بواحي الحبجاز من ناحية ، وحتى الربع الحالى في أو اسعل شبه الجزيرة من ناحية أنحرى . وكانت قبيلة كندة من أعوانه . وشجعه نحاحه على أن يزيد في ألقابه الملكمة عبارد أكا، في السلطانه على بدو المرتفعات والدراري ، فأصبع « ملك سباً ودوريا ان وحضرموت و عنت وأعرب طودم و بهت " أني وأعراب الجبل و بهامه وخصرموت و عنت وأعرب طودم و بهت " أني وأعراب الجبل و بهامه بذكراه وذكر و د باسم أسعد تهع و قسبوا إليه فتوحات واسعة كما أشادها بقصوره أو حد نه في بن ظفار وبين سنعاء .

وأصلح سد مأرب ثانية فى عام ٤٤٩ م فى عهد الملك شرحبيل يعفور، وزيدت قنواته ودعمت جسوره، ولكن انهار جانب من سد رحب ثانية بعد عملية إصلاحه بعام واحد وأدى ذلك إلى هلع السكان وفرارهم إلى الجبال خوفا من طغيان السيول، فأصلح مرة أخرى فى عام ٢٥١م وقيل إنه اشترك فى إصلاحه نحو ٢٠ ألف رجل.

وارتبطت أهم أحداث العصر في الجنوب العربي الذي سوف نعبر عنه فيا يلى باسم التمن وهو الاسم الشائع في المصادر العربية، بالتطورات الدينية وما ترتب علمها من نتائج حضارية وسياسية :

فقد سلكت الهودية سبيلها إلى اليمن في عهود غير معروفة ود بعض الكتاب (ومن الهود بخاصة) أن يرجعوا بها إلى زمن بعيد فربطوا بينها وبين عهد تخريب الرومان لبيت المقدس في عهد فسباسيانوس وتيتوس في عام وبين عهد تخريب الرومان لبيت المقدس في عهد فسباسيانوس وتيتوس في عام وانزووا في جاليات صغيرة على الطريق التجارى المتجه إلى الجنوب حتى اليمن . والواقع أنه ليس من سند لإرجاع هجراتهم إلى بلاد العرب إلى مثل هذا الزمن البعيد الذي رددته بعض الكتب التاريخية دون تمحيص حيث لم يظهر لعقيدتهم أثر في النقوش العربية الجنوبية أو الشالية إلا منذ القرن الرابع أو الجامس الميلاديين . وليس من المستبعد أن بعضهم تسلل إلى التين عن طريق فارس التي احتضنهم نكاية في البيزنطين المسيحيين الذين كانوا يكرهونهم . ولأمر ما ربط بعض الأخباريين (ومن ذوى الأصل العبرى أيضاً) بين الملك أب كرب أسعد وبين يهود يترب ، مرة بدخولهم إلها في عهده ، ومرة برحاته إليها وتهوده : ومرة بامتذاد نفوذه إليها وتعيين أحد عهده ، ومرة برحاته إليها وتهوده : ومرة بامتذاد نفوذه إليها وتعيين أحد أو لاده عليها حيث قتل بعد رحيله عنها . . . إلخ .

وسلكت المبيحية سبيلها إلى البن عن أكثر من طريق ، فالكته أو لا عن طريق البنات التبشيرية . ويبدر أن الدولة البنز نطية حينًا وجدت الحبشة الداخلية عما أداء فيا من نشر الما يمجه مها تبعما إلى أداء فيا من نشر الما يمجه مها تبعما إلى أداء في أداء المحمرية وأسا . وكان من ودرا

المبشرين الأواثل تيوفيلوس الهندى فى منتصف القرن الرابع الميلادى . ويروى التاريخ الكنسى أنه نجع فى تنصير الملك الحميرى المعاصرله . ولم يكن تنصير الملك ، إن صع ، هو بيت القصيد . وإنما يبدو أن بيزنطة أرادت أن تضمن لها أفصارا باسم الدين للوقوف فى وجه انطلاق نفوذ الفرس المحتمل فى شبه الجزيرة العربية وما يتصل بها عبر الخليج العربى وعمان. وهكذا انجهت البعتات التبشيرية البيزنطية إلى جزيرة سوقطرى وميناء هرمز أيضاً .

وسلكت المسيحية طريقها إلى الجنوب العربي كذلك عن طريق تجار الشام المسيحيين الذين تعاملوا مع أهله ، وربما سلكته كذلك عن طريق تجار الحبشة المسيحيين . وبعض أهل الحيرة أيضا على الرعم من اختلاف مذهبهم المسيحي عن المذهب الذي أيخذ به صارى النمن .

على أنه مهما كان من أمر المسيحية واليهودية في اليمن . فقد ظل أتباعها قلة قليلة . وظلت غالبية أهل الجنوب العربي على عفائدهم الوضعية القديمة وان حاولوا أن يوسعوا آفاقهم الدينية من نلقاء أنفسهم تارة وتنيجة لاتصالهم بأصحاب الديانتين اليهودية والمسيحية تارة آخرى . وهكذا ورد في نص الملك شرحبيل يعنورعن إصلاح سد مأرب عبارة تقول ما يمكن ترجمته إلى البنصر وعون الإله سيد السهاء والأرض الاوذلك مما يعني تقديس معبود اكر يشمل سلطانه السهاء والأرض ولايفتصر سلطانه على إفليم بعينه أو مطهر معن . ووردت في نص عبد كلال عبارة تقول البردا رحمن الى بعون الرحمن التاريخ الكنسي أنه كان بين الحسريين ابراهيديون عارضوا ثيوفيلوس المبشر المسيحي . غير أن أمثال هذه الفلتات القليلة لم تقض على عقائد التعدد المقدعة فظلت هي الغالبة

وتنافست الديانات الثلاث، وكان الأكر تنافسا أنصار الديانتين الجديدتين أى اليهودية والنصرانية. وفى خلال هذا التنافس اشتد أحد الملوك الحميريين الأواخر وهو يوسف أسأر يثار الملقب « ذو نواس » فى معاملة التجار المسيحيين والأشاعرة حلفاء الأحباش لسبب مايرده البعض

المحض الآخر إلى ربطه بين انتشار المسيحيين فى بلده وبين احمال انتشار النفود المجيض الآخر إلى ربطه بين انتشار المسيحيين فى بلده وبين احمال انتشار النفود الحبيثي المسيحي عن طريقهم لاسيا وأن مهم من كانوا على صلة ببلاط المحبيثة فعلا . وترقب على هذه الشدة أن قل تعامل التجار البيز نطيين مع الموانىء العربية والموانىء الأفريقية القريبة منها . واستنصر المسيحيون بعضهم بعضا . وناشدوا امير اطور بيز نطة أن يتدخل لمعاونتهم على ملك الحبشة بين بيز قطة وبين اليمن كانت بعيدة ، فوقع عبء معاونتهم على ملك الحبشة بين حكاليب أل أصبحا ، حليف البيز نطيين ، ووجدت دعوة الاستنصار هذه هوى الكاليب أل أصبحا ، حليف البيز نطيين ، ووجدت دعوة الاستنصار هذه هوى بلاده قد تأثرت إلى حد ما من اضطراب أمور التجارة البيز نطية فى جنوب بالمحر الأحمر .

وقيل إن كاليب كان على رأس الحملة على البمن أو أشرف على الأقل على إعدادها في ميناء عدولي الذي أبحرت منه عبر باب المندب في فترة ما تقع بين ٥٢٠م و ٢٣٥م . ونجحت الحملة في غرضها . وفر ذو نواس إلى منطقة جبلية ببعض أعوانه . وأعلن الملك الحبشي سيادته على ظفار وعنن علمها واليا حبشيا . وعندما توفى هذا الوالى استغل ذو نواس فرصته فأعاد تجميع أنصاره واستعاد ظفار وانتقم ممن فيها من الأحباش وأجلى بقيتهم عن بلاده ثم رد الصاع صاعين . فترك الهود يفتكون عن شاءوا من منافسهم المسيحيين . ووجه انتقامه إلى نجران أكبر مراكز تجمع المسيحين فراسل ز عثيمها (الحارث ؟) ليتصل به . ولكن الرجل تخوف غدره فتحصن بمدينته . وشدد ذو نواس حصار نجران وقيل إنه وعد أهلها الأمان إن أستسلموا له . فلما طال المطال عليهم فتحوا له أبواب مدينتهم فكان انتقامه هو وأعوانه منهم على نحو ماذكر القرآن الكريم في سورة البروج (٤-٩) إذ يقول : (قتل أصحاب الأخدود . النار ذات الوقود . إذ هم علمها قعو د . وهم على مايفعلون بالمؤمنين شهود . ومانقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد . الذي له ملك السموات والأرض . والله على كل شيى ء شهيد) .

(م ? - تاريخ شبه الجزيرة العربية)

وأراد ذونواس أن يتخذ له سندا لو تأزمت الأمور ضده فكتب إلى ملك الحيرة المنذر الثالث يود أن يحالفه أو يجعل له سبيلا إلى محالفة الفرس . ونصادف أن كان في مجلس المنذر وقتتذ وفد من قساوسة الروم فأشاعوا أن فا نواس دعا المنذر في رسالته إلى آن يفتك بمسيحيي الحيرة كما فتك خو بمسيحيي مجران .

وثارت ثائرة العالم المسيحي، وأراد الملك الحبشي أن ينتقم لمسا أصاب رجاله فعاود الحملة على النين بجيش كثيث. وانتصر جيشه بعد جهد جهيد . وقتل ذو نواس أو فر وغرق كما روت بعض المصادر العربية .

وسمب الاحتلال الحبشى الأخير لليمن في عام ٢٥٥م ما يصحب كل احتلال أجنبى من ضروب القتل والتدمير والنهب والأسرالي أفاضت المصادر الإسلامية في تصوير بشاعتها . ويبدو أن مقاومة الحميريين للغزاة قد استمرت لبعض الوقت . إذ يذكر حمزة الأصفهاني (في تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء) أنه اعقب ذا نواس ولده ذو جدن ولكنه لقى نفس مصيره . ولعله من جراء هذه المقاومة أن عمل نجاشي الحبشة على أن يوطد احتلاله لبلاد اليمن بما يحدر أهلها فعين على حكمهم تحت طاعته رجلا من سادتهم يدعى « سميفع أشوع » كان من كبار أعوان ذي نواس ، وبعد مقتله يحصن هو بأولاده في حصنه وجمع حوله بعض خلفائه ، ثم تهين عقم المقاومة أو استجاب لدعوة الأحباش فهادنهم وربما تنصر حينذاك واتخذ اسمه المسيحي الصبغة الذي سبق ذكره . وقدنسب إليه نص عربي تلقب فيه بلقب « ملك سبأ » وذكر إيمانه بالمسيح الذي أورد اسمه بصيغة لاتينية فيه بلقب « ملك سبأ » وذكر إيمانه بالمسيح الذي أورد اسمه بصيغة لاتينية فيه بلقب « ملك سبأ » وذكر إيمانه بالمسيح الذي أورد اسمه بصيغة لاتينية فيه بلقب « مل إثبات تبعيته لنجاشي أكسوم .

وازدادن أعداد الكنائس الكبيرة في اليمن منذ ذلك الحين . وكانت كبراها كنيسة في نجران سماها أتباعها كعبة نجران وكعبة اليمن وكان لهاسرادق من أدم . وأخرى في ظفار أقام فيها كبار قساوسة اليمن ، وكنيسة ثالثة في عدن إلخ .

والتفتت الدولتان الكبرتان دولة الروم ودولة الفرس إلى هذامالمجال لصالحهما،وكانت كلمنهما قد فرغت من مشكلاتها التى شغلتها فى أغلب القرن الحامس الميلادى حين تدفقت هجرات الهون على أملاك فارس، وتدفقت هجرات المجرات الجرمان على أملاك بيزنطة.

وبدأ الامبراطور البيزنطى بمحاولة استغلال رؤساء مسيحيى الحبشة واليمن . وقيل إنه طلب من نجاشى الحبشة ومن والى اليمن أن يجعلا قضية المسيحيين قضية واحدة وأن يتعاونا مع دولته فى التضييق على الفرس . وأوصى الحاكم اليمنى على شيخ عربى قصد بلاطه يدعى قيس (أويلى زعامة قبيلة قيس) وأن يجعله رئيسا على قبائل معد وأن يتعاون معه على مهاجمة مصالح الفرس ، ولكن يبدو أن أحدا من هولاء لم يستجب له .

وسواء مات الوالى سميفع ميتة طبيعية أم قتل : فقد عمل الأحباش على أن يُحكموا بلاد اليمن بعده حكما مباشرا بعد أن رضخ أهلها لحكم الواقع . فعينوا عليها حاكما حبشيا لعله كان القائد الأعلى لجيش الاحتلال ، ولكن قائدا من أعوانه مالبث حتى انقلب عليه واغتصب مكانه فى ولاية اليمن ، وهو الوالى الذى ذكرته المصادر العربية باسم أبرهة (أو إل إبرهة) .وحاول النجاشي إقصاءه ففشل ، وعندما خلفه نجاشي آخر أرضاه أبرهة فأقره على ولاية ملك سبأ العريض تحت طاعته . وهنا انتحل أبرهة اللقب السبأى الضخم مملك سبأوذوريدان وحضرموت وأعرابها فى الجبل وتهامة » مع اعترافه بنيابته أو تهميته لسيده ملك الجعزيين « رمحس زبيان ». ويبدو أن رمحس أو بنيابته أو تهميته لسيده ملك الجعزيين « رمحس زبيان ». ويبدو أن رمحس أو ماحس هذه تعنى الشجاع . كما كان زبيمن لقبا من ألقاب الحكام في الحاشة .

واتخذ أبرهه صنعاء عاصمه . وشيدت فيها خلال عهده كنيسة ضخمة ذكرها الأخباريون باسم « القليس » تحريفا عن كلمة Ecclesic بمعنى المجمع الكاسى . وشيدت كنيسة نسخسة أخرى في مأرب . وروب المصادر العربية أن نفائس المعابد القديمة ومجهودات اليمنيين قد سخرت من أجل إخراج هاتين الكنيستين في فخامة كبيرة .

بيدو أن عرب الجنوب لم يسلموا بحكم أبرهه بسهولة ، إذ تحدثت بعض .

نصوصه عن انقلاب والى كندة يزيد بن كبشة ضده وتعاونه مع أبناء سميفع أشوع الوالى السابق وعدد من بقايا الأسر النبيلة القديمة وبعض قبائلهم ومنها قبيلة يزن التي انتسب إلها فيا معد سيف بن ذى يزن . وهزم أبرهة بجيشه هوً لاء الأحلاف بعد جهد جهيد . ثم سنحت له فرصته لكي يظهر بمظهر الحاكم المصلح . فقد زاد تصدع سد مأرب بعد فترات الإهمال والاضطرابُ المتعاقبة . فعمل على إصلاحه فى عامى ٥٤٣ و ٥٤٣ م . وقد أسلفنا فى الفصل الرابع ذكر بعض الجهود الضخمة التى أنفقت فيه حينذاك ، وأنه حضر حفل إعادة افتتاحه مندوبون من دول الحبشة والروم والفرس والغساسنة والمنادرة . مما يعني أن أبرهة استطاع أن يوفر لنفسه شهرة كبيرة تعدت حدود اليمن . ولعل هذه الشهرة كانت من العوامل الني خدعته عن نفسه وحقيفة قوته ودفعته إلى غزو مكة ومحاولة هدم الكعبة . سواء باسم التعصب الديني للمسيحية . أم لاستعادة السيطرة على الطريق التجارى الرئيسي الذي كانت مكة قد حققت لنفسها مكانة كبرة فيه ، أم استجابة لدعوة الروم القديمة بإحكام الخناق على المصالح التجاريةالفارسية عن طريق ربط الدولة المسبحية الجديدة في النمن بالدولة الغسانية المسيحية فى جنوب الشام وكلتاهما من أولياء بمزنطة .

وقد أثبت القرآن الكريم في سورة الفيل نتيجة هذه المحاولة الفاشلة . وكان نتفسير الزمخشرى والطبرى أنه ترتب على مارمته الطبر الأبابيل على جيوش أبرهة أن تفشى بينهم وباء لعله الجدرى الذي روى ابن هشام وابن سعد وابن منبه أنه عرف أول ما عرف بأرض العرب في عام الفيل . وعوضا عما كان أبرهة يأمل فيه من إضعاف مكة ، أصبحت هزيمته فيها من عوامل از دياد شهرتها . وربما عاد هو إلى بلده بقلة قليلة بقيت من جنوده . وعندما هلك خلفه ولداه . ولد من أم حبشية كان قد ولاه من قبل على قبائل معافر . وذكره الاخباريون باسم يكسوم ، وولد من أم عربية ذكروه باسم مسروق وكان أبوه قد ولاه من قبل أيضاً على قبائل شناتر . وكان كل منهما شرا من أخيه فضاق الناس بهما و تمنوا تحرير أرضهم من حكمهما .

وتزعم حركة تحرير اليمن سيف بن ذي يزن الذي خلدت الروايات والأساطير الشعبية ذكره . ولكنه لم يستطع بأعوانه أن يناهضها الغزاة الأغراب أو المهجنين بدون عون خارجي ، ربما لأن هوُلاء الغزاة كانوا قد حرموا المواطنة من السلاح أو أشاعوا الفرقة بيهم. و لعل ماروته الأساطير من اضطرار ذي يزن إنى الاستعانة بالسحر والجن . وابتلاثه بأم انضمت إلى من اغتصب عرش أبيه . وكترة مالاقاه من مصاعب وعقبات في تنقله وترحاله ــ كل ذلك كان يرمز إلى المشكلات التي واجهتها دعوته التحررية في مجتمعه وخارج بلده . وقد روت المصادر العربية أن سيفا قصد بلاد الروم واستنجد بالاميراطور (جوستين الثاني) ولكنه لم جد لديه استعداداً لمعاونته ضد دولة مسيحية حليفة . فتركه إلى ملك الحبرة العرني ليتوسط له لدى ملك الفرس أعداء الروم وأعداء المسيحية . هاستجاب له بعد لأى عسى أن نجد سبيلا عن طريفه إلى السيطره على بلاد اليمن وحرمان بـز نطة من امتيازاتها السياسية والاقتصادية فـها . ولكنه لم يكن مطمئناً كثيراً إلى إمكان نجاح المحاولة حيث روت المصادر العربية أنه أعانه بفرق قليلة تألف أغلبها من الأفاقين المحرمين تحت رئاسة قائد فارسى يدعى وهرز . وخرجت الحملة في ثمان سفن غرقت اثنتان منها ووصلت الست الباقية إلى عدن أو إلى ميناء قنأ في حضرموت وهناك ضم سينب أنصاره إليهم وانتصر بهم على جيوش ابن أبرهة (ولعله المسمى مسروق) في حوالي عام ٥٧٥م .

و كالعادة ، لم يكن العون العسكرى الأجنب بغير تمن يقابله ، فقد حكم سيف بن ذى يزن اليمن تحت طاعة الفرس . كما حكمها من قبل سميفع أشوع تحت طاعة الحبشة . وأضافت الروايات العربية أنه لتي مصرعه بعد ذلك على أيدى جماعة من الأحباش ، سوا ، بدافع من كراهيتهم الشخصية له . أو بدافع من تحريض الفرس أنفسهم . وقال أو بدافع من تحريض الفرس أنفسهم . وقال كان عهد ولده معد يكرب الذى خافه تحت طاعة الفرس . فها يذكر المسعودى ، عهداً قصيراً . وحكم الفرس اليمن بعد ذلك حكم أمباشراً ، كما فعل الأحباش من قبل ، بعد أن اطمأنوا إلى تسليم السكان بالأمر الواقع .

فولوا حاكما فارسياً فى ظفار، وإن تركوا المحاليف فى أيدى الأمرا، الوطنيس. وهنا توفر للفرس مالم يكونوا خامون به من السيطرة على محارج التجارة البرية والبحرية من بلاد البمن وإليها عن طريق البحر الأحمر والمحيط العربي (الهندى)، وعلى الطرق البرية المؤدية إلى الحليج والعراق من ناحية وإلى الشام ومصر من ناحية أخرى، إلى جانب ماكانوا يسيطرون عليه من نجارة الحليج العربي. وتتابع على حكم اليمن ثلاثة أو أربعة من ولاة الفرس كان آخرهم باذان الذى أسلم فى عهدالرسول عليه السلام ودخلت بلاد اليمن بعده فى الإسلام فى عام ٢٦٨م. وانتهى دور المناطق الجنوبية أو «العربية السعيدة» محمور ماقبل الإسلام عند هذا الحد، ببنا لسعيدة » Arabin Felix ئى عصور ماقبل الإسلام عند هذا الحد، ببنا نتبعه فى فضول تالية فى شبه الجزيرة تعاصرها فى المسيرة، وهو ماسوف نتبعه فى فضول تالية .

* * *

من المؤلفات المختارة في دراسات الفصل :

Beeston, A.F.L., Qahtan, Studies in Old South Arabian Epigraphy, 1976. Philby, op. cit., 87—121.

Pirenne, J.. Recueil des inscriptions et antiquites sud-asrabes, 1977.

Ryckmans, G., in Museon, 1942; BSOAS, 1952.

Ryckmans, J., in Accademia Nationale dei Lincei 62, Roma 1964, 434-439 Shahid, I., The Martyrs of Najran, 1971.

Wissmann, H.V., Zur Geschichte und Landeskunde von alt-Sudarabien, 1964.

Wissmann, H. V. und Hofner, M., Beitrage zur Historischen Geographie des Vorislamischen Sudarabien, 1953.

عافقيه ، وبيبستون ، وروبان ، والغول ؛ محتارات من النقوش اليمنية القديمة – تونس ه ١٩٨٠ . جُواد على ؛ المرجع السابق ، ج ٢ .

مطهر على الأرباني : في ناريح اليمن - القاهرة ١٩٧٢ .

أنجلة العرب ، انسنة الحامسة - بناير ١٩٧١ - س ٤٠١ - ٢٤ .

الفصل كادغيشر

مناطق الأطراف العربية

أولا - في المصادر المسمارية

توزعت مناطق التجمع والتحضر القديمة في الأجزاء الوسطى والشمالية من شبه الجزيرة العربية بشرقها وغراء على نحو ماتوزعت به في الجنوب خت ، تأثير عدد من العوامل الاقتصادية والعوامل الجغرافية ، فانتشر أغليا حول الطرق التجارية الرئيسية الواصلة بين أجزاء شبه الجزيزة والمؤدية منها إلى البلاد المحاورة ، كما انتشر بعضها على مناطق الحواف بين أطراف الصحواء وبين حدود دول الهلال الحصيب القريبة منها ، فضلا عن انتشارها الداخلي في الواحات والنجوع والقرى حول العيون والآبار والنهرات الصغيرة وفي مناطق الحرات

وانصرفت تسمية « عرب » التي تداولتها نصوص التاريخ القديم على العرب الشماليين أكثر منها على العرب الجنربيين ، كما انصرفت للدلالة على أعراب البادية أكثر منها على أهل الحواضر . و ذلك على الرغم ثما تناقلته أغلب مولدات الأخباريين من تسمية أهل الجنوب باسم « العرب العاربة » وتسمية أهل الشمال باسم « العرب المستعربة »

(أ) فى العصر الأشورى :

اقسع المحال العربي في عصوره القدعة لما كان يتعدى شبه الجزيرة إلى قرب بوادى الشام والعراق وسيناء أيضاً وبهذا المعنى الواسع ورد أقدم لفظ مكتوب موكد لتسمية «العرب» في النصوص المسارية الأشورية خلال القرن التاسع قبل الميلاد على تحوماسلف ذكره في مقدمة هذا الكتاب ولايعنى وروده في هذا القرن بداية ظهوره أو بداية ظهور العرب محال من الأحوال في فصول سابقة ونتناول بعضها الآخر في

مناسبات تالية ، تدل على قدم وجود العرب خصائصهم وخصائص لغتهم منذ عهود سبقته بآماد طويلة. ومن الباحثين من ختمل ورود تعبير قريب من تعبير « العرب » في نص مسمارى من عهد نارام سين الملك السامى الأكدى خلال القرن الثالث والعشرين ق . م . وإن كانت قراءته لاتزال موضعاً للجدل .

وكان التوسع الأشورى قد امتد في القرن التاسع ق . م . إلى بوادى الشام وضغط على مافي جنوبها من مناطق التجمعات العربية . وحاولت دويلات المنطقة أن تقف في وجه تقدمه بتكوين حلف كبير بزعامة إمارة دمشق وما حولها . وهنا ذكرت نصوص شاما نصر الثالث الملك الأشورى في عام ١٥٨ق. م . أنه انضم إلى هذا الحلف فيمن انضموا إليه ألف راكب على من (رجال) حنديبو أريبي (أو الأريبي) . ويعتبر لفظ جنديبو تحريفاً لاسم جندب (أو جندبه) . كما يعتبر لفظ أريبي تحريفاً لصفة العربية أو يتردد مها على البادية الواقعة إلى الجنوب الشرق من دمشق . وإذا العربية أو يتردد مها على البادية الواقعة إلى الجنوب الشرق من دمشق . وإذا صحح أنه اشترك في الحرب ضد الأشوريين بألف راكب حمل فعلا لدل فلك على سعة نفوذه و كثرة رجاله قياساً على إمكانات عصره .

وتعددت إشارات النصوص الأشورية بعد ذلك إلى الجماعات العربية القريبة من دولتها والواقعة على طرق التجارة الواصلة إليها . ورددت القول بانتصارات ملو كها العراقيين (وجيوشهم) على هذه الجماعات وتلقى الجزى منها . وهي أخبار تحتمل الصدق كما تحتمل الشك . فيحتمل صدق بعضها على أساس عدم تعادل كفتى الفريقين من حيث العدد والعدة ومن حيث وفرة الموارد . ولكن يتعين الشك في بعضها الآخر على أساس أنها أخبار تواترت من جانب واحد وهو الجانب الأشوري الذي سجل انتصارات أصحابه دون هزائمهم . وجلى أنه لو كان خصومه من العرب الشهاليين قد استخدموا الكتابة حينذاك وسجلوا بها أخبارهم ، لأمكن مقارنة أخبار المنتخدموا الكتابة حينذاك وسجلوا بها أخبارهم ، لأمكن مقارنة أخبار المنتخدموا الكتابة وعلى أنه لو على أنه هو أقرب إلى الصحة . وعلى أنه المنتخدموا الكتابة وعلى المنتخدموا المنتخدموا المنتخدموا الكتابة وعلى المنتخدموا الكتابة وعلى المنتخدموا الكتابة وعلى المنتخدموا الكتابة والخروج منهما عما هو أقرب إلى الصحة . وعلى أنه المنتخدموا الكتابة وعلى المنتخدموا الكتابة والحروج منهما عما هو أقرب إلى الصحة . وعلى أنه المنتخدموا الكتابة وعلى المنتخدموا الكتابة والحدود والحدود والحدود والحروب منهما عما هو أقرب إلى الصحة . وعلى أية

حال فإن ماذكرته النصوص الأشورية نفسها عن تعدد حروب الجانبين يدل ضمناً على استمرار مقاومة القبائل العربية التي اعتمدت على مهارتها في الكر والفر وقتال الصحراء . ووعورة مناطقها ، وعملها على مضايقة خصومها عن طريق تهديد قوافل تجارتهم . واستطاعت على الرغم من قلتها النسبية أن تسجل صفحات محيدة في الدفاع عن أرضها واستقلالها .

ذكرت النصوص المسارية الأشورية آساء ممالك وقبائل عدة مثل سبأ وقيدرى وتيماء ومصورى وتمودى وخايابا ومساء . . . النخ . و كان أهم ماتضمنته فيا نكتفى به مو قتاً و فيا يفيد التاريخ العربى العام هو أنها ذكرت أسماء خمس ملكات عربيات على أقل تقدير حكمن فى جهة ما من شمال شبه الجزيرة العربية فيا بين أو اسط القرن الثامن ق م ، وبين أو اسط القرن السابع ق . م و لم تحدد مكان دولتهن صراحة . ولكنها ذكرت خلال الحديث عنهن أحياناً اسم « أداو ماتو » و ذلك مما دفع إلى احتمال حكمهن فى دومة الجندل أو بقربها فى منطقة الجوف الشمالى ، كما نسبت إلى إحداهن كهانة معبودتها الكبرى دلبات ، و ذلك مما قد يعنى بدورة أن حكمهن اعتمد على بقاليد دينية جعلت رياسة الكهنوت لكبريات نساء الأسرة المالكة وسمحت لهن بوراثة الحكم واحدة بعد أخرى أو بنتاً بعد أمها .

و هكذا أشارت النصوص المسهارية في القرن الثامن ق . م . إلى ملكتن عربيتن أطلقت على كل مهما لقب ملكة أربيى . وذكرت أقدمهما باسم « زبيبي » (تحريفاً عن زبيبة) وأضافت أنها اعترفت بالطاعة لدولة أشور وأدت الجزية إلى ملكها . وذكرت الثانية باسم « سمسي » (تحريفاً عن شمس) في مناسبتين : مناسبة أدت الجزية فيها إلى الملك الأشوري كسابقتها، ومناسبة أخرى خلعت فيها هذه الطاعة وساعدت البدو الآراميين أعداء الأشوريين . وتركت رجالها يهدون القوافل الأشورية ، فحاربها القوات الأشورية وخربت بلدتين في أرضها وأجبرتها على الطاعة، ثم عين الملك الأشوري مندوباً له في عاصمتها يتلقب بلقب « قيبي » أي قيم كي الملك الأشوري مندوباً إليه عن أمرها .

ولم يكتف الأشوريون بأن يسجلوا نصرهم على قوم شمس كتابة فقط ،

وإنما أسرفوا في تصويره بما أشبع كبرياءهم ، وبقى منه مايصور فارسين أشوريين على جوادين يلاحقان برمحيهما محاربا عربيا بحرى مسرعا ببعيره ويلتفت إليهما في ضراعة بعد أن أصيب بعيره بسهم في جنبه كاد يرديه . وصوروا عادا من قتلي جيش الملكة وقتلي حلفائها ممدين على النرى تحت سنابك الجوادين . وزادوا فصوروا امرأة بثوب كاس تسير باكية تلطم وجهها بكفها أو تستره خجلا بكفها وتمسك باليدالأخرى جرة كبيرة ويعقبها عدد من نياقها . وليس من المستبعد أنهم أرادوا أن يرمزوا بها إلى الملكة شمس نفسها وإلى عجزها واستسلامها وعودتها إلى رعاية الإبل .

وأشارت النصوص الأشورية فى القرن السابع ق . م . إلى ملكتين عربيتين أخرتين: يتيئة وتلخونو ، تحريفا فيم يبدو عن اسمى يطيعة وتالهونة وذكرت عن يطيعة أنها ناصبت الأشوريين العداء وربما تحالفت مع كبير الأراميين فى العراق مردوك أبا ليدينا التانى ضحد الملك الأشورى . وأسندت قسيادة جيشها إلى أخيها بسقانو (تحريفا فيما يبدو عن الباشق) . ولحكن الجيوش الأشورية هزمت "جيشها وأسرت أخاها .

وسلكت الملكة تلهونة (أو تلخونو) مسلكها الخاص في سبيل الدفاع عن أرضها ومصالحها ، فتحالفت مع من ذكرته النصوص الأشورية باسم خزا إيلي (أو حزائيل) ملك قبائل قيدار المحاورة لأرضها في منطقة الجوف. وعهدت إليه بقيادة جيشهما المشترك ضد الأشوريين ، ولكن حلفهما فشل في أداء مهمته ، على الأقل في حدود ماروته المصادر الأشورية ، وفرت الملكة إلى «أداوماتو » (دومة ؟) ، فلحقت بها القوات الأشورية على الرغم من وعورة الطريق وضيقت الحصار عليها حتى أسرتها (هي أو الملكة أبكالاتو) كما أسرت ابنتها تبؤة ، واستولت على تماثيل معبوداتها . ويبدو أنه فت في عضد الملكة أنه نشب خلاف بيها وبين حليفها حزائيل عقب مؤتما الأولى أو خلال حصار أداوماتو ، فخرج إلى قلب البادية ونجا بنفسه مؤقماً وعز على الجند الأشوريين أن يتعقبوه وإن كانوا قد دمروا بلده ، واستولوا على تماثيل بعض معبوداته .

و لعله كان من جراء طول المقاومة والرغبه فى إعادة السلام إلى الطرق التجارية أن اتبع البلاط الأشورى سياسة المهادنة ، فتعهد الأميرة العربية الصغيرة تبوأه بالتربية والرعاية رغبة فى أن تشب وفية مخلصة للملكية الأشورية وعندما بلغت سنا مناسبة اعترف بها ملكة على قومها .

وربطت انصوص الأشورية بين ملكة عربية أخرى وبين إيا إيلو بن حزائيل ملك قيدار كحليفة له صمن ملوك صغار آخرين . وذكرت هذه الملكة باسم بائيلو ملكة أخيلو واعتبر اللغوى إدوارد جلازر اسم بائيلو تحريفا عن الاسم العربي باهلة ، كما قرب اسم أخيلو إلى اسم ديار أخلة أو أجلة في منطقة الخرج في نجد . وبررزأيه بما روته المصادر المتأخرة عن سكني قبيلة باهلة (التي يشبه اسمها اسم الملكة القديمة) في هذه الديار . ولكن لازال رأيه عذا في مرحلة الفروض .

(ب) في العمر البابلي الاخير:

عندما ورثت الدولة البابلية الكلدانية مناطق النفود الأشورى في الشرق الآدنى كان من الطبيعي أن تتجدد العلاقات الاقتصادية السلمية أو المناوشات الحربية بينها وبن لإمارات العربية التي تحف بهذه المناطق ، لولا أن النصوص البابلية لم تسجل شيئا كثيرا عن هذه العلاقات حربا كانت أم سلما ، إلى جانب الحقيقة الأخرى المتوقعة وهي أن العرب بدورهم لم يعتر لهم على نصوص تتحدث عن أحوالهم معها .

وظل الحال على هذا الغموض حتى اشتد التنافس بين دولة بابل وبين دولة الفرس. ومالت أحوال بابل إلى التدهور، فحاول آخر ملوكها نابومهيد أن يجرب سفه مع المناطق العربية عله يسترجع بها بعض مجده الذاهب فغزا جنوب الشام حتى إدوم وغزة، ثم أناب عنه على عرش بابل ولى عهده، ولأمر ما اتجه إلى واحة تياء، ربما ليحيي أهميتها الاقتصادية على الطريق التجارى الرئيسي بين شمال غرب شبه الجزيرة العربية وبين العراق من ناحية وبين البحر المترسط من ناحية أخرى، ثم ينتفع بمواردها، أو على ناحية وبين البحر على تطعم جيشه بقوات فتية يستعار مها

لمعركة قريبة بينه وبين الفرس . أو على أسوأ تقدير ليهيىء بها ملجأ يبعده عن طائلة الفرس حن الضرورة .

وعلى الرغم من هذه الأغراض الملحة لم يكن نابونهيد موفقا فى سياسته ، فاشتد على تياء التى أراد أن يتخذها قاعدة حديدة لحكمه وفتك بروسائها وأخضع سكانها وقتل ملكها. ثم أعاد تسويرها وأقام بها بضع سنوات فى قصر جديد محصن على مثال قصره البابلى . ومد نفوذه منها جنوبا على ساحل الحجاز وربما وصل حتى يثرب . وأخيرا أدرك عقم محاولته فعاد إلى بابل حيث لم يأبث حتى خسر دولته كلهاأمام الفرس فى عام ٥٣٨ قى . م . ولازالت أغلب آثار هذ العصر البابلى فى تهاء مطمورة تحت أنقاض العصور التى تلته .

(ج) في العصر الفارسي :

أدى مشروع نابولمبيد الفاشل فى تياء إلى عكس ما أراده منها . إد كان من نتيجته أن وجه أطماع الفرس إليها وإلى ما ولها من المناطق العربية بعد أن مدوا نفوذهم على الهلال الحصيب كله . وأحس أمراء بادية فلسطين ومافى جنوبها بعنفوان الفرس وشدتهم فآثروا السلامة معهم خيث روى المؤرخ هيرودوت أن فمبيز ملك الفرس وهو فى طريقه إلى فتح مصر فى عام ١٥ ق . م حالف ملكا من ملوك البادية كان يعبد هو وقومه اللات قرب خليج العنبة . أو بمعنى تخر أجبره ، على أن يزوده بالإبل والماء ويرشد جسه إلى مسالك الصحراء المؤدية إلى مصر ، فعالج البدوى مشكلة الماء بمل بطون الجمال إلى حز الحاجة إليه ، وعمل على إعداد مايشهم الحراطيم بطون الجمال إلى حز الحاجة إليه ، وعمل على إعداد مايشهم الحراطيم الطويلة من جلود الماشية اتحرى بالماء من نهير فى بلده إلى ثلاث قنوات تصب الطويلة من جلود الماشية التحرى بالماء من نهير فى بلده إلى ثلاث قنوات تصب في ثلاثة صهاريج صحمة بالصحراء .

وأيا ما كان في رواية هيرودوت هذه من الصحة أو من الحيال . فقد رددت نصوص الملك الفارسي دارا أن قبائل آربايا . أى القبائل العربية التي انتشرت في بادية جنوب الشام وعلى أطرافها كانت تؤدى إلى دولته كيات هائلة من البخور والطيوب وما إليها على هيئة الجزى والحدايا . وكان هذا

أمرا طبيعيا في عصر أصبح الفرس فيه أقوى دولة في الشرق الأوسط من غير منازع بعد أن شاخت بقية دوله الأخرى وتهاوت إلى حين .

وامتد النفوذ الفارسي إلى واحة تياء فظرا لمسالها من أهمية تجارية ويبدو أنه كان نفوذا غير مباشر لم يحس أهل الواحة بشدة وطأته . يحيث أن أغلب ما وجد بها من الآثار يرجع إلى أيامه وماتلاه . وتقع أطلال تياء القديمة هذه في جنوب الواحة الحالية . وكان خيط بها سور يتراوح سمكه بين ٧٥ ، وبين ٣٠ من الأمتار ويبلغ ارتفاعه نحو ثلاثة أمتار . أما امتداده فقد قدره دوتي بنحو ثلاثة أميال . بنها قدره سافينياك وجوسن بثلاتة كيلو مترات فقط . مما يعني أن المنطقة لاتزال تتطلب دراسة واسعة بالكشت عن حفائق ماضيها . لاسها وأنه كشفت فيها بالفعل وعن طريق المصادفات تمالبحوث المحدودة بقايا قليلةمن معابدها ومفابرها ونصبها الدينية . وهذه يحمل أقدمها تأثيرات عراقية ومصرية وفارسية ، ويحمل أحدتها تأثيرات نبطية ورومانية نظرا لكثرة اتصالاتها الحارجية الفديمة ومحكم موقعها التجاري المتوسط . وذلك إلى جانب الحصائص المحلية التي ظهرت في أسماء معبو داتها القديمة .

(د) الأطراف الشرقية :

توافر المشمارية ولكنه على قلته لا يعدم ما يؤيده من الكشوف الأثرية الحديثة المصادر المسمارية ولكنه على قلته لا يعدم ما يؤيده من الكشوف الأثرية الحديثة التي سنتناول نتائجها في صفحات تالية . وعرفت أهم هذه الأطراف في النصوص المسماوية بأسماء دلمون وماجان وماوخا . ولأمر ما اعتبرت الأساطير السومرية دلمون جنة استقر السومريون زمنا بها قبل أن يدخلوا أرض العراق . وذهب الترجيح إلى أنها أي دلمون . تمثلت في جزيره البحرين . تم تواتر ذكر ها تاريخيا وشهل اسمها فيا يعتقد بعض الباحثين المحدثين جزءا من ساحل ذكر ها تاريخيا وشهل اسمها فيا يعتقد بعض الماحثين المحدثين جزءا من ساحل الأحساء المواجه لها . وذكرت نصوص المنك سرجون الأكدى في القرن الرابع والعشرين قي . م . أن إشراف دولته امتد على دلمون وما جان وملوخا

وأن سفها سارت على مياه أكد ، وذلك مما دعا إلى اعتبار هذه الأقطار الثلاثة أقطارا بحرية وساحلية ذات خبرة بالملاحة وصناعة السفن ، ويعمل أهلها بالنقل البحرى والتجارة البحرية . ولهذا سارت سفيم فى مياه الفرات طاعة لدولة أكد . وهكذا يتجه بعض الرأى إلى اعتبار ماجان تشغل ماتشغله عمان الحالية . وأضافت نصوص مسارية أخرى أنه كان يستورد منها للعراق الحشب والنحاس والأحجار الصلبة . أما ملوخا التي ذكرت النصوص المسارية أنه كان يستورد منها الذهب والخشب الثمن ، فلم يتيسر تحديد المسارية أنه كان يستورد منها الذهب والخشب الثمن ، فلم يتيسر تحديد موضعها الفعلى حتى الآن ، وإن لم يستبعد أنها وقعت بين المنطقن الأخرين دلمون وماجان أو البحرين وعمان . وذهبت آراء أخرى إلى المضى باتساع دلمون وماجان أو البحرين وعمان . وذهبت آراء أخرى إلى المضى باتساع المناطق السابقة أو بعضها حتى وادى السند .

و تعاقبت نصوص مسارية أخرى بابلية وأشورية بعد عهد سر جون تكرر المعنى الذى أراده بامتداد النفوذ العراقى على هذه الأجزاء الشرقية . ولكن يبدو أنه كان نفوذا تجاريا ففط . قام على أساس استيراد المواد الأولية التي دكرناها وبعض منتجات بخور منطقة ظفار . وما يتجمع من منتجات الهند وجزر المحيط الهندى على سواحل الحليج العربي لتصريفه في أسواق العراق .

ورادت النصوص الأشورية فأشارت فى القرن الثامن قى . م . إلى أريبى مطلع الشمس وعنت -هم أعراب الشروف قرب الحليج العربي .

وأخذت بعض الجاليات الفينيفية تتواقد على هذه المناطق الداحامة خلال المصر الفارس ، ومارست نشاطها التحارى فيها وفى المحار الفريبة منها ونقلت إليها بعض عناصر حضارتها ، تم از دادت أعداد المجار الفينيفيين وتأثيراتهم واختلاطهم بالسكان الحلين فى العصر الهيلينسي وهو ما خرج عن دائرة المصادر المسهارية ، وقد شهدت به تسمية جبيل لإحدى مدن المنطقة الشرفية .

ثانياً ــ من نتائج الكشوف الآثرية الحديثة :

ارتبطت أغلب الاكتشافات الأثرية في سواحل الحليج العربي وجزره مؤخراً بجهود بعثة دانمركية لآثار ماقبل التاريخ، وماتبعها من بعثات أخرى. (أ) في البحرين: استهلت هذه البعثة عملها في عام ١٩٥٣ في مناطق الظران وأدوات ماقبل التاريخ الحجرية على جبل الدخان والمنطقة الصحراوية في البحرين وامندت منها إلى غيرها من مواطن الدهور الحجرية بها. ثم اتسعت مجالات حبا فالتفتت إلى رجم المقابر التي بلغ من كثرتها أن بدت في هيئة الغرود الطبيعية في الصحراء. وقد قدر عددها بنحو مائة ألف وتنوعت بن كبيرة وصغيرة ، ومخروطية ومستطيلة . وتفاوت متوسط ارتفاعات المقابر ذات القواعد الدائرية بين المتر وبين الستة أمتار ، بل وارتفع أكبرها إلى دائري . وذلك خانب مقابر أخرى صغيرة دفن أصحابها في جرار من الفخار .

و تنقلت أعمال الكشف الأثرى إلى حيث تتبعت شواهد العمر ان القدم في العواصم الأولى التي نسبت إلى عهود متفاوتة بحتمل أن أقدمها عاصر الحضارة السومرية ، وعاصر بعضها العصر الأشورى الحديث والعصر البابلى الأخير ، كما عاصر أحدثها الحضارة السليوكية الهيلنستية والحضارة البارثية . مع انقطاع عمرانها في فترات أخرى بعوامل مختلفة . وتمثلت أهم مكتشفات البعثة في أطلال معابد باربار بمستوياتها الثلاث المتعاقبة وبعض عناصرها الباقية الأمر الذي شجع على تسمية أهم الفترات الحضارية بجزيرة البحرين باسم حضارة باربار .

وتنوعت حصيلة ما بقى من مناطق السكن والعبادة والدفن ، من أنواع الآثار المنقولة . فشملت كمية كبيرة نسبياً من أوانى الفخار والأوانى الحجرية . ومجموعات من الأختام (الدلمونية) المستديرة ذات القمة المدبية والمسطحة . والتي نقش بعضها بمناظر محلية ، ونقت بعضها الآخر بمناظر تشبه مناظر الاختام القديمة فى العراق وفى وادى السند . وذلك مما يدل على العلاقات الحضارية أو التجارية بين هذه الأقطار الثلاثة ، وذلك فضلا على مجموعات من الأوانى والماثيل المعدنية والمرمرية الصغيرة ، وقطع نحاسية وأخرى من العقيق واللازورد . وأوزان محلية ومنقولة إلخ .

وأيدت هذه الآثار المنوعة الأهمية النسبية لجزيرة البحرين فى العصور القديمة كمركز لمنطقة دلمون التى رددت المصادر المسمارية ذكرها ، ومركز لحضارة خاصة بها وهى حضارة باربار ، فضلا على كونها جزءا من حضارة الحليج العربي فى مجمله .

(ب) في الكويت: تركزت أغلب أعمال البعثة الدانمركية منذ عام ١٩٥٨ في دولة الكويت في جزيرة فيلكا أو جزيرة أكاروس كما سميت بالاغريقية في عهد الاسكندر الأكبر . وقد ذكرتها المصادر الكلاسيكية كمحطة تجارية نظرا لموقعها الاستراتيجي المناسب عند مدخل الحليج . ولما هيأته من المرفأ الآمن والمياه ألعذبة لسفن التجارة . ونقبت البعثة فيها على مستويات معاقبة عادت بأقدم مظاهر سكناها إلى أو اسط وأو اخر الدهر الحجرى القديم مولى العصر الحالكوليئي (النحاسي الحجرى) : وقيل إن بعضها عاصر الحضارة السومرية في العراق خلال النصف الأول من الألف الثالث ق .م ، وحضارة كولى في السند ، وما يمتد من العصر الأكدى حتى عهد إسين وحضارة كولى في السند ، وما يمتد من العصر الأكدى حتى عهد إسين وحيث قلت مظاهر العمر ان افتر ات طويلة حتى عاد نشاطها مع عهد الاسكندر والعصر السليوكي الذي مثلت فيلكا فيه مركزا تجاريا وحضاريا جمع إلى صبغته والعصر السليوكي الذي مثلت فيلكا فيه مركزا تجاريا وحضاريا جمع إلى صبغته المحلية والحليجية عناصر أخرى إغريقية وهيلينستية وفدت مع نشاط الملاحة والتجارة في هذا العصر وماتلاه . وظلت اتصالات الجزيرة بشبه الجزيرة العربية قائمة وعتر في أرضها على مصوص عربية قديمة .

وتعددت الآثار الثابتة في مواقع التنفيب في جزيرة فيلكا وتمثلت في أطلال علات سكنية وأفران ومواقد وأسوار وحصول ، ومعابد محلية مثل معبد إنزاك ومواقع عبادة آلهة الينابيع ومصادر المياه . وأخرى هيئنستية مثل معبد أرتيميس . وتبايست أطلال هذه الآثار في احجامها وفي مدى أهميتها . كما تباينت وتداخلت في أزمنتها ، لاسيما بالنسبة لمناطق السكن ومراكز العبادة التي أعيد استخدام بعضها جزئيا أو كليا في فترات متعاقبة ، عيث قد يضم الموقع الواحد أحيانا بين آثار من عصور ما قبل التاريخ وبين عيث قد يضم الموقع الواحد أحيانا بين آثار من عصور ما قبل التاريخ وبين آثار من العصر الهيلينستي متقاربة من بعضها أو مختلطة مع بعضها. وقد لوحظت

كترة استخدام الأحجار في المبان القديمة على عادة بعض أهل جنوب شبه الجزيرة العربية ، مع قلة البناء باللبن الذي أعتاده أهل العراق القريبين منهم .

وكالعادة احتوت هذه الأطلال على آثار صغيرة منقولة نضمنت أعدادا من أوانى الفخار والأوانى الحجرية والأسلحة الصغيرة والأحجار المنقوشة والماثيل البشرية والحيوانية الصغيرة وقطع من العملات المحلية والهيليستية والعربية القديمة ، وعدة آلاف من أختام صغيرة تنوعت بأشكالها وموضوعاتها بن أختام إقليمية مستديرة أننجها حضارة الحليج ، وأختام أسطوانية قلدت أختام العراق ، وأختام رباعية قلدت أختام وادى السند ، بل وسكل أحد الأختام على هيئة الأختام المصرية القديمة ، ونقست على هذه الأختام أشكال مختصرة لكائنات بشرية وحيوانية وأشياء طبيعية وزخارف تخطيطية عبرت عن بعض عقائد أصحابها وأخيلتهم وأساطيرهم ومستوى فنونهم .

(ج) فى قطر: باشرت البعثة الدانمركية أعمالها فى الساحل الغربى من قطر. وعثرت على كميات كبيرة من أدوات حجرية صنفتها فى أربع حضارات بدائية ترجع إلى فترات من الدهر الحجرى المتوسط والدهر الحجرى الحديث والعصر النحاسى الحجرى. وغلبت على حياة هذه الدهور والعصور حرفة الصيد وحرفة الرعى ثم القليل من الزراعة. ووجدت البعثة رسوما مختصرة على جوانب الصخور صورت مناظر زخرفية وملاحية وعقائدية. كما وجدت بقايا بندة يرجع عمرانها إلى أواسط الألف الأول ق.م.م.

(د) في دولة الإمارات العربية: ركزت البعثة أغلب أعمالها في أبو ظبى في جزيرة أم النار التي قبل إنها اكتسبت إسمها من كثرة ما وجد بها من أحجار كانت تستخدم محكات لإيقاد النار . ثم اتسع البحث إلى منطقة العين وقرية هيلي . وظهرت شواهد اربع مراحل للعمران في محلات قديمة ذات مساكن منوعة . كما وجدت أعداد كثيرة من رجم المقابر المستدرة الفردية والأسرية ، وأرجع أفدمها إلى فيرات من الألف النائث ق .م. نوبني أكبرها بالحجر ، وصورت على مداخلها مناظر إبل وماشية وحيات . (م . ا تاريخ شبه الجزيرة العربية)

واحتفظت بعض المقابر ببعض مازود الموتى به من أوان وخناجر وأدوات للزينة ، ويحتمل أن أهل جزيرة أم النار القدامى أخذوا فى بعض عصورهم بتضحية الأتباع حبن دفن سادتهم .

(ه) في الساحل الشرقي للمملكة السعودية :

توزعت الأكوام الأثرية الصغيرة على طول الساحل الشرق للمملكة السعودية في مثل تاج والقطيف وتاروت والعقير والظهران وجبيل . وكان لكل هذه المواضع نشاطها الاقتصادى كمراكز بحرية وبرية لتجارة المرور، فضلا على تجارتها المحلية . مما دلت عليه كتابات الرحالة والمورخين الكلاسيكين وبعض المصادر العربية القديمة .

وعثر فيا عثر عليه على أعداد من التماثيل الطينية الصغيرة لإناث وحيوانات. وقامت البعثة الدانمر كية بتجميع أعداد كبيرة من كسر الفخار الخشن والرقيق ، والأوانى الفخارية والحجرية، ومباجر مربعة – ويبدو أنها كانت من آثار عمران لبلدة عاصرت الحضارة السليوكية أو الهيلينستية. كما عثر على نقش بكتابة عربية جنوبية قدعمة فى ثاج.

وفى شبه جزيرة تاروت على امتداد منطقة القطيف تعددت رجم المقابر ذات الشكل المخروطى . ووجدت البعثة الدانمركية آثار عمران متقطع متفاوت قد يبدأ معاصراً لحضارة العبيد فى أقدم طبقاته ، ويمتد به الزمن حتى عهد حضارة باربار فى البحرين . ويضم مخلفات من الأدوات الحجرية الصغيرة لدهور ماقبل التاريخ ، ومخلفات من كسر الفخار .

وامتدت البحوث إلى جرها القديمة وهي الجرعاء العربية والعقير الحالية ، على أساس ماشهد به الرحالة الكلاسيكيون من ثرائها ونشاطها الواسع في تجارة المرور (الرانزيت) خلال العصر السليوكي . وقد تعددت بالفعل أكوام أثرية كثيرة فيما بين العقير وبين الظهران ، واستغلت البعثة الدانمركية ماوجد على سطوحها من كسر الفخار والأواني الحجرية لتصنيفها وتوقيت صناعتها .

وفى الوقت ذاته كان لقرب مناطق النفط من الظهران أثر فى توجيه الأنظار إلى ماكشف فى أرضهامصا دفة من الآثار خلال مد الطرق وتعبيدها وحفر الآبار. ونبه بيتربروس كورنوول إلى أهمية موقعها وضخامة جبانها القدعة ، ونسبها إلى كبار منطقة دلمون الذين شمل نفوذهم البحرين والأحساء . وتفاوتت مقابر هذه الجبانة فيا بينها فى سعتها وأهميتها وعتوياتها - واحتوى أكبرها على توابيت حجرية وجدران مبنية .

(و) من كشوف البعوث العربية :

حاوات بعص البعثات الوطنية والعربية أن تدلى بدلوها في الكشف عن جوانب من ترات الحليج القديم . فأولت وزارة التربية في البحرين اهتمامها لموقعي الحجر والشاخورة منذ عام ١٩٧٠ ، وجرى الكشف عن مقابر يحتمل إرجاعها إلى مايعاصر العصر الكاسي في العراق ، ومايعاصر العصر السليوكي . وهي مقابر مستديرة صغيرة تنتمي لطوائف اجتماعية مختلفة . وغالباً ماكسيت جوانها الداخلية بملاط وعلنها قطع حجرية ، وأدت إلى مدخلها درجة حجرية أو أكثر من درجة .

وأولت دولة الإمارات العربية اهتماماً بالكشف فى أنحائها عن المذافن المدافن القديمة . ووجدت على بعض أحجار المقابر رسوم هيئات بشرية وحيوانية ومناظر صيد . وتضمنت الآثار المنقولة التى عثر عليها من أوان وكسر الفخار أعدادامز خرفة بأشكال حيوانية وتخطيطية على الطريقة المحلية أحيانا، وبما يقلد بعض زخارف الفخار الخارجية فى مثل بامبور وكلى ، أحيانا أخرى .

وانصب كثير من الاهتام فى نجد بالمملكة العربية السعودية على منطقة الفاو. وكانت مستوطنة قديمة على الطريق التجارى بين نجران وبين أطراف العراق عبر وادى الدواسر. وكشف فها عن آثار عمرانها القديم وماتخلف عنه من الأوانى الحجرية والفخارية فضلا عن نقوش نصب المقابر و نحر بشات الصخور مما اختلط فيه الأسلوب العربى الجنوبي بالأسلوب العربي الشمالي وختمل ربطه إلى حد ما بنشاط مملكة كندة فبل ظهور الإسلام.

من المؤلفات المختارة في دراسات الفصل:

Bawden, Edens and Miller, Preliminary archaeological investigation at Tayma, ATLAL, 4, 1980.

Dayton, J.E., "The City of Tayma and the Land of Edom, 1970-73.

Dougherty, R.P., "Tayma's Place in the Egypto-Balylonian World of the 6th Century B.C.", Mizraim, I. 1930.

Hamid, I., Abu-Duruk, Introduction to the Archaeology of Tayma, Riyadh, 1986.

Milik, I. Priere de Nabonidus, RB, 63, 1966, 407---15

Oppenheim, L., in ANET, 283-284, 308 f.

Winnett and Reed, Ancient Records from North Arabia, Toronto 1970.

من المؤلفات المختارة في دراسات ما قبل التاريخ :

Bilby, G., Looking for Dilmun, 1970; Arabian Gulf Archaeology, in Kuml, 1954, 1964—66.

Glob, P.V., Archaeological Investigation in Four Arab States, 1959; in Kuml, 1954, 100 f.; 112 f.; 1958, 144f.

Masry, A.H., Prehistory in Northeastern Arabia, Florida, 1974.

سليمان سمدون البدر : منطقة الحليج العربي خلال الألفين الرابع والثالث قبل الميلاد . الكويت ١٩٧٤ .

عبد العزيز صالح : الرحلات والكشوف الأثرية للعصر الحديث ى شبه الجزيرة العربية -- دراسات الحليج والجزيرة العربية -- الكويت ١٩٨١ ، إصدار ٤ -- ص ٦٣ -- ٧٧ ، ٧٧ -- ٨٠ .

الفعلان فامشر

الجماعات العربية القديمة ذات الصلة برسالات الأنبياء

أولا ـــ مديـــن

أبقى على ذكر ما، ين ماذكره القرآن الكريم وذكرته التوراة عن ارتباطها بالنبيين موسى وشعيب عليهما السلام . فقد لجأ موسى عليه السلام إلى أرضها هرباً من مصر بعد أن قتل فيها أحد خصومه ، ، وصاهر في مدين رجلا صالحاً ذكرته التوراة باسم الرعوئيل الواطلقت عليه لقب البيرون المعنى الكاهن . كما ذكرت ابنته التي تزوجها موسى باسم صمورة .

وتدل معاصرة مدين لعهد موسى عليه السلام على قدم وجودها وإمكان نسبتها إلى ماقبل القرن الثالث عشر ق.م. على أقل تقدير . وكان قومها يتألفون من قبائل متعددة انتشرت فى إقليم حسمى وما يمتد منه إلى الشرق والجنوب التسرق من خليح العقبة . وربما وصلت إبان ازدهارها حتى حدود واحة العلا الحالية فى شال الحجاز .

أما النبي شعيب عليه السلام الذى ذكر القرآن الكريم قيامه بدعوه أهل مدين إلى عبادة الله وحده، فمن المحتمل توقيت عهده بأوامًل فترات از دهار تاريخها القديم .

وإذا كات قصة النبي موسى قد دلت على اعتماد بعص قبائل مدين على حرفة الرعى ، فإن دعوة النبي شعيب لهم بالنزام الأمانة في الكيل والمنزان تعنى أن بعض قبائلهم الأخرى اعتمدت على معاملات التجارة في حياتها الاقتصادية . وكان موقع أرضهم يسمح لهم فعلا بالانتفاع بثلائة طرق تجارية رئيسية : طريق يتجه نحو شبه جزيرة سينا، وجنوب فلسطن .

وطريق يتجه ناحية الجنوب بشعبتين فى اتجاه يثرب ومكة . وطريق أاك شرقاً نحو تبوك وتباء .

وإلى جانب الرعى والتجارة كان فى اتساع المنطقة التى انتشرت فيها فبائل مدين ماجعلها تنتفع كذنك بعدد من الواحات الحصبة فى شئون الزراعة ، وربما انتفعت أيضاً بساحلها المطل على البحر الأحمر فى النشاط البحرى . وكانت أكبر واحات المنطقة هى واحة البدع وتركزت حوفنا أهم مماعات مدين . وأدت كرة مياهها وكرة ماينمو فيها وفيا يمتد منها إلى ساحل البحر من الأسجار ونخيل التمر والدوم ، إلى انجاه بعض المؤرخين المسلمين إلى ربطها باسم « الأيكة » بمعنى الغيضة أو الشجر الكثيف الملتف ، واعتبروها على هذا الأساس هى الأيكة التي ذكر القرآن الكريم أنا صحابها كذبوا المرسلين .

ووافق بعض الباحثين الغربين على فكرة الربط بين أرض مدين وبين الأيكة فعلا ولكنهم فسروا اسم الآيكة بطريقة أخرى ، فاعتبروه النطق العربي لكلمة Leuke التي أطلقها بعض الإغريق على الميناء البحرية الواقعة في أرض مدين حين سمسوها Leuke Kome بمعنى القرية البيضاء ، وهو المعنى الذي يشبه اسم ميناء الحوراء (أو أملج) الحالية الواقعة إلى الجنوب الغرب من واحة البدع . ولايزال التفسير الأول أي تفسير المؤرخين المسلمين لكلمة الآيكة هو الأكثر شيوعا .

ويفهم منقصص التوراة أن عداء أهل مدين للعبر انيين بدأ منذ عهدموسى عليه السلام ، وذلك ما يمكن تفسيره بما أسلفناه من أنهم تألفوا من قيائل عدة ، ربما صادقت إحداها موسى بعد أن نزوج منها ، بينا جاهدرت القيائل الأخرى قومه اليود بالعداء بعد أن خشيت منهم على أرضها وتجارتها .

وزاد عداء مدین للاسرائیلیین حینما زادت أطاع هوالاء الانحاری فی فاسطین و مایلیها جنوبا علی عهد ملکهم شاواول فی نهایة القرن الحادی عشر

ق.م. وقد قاومهم المديانيون مقاومة شديدة بحيث ذكرت إحدى الروابات أنهم تمكنوا من بني إسرائيل سبع سنين .

وبعد قرون دخلت مدين فى طى النسيان ، ثم سيطر الأنباط على أرضها بعد أن مدوا نفوذهم التجارى والسياسى من شرق الأردن إلى شال الحجاز . وعملوا خلال القرن الأول ق.م. على توسيع ميناء الحوراء وتحصينها . ولاتزال المقابر التى نحتت فى الصخر بجوارها خلال عصرهم تعرف باسم مغاير شعيب وتشبهها بعض مقابر واحة البدع ، كما تشبه بقية مقابر الأنباط فى بترا وفى مدائن صالح ، لولا أنها تهدمت إلى حد كبير .

ثانياً - قوم عساد

اعتاد الرواة والاخباريون الأوائل أن يضربوا المثل فى القدم بعاد ، واعتادوا على أن يسبوا إليها كل مااسعطموا شأنه وجهاوا أصله من أطلال القصور والآبار وبقايا الصخور والأشجار القديمة أيضاً . واعتمد أولئك الرواة والأخباريون فى بعص ماذكروه عن قوم عاد على ماجاء عنهم فى القرآن الكريم ، كما اعتددوا على تفسير كتبة التوراة ومن تأثروا بهم .

ويعيد ماذكره القرآن الكريم عن قوم عاد أنهم عاشوا في منطقة تعرف بالأحقاف (واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف) . وأنهم تميزوا بإرم ذات العماد (ألم تر كيف فعل ربك بعاد . إرم ذات العماد . التي لم يخلق مثلها في البلاد) . وأنهم كذبوا نبيهم هو دا (كذبت عاد المرسلين . إد قال هم أخوهم هو د ألا تتقون . إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون) . وأنهم كانوا أولى بأس وقدره (أتبون بحل ربع آية تعبئون . وتتخذون وأنهم مصانع لعلكم تخلدون . وإذا بطشتم بطشتم جبارين) . وربما كانوا قريبي الصلة باشوديين (وأنه أهلك عادا الأولى وتمودا فح ا أبقي) . وأنهم عوقبوا جزاء كفرهم بريح عنيفة أطاحت بكل ماكانوا فيه (وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الربح العقيم ، ماتذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم).

ولم يعين القرآن الكريم موضع الأحقاف ، ولهذا تعددت آراءالمفسرين والمؤرخين المسلمين بشأنها .

وذهب بعضهم إلى تعين أحقاف عاد بمنطقة الأحقاف في حضر موت وزكوا رأيهم بما يعنقده بعض أهل حضر موت من وجود قبر هود في أرضهم ووجود بنر تسمى بنر برهوت رووا أنه كانت تصدر عنها أصوات هائلة في العصور القديمة وتخيلوا أن هذه الأصوات هي أصوات قوم هود المعذبين ولكن أضعت هذا الرأى القديم عدة قرائن نذكرها في ص ١٥٣ ـ ٤ . ومنها أن الروايات الشعبية يصعب التسليم بها دائما أو كاملا دون دليل . فكما قال بعض أهل حضر موت بوجود قبر هود عليه السلام في أرضهم . قال بعض أهل شبه جزيرة سبناء إن قبره في أرضهم .

و إلى جاب رأى من قالوا بوجود الأحقاف فى حضرموت . قال رأى آخر إنها رمال مستطيلة بشحر عمان . وقال ثالث إنها حشاف من حسمى ، والحشاف هى الحجارة فى الموضع السهل . وقال رابع بأنها اسم جبل فى الشام . وقال خامس إنها اسم عام يطلق على أى منطقة إذا عظم رملها واستدار ويقال له حقف) .

و في اختلاف هذه الآراء مايدعو إلى عدم التقيد برأى منها ما إلا بعد تمحيصه ووجود أداة تويده .

وربط القرآن الكريم بين قوم عاد وبين إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد . فاعتبر بعض المفسرين والمؤرخين إرم هذه مدينة عظيمة وعينوها بالاسكندرية تارة ودمشق تارة أخرى . واعتبرها بعض آخر قبيلة قوية ، وكان من هذا البعض الأخير المؤرخ ابن خلدون الذي وجه إلى أصحاب الرأى الأول نقداً لاذعاً .

وجعل باقوت إرم جبلا عظيماً في ديار جذام قرب العقبة تنمو عليه الكروم وأشجار تشبه أشجار الصنوبر . وذكر الرحالة القزويني أن قوم عاد عاشوا على هذا الجبل الذي أصبح من منازل طي،وكانت توجد عنده بقايا تماثيل كثيرة ومنازل عديدة .

وادت الكشوف الأثرية الحديثة إلى الكشف عن بقايا عمران متسع فوق وحول جبل إرم هذا بالفعل شرق العقبة ، ومنها معبد أقيم فوق الجبل ترجع بعض نصوصه إلى الفرنين الأول والثاني الميلاديين ، وأعداد من التماثيل ومن النصب الى تذكر اللات والعدرى . وقد لا تتيسر نسبة هذه الآثار إلى فوم عاد بصورة مؤكدة ، لولا أن هناك أدلة أخرى تزكى نسبة هؤلاء القوم، قوم عاد الى شمال شبه الجزيرة العربية أكثر من جنوبها ، ومنها أن القرآن الكريم جمع بين عاد وثمود ، وثمود شمالية فيها هو عنائع ، وجعل مواقع عاد قريبة من أهل الحجار حين نزول القرآن فقال (وعادا وثمودا وقد تبين كم من مساكنهم) ، وقال (اذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد) .

وربط بعض الشعراء المبكرين بين عاد وثمود ، وأطلقوا على ثمود اسم عاد الثانية أخذاً بقول القرآن الكريم (وأنه أهلك عادا الأولى) – ولم يعترض عليهم:معترض .

هذا وقد ذكر الجغرافي بطلميوس السكندري (في القرن الثاني الميلادي) اسمين في شمال الحجاز يمكن الربط بينهما وبين قوم عاد ، وهما اسم شعب Oaditae الذي يتشابه مع اسم عاد ، واسم Aramaua الذي يتشابه مع إرم ورم وأرام وكلها أسماء تعاقبت لمسمى واحد .

ومال بعض المؤرخين المحدثين إلى تفسير ما تواتر لدى أهل حضرموت عن وجود قبر هود عليه السلام عندهم بأنهم وغيرهم من العرب الجنوبيين كان يعز عليهم أن ظهر الأنبياء بين العرب الشهاليين دونهم ، فاعتمدوا على وجود اسم الأحقاف في أرضهم ونسبوه إلى عاد ، واعتبروا سكانها القدامى قوم هود ، حتى لاتكون للعرب الشهاليين ميزة عليهم حتى ولو كان قوم هود هؤلاء قد عوقبوا جزاء تكذيبهم له . ولايبعد مع هذا أن بئر برهوت التى دارت حولها أساطير قوم هود المعذبين كانت فوهة بركان صغير ثائر ، خمدت ثورته مع مرور الزمن .

ثالثاً ــ الثموديــون

توافر للشموديين حظ كبير من الشهرة بين المؤرخين المسلمين نظراً لما ذكره القرآن الكريم عهم . ولمعرفهم بجزء من أرضهم ، وبقاء بعض آثارهم حتى بداية العصور الإسلامية (ومابعدها) . وكما سلك القرآن الكريم نمودا مع عاد . سلكهم كذلك مع قوم لوط وأصحاب الأيكة وسماهم الأحزاب . ووصف النموديين بأنهم الذين جابوا الصخر بالواد ربما بمعنى الذين قطعوا صخر الجبال وتحتوا فيه مقابرهم أو بنوا به بيوتهم . وذكر القرآن الكريم العذاب الذي نزل بهم جزاء كفرهم بدعوة نبيهم صالح عليه السلام في قوله (فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في ديارهم جانمين) ، وقوله (إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشم المحتظر) .

وأشارت النصوص الأشورية إلى قدامى النموديين باسم «تمودى » منذ أو اخر القرن الثامن ق. م. واعتبرتهم من أهل البرية ، وذكرت أنهم وجير أنهم من الأعراب لم يألفوا الحضوع للملوك ولا للحكام . وليس ما يمنع من أن يكون أوائل جماعات الثموديين قد ظهروا قبل القرن الثامن ق.م. بكثير ولكنهم كانوا لايز الون على حال متواضعة من البداوة ، نحيث تجاهلهم في بعد كتبة قصص التوراة وتجاوزوا عن ذكرهم بينا ذكروا بعض أسهاء القيائل التي جاورتهم في البادية مثل قبيلة خايابا وقبيلة عيفة اللتين ذكرتهما النصوص الاشورية مع التوديين .

واتمق المورخون المسلمون على أن أهم ديار ثمود كانت بوادى القرى في بين الحجاز وبين الشام . ورووا أن النبي عليه السلام مر بجيشه على خرائب ديارهم في الحجر وبهي عن دخولها ربما لتأكيد كره الكافرين أو لأنه توجس أن تكون آبارها وعيونها قد سمت بفعل فاعل للإيقاع بالمسلمين الذين كانوا قد عانوا من شدة حرارة الصحراء في طريقهم إليها. كا تناقلوا النصص عن ناقة النبي صالح عليه السلام ومكان خروجها ومكان محامها . . . إلخ .

ولسنا على بينة من العهود الى تزايد البُوديون خلالها فى شمال الحجاز أو العهد الذى بعت إليهم فيه النبى صالح عليه السلام . ولكن يمكن إيجار ماعرف عهم تاريخيا فى أنهم تألفوا من قبائل وعشائر متعددة وأنهم لم يكونوا دولة مستفرة واضحة المعالم ، وأنهم حين انتشروا فى شمال الحجار وسيطروا على بعض أجزائه فى وادى القرى خاصة كانت مدينة الحجر من أهم الحواصر الى عاشوا فيها ، وهى مدينة ظنها بعص المؤرخين الفدامي مدائن صالح الحالية فظراً لكثرة آثارها المنحوتة فى الجبال ، ووضوح التدمير الدى لحنى بها ، وارتباط اسمها باسم النبي صالح . ولكن كثرة من الباحثين الحدين حدوها ببلدة الحريبة الى تبعد عن مدائن صالح بنحو عشرة أميال وعد أصاب آثارها هى الأخرى خراب كبير ، وبنوا رأبهم على غلبة النصوص النمودية الى عنر عليها فيها ، بينا رجحوا اعتبار مدائن صالح من مناطق الأنباط على أساس غلبة الآثار والنصوص النبطية فيها وإن تضمنت إلى جانبها صوصاً شمودية قليلة .

وساعد النمودين على الاستمرار الحضارى أنهم اتصلوا فى شمال الحجاز بطوائف متحضرة قديمة فانتفعوا بحضارتها ومنها طوائف ددان ولحيان التى أحاطت ببلدة الحريبة، وعندما امتدوا إلى الشمال أكثر انتفعوا ببعض حضارات جنوب فلسطن كما جاوروا امتداد الحضارة المصرية فى شبه جزيرة سيناء . وعندما امتد نشاطهم إلى الجنوب اتصلوا ببعض الجماعات المتحضرة فى أنحاء اليمن .

وكان من أهم ما استفادوا به حضاريا من هذه الاتصالات المتعددة . هو الكتابة بخط متميز اشتقوه أساساً من الحط المسند الجنوبي الذي يحتمل أنهم تعاموه عن أهل منطفة ددان ولحيان إن لم يكن عن كتبة الجنوب العربي الذين اتصلوا بهم اتصالا مباشراً في شئون النجارة ، ثم طعموا هذا الحط ببعض خصائص الحط السينيائي المصرى في سيناء .

وأصبحت بصوص النمودين هي الشاهد الحي على مدى انتشارهم ، وهي نصوص قصيرة سريعة ، ولكنها كثيرة تدل على كثرة من كانوا

يعرفون الكتابة بينهم لأغراض التجارة . وقد وجدت نماذجها خارج وادى القرى فى تبوك والطائف وفى قلب نجد وشالها ، وفى شبه جزيرة سيناء ، وفى مناطق متفرقة من شرق الأردن ، وفى شرقى دمشق ، وفى أطراف اليمن أيضاً ، وكل ذلك مما يدل على سعة انتشار قوافلهم وكثرة اتصالاتهم التجارية ولا سيا فى العهود المتأخرة فى الزمن نسبياً فيا قبل الميلاد بقليل وفها بعده بقليل أيضاً .

وشاعت بين التموديين أسهاء عربية خالصة مثل سعد وقيس ومالك ووائل وزيد وأوس وعاصم وعمر وعقرب وواسط وكعب وحارثة . وسعدة ومسكة وسهرة وهانئة . . . إلخ .

كما وجدت بينهم أسهاء قل استعمالها قبيل الإسلام ويبدو أنهم تأثروا فيها بأسهاء من كانوا نخالطونهم من الأراميين وغيرهم ومنها ثريت ، وهمل ، وبهي إلخ .

وأخذ الثمرديون بنعدد المعبودات كغيرهم من الجماعات القديمة ذات الديانات الوضعية . فقدسوا الشمس وودا وكاهل وبعلة ومناة . . . إلخ. ومن أجل إصلاح هذه العقائد أرسل فيهم نبيهم صالح ، ولكنهم خالفوه .

وظل ابقايا التموديين كيانهم حتى غلب الأنباط على وادى القرى ، فتفرقوا ولكنهم ظلوا معروفين خلال القرون الأولى بعد الميلاد . فأشار إلىهم مؤلف كتاب الطواف حول البحر الإريترى فى بداية القرن الثالث الميلادى وذكر أنهم انتشروا فى أيامه على ساحل صخرى طويل لاتوجد به خلجان صالحة تحتمى بها السفن .

ويبدو أن جيوش الروم ظلت تتقبل أعداداً منهم في قواتها المساعدة حتى القرن الحامس الميلادى . وأخيراً ربط بعض النسابين بين أواخر التهوديين أو نسلهم وبين قبائل ثقيف العربية . ولكن التقفين أبوا هذه النسبة واستنكروها .

من المؤلفات الختارة في دراسات الفصل :

Branden, A. van den, Histoire de Thamoud; Les Inscriptions Thamoudéennes de Philby. 1950; Essai de Solution de Probleme Thamoudéens, in BR, 1958, 7-12; Studia Islamica, 1957, 5-27.

Hardings, L., Some Thamudic Inscriptions.... 1952.

Jamme, A., Thamudic Studies, 1967.

Jaussen et Savignac, op. cit.

Littmann, E., Thamud and Safa, 1940.

Musil. A., The Northern Hegaz, 1926.

Philby, J., The Land of Midian, 1957.

Ryckmans, R., in Studia Islamica, 1956, 8 f.; Muséon, 1959, 177-189 Winnett, F.V., op. cit.

جواد على : المرجع السابق

دائرة الما ف الإسلامية سامواد مدين وعاد وأنمود .

الفعسل لشالت يمشر

من الممالك العربية المستقرة أولا ــ دولة ددان ولحيان

قامت حاضرة هذه الدولة فى واحة العلا قرب وادى القرى إلى الشال الغربي من المدينة المنورة بنحو ٣٢٨ كم ، وامتدت منها فى عهود ازدهارها إلى ماحولها حتى قرب تيماء . واعتمدت اقتصادياتها القديمة على الزراعة لوفرة المياه الباطنية فى واحة العلا وخصوبة أرضها ، وعلى التجارة نظراً لموقعها على طريق القوافل التجارى الرئيسي القديم الممتد فى غرب شبه الجزيرة بين معين على أطراف منطقة الجوف الجنوبي وبين أطراف الهلال الخصيب فى الشال .

وأطلق اسم ددان فى بداية الأمر على الأرض والدولة والشعب ، وذكرته قصص من التوراة يرجع أقدمها إلى مابين القرن التاسع ق.م.وبين القرن السادس ق.م.، كما تضمنته نصوص من الواحة نفسها قد يرجع أقدمها كذلك إلى القرن السادس ق.م.

وبعد عهود يصعب تقديرها وربما في القرن الخامس ق.م ، عرفت الواحة ودولها وقبيلها الحاكمة باسم لجيان ، وهو اسم احتفظ به بطن من بطون العرب حتى ظهور الإسلام ثم انصهر في قبيلة هذيل . وتوثقت علاقة لحيان بدولة معين الجنوبية على أساس الاشتراك في المصالح التجارية ، ونزلتها جالية من معين كما أسلفنا في الفصل السادس ، وانتفعت الواحة من هذه العلاقة بمعرفة خط المسند الجنوبي الذي تطور بعد تحويره إلى الحط اللحياني وكان من أواثل الحطوط المعروفة التي كتبت بها نصوص العرب الشماليين . واتسعت علاقات لحيان بجيرانها في الشام عن طريق البر ، وفي مصر عن طريق البر والبحر . محيث وجدت في لحيان بضعة تماثيل عرفا على مصر عن طريق البر والبحر . محيث وجدت في لحيان بضعة تماثيل عرفا على

بعضها منذ عدة سنوات فى الحريبة المحاورة للعلا . أخذت بالأسلوب الفى المصرى القديم ويرجع تاريخها إلى ما بعد القرن الحامس ق.م. — ويبدو أن أصحابها من حكام لحيان أو أثريائها قد أعجبوا بأمثالها فى مصر فانتدبوا فنانين مصريين قاموا بنحها من الصخر المحلى فى منطقة الحريبة . وجمعوا فيها بين تقاليد الفن المصرى فى جديم التمثال وبين الملامح وأغطية الرأس والوجه .

وتوثقت هذه العلاقة بين لحيان وبين مصر في عصر البطالمة . ويبدو أنه قامت مفاوضة بينهما في عهد بطلميوس التاني في أوائل القرن الثالث ق:م. لحروج المتاجر الواصلة إلى لحيان برا وبحراً بطريق مباشر من ساحلها إلى إحدى الموانى المصرية المقابلة لها على الساحل الغربي للبحر الأحمر ، وبهذا يقل وصول هذه المتاجر إلى خصوم الطرفين الانباط والسايو كيين في جنوب بلاد الشام .

وقد شاركت لحيان فى تجارة البحر فعلار بماعن طريق ميناء الوجه الموجودة فى منطقتها ، وكان من أتر نشاطها البحرى أن ذكر الرحالة بلينى جزءا من من خليج العقبة باسم الخليج اللحياني .

وشاعت بین اللحیانیین آسهاء عربیة خالصة مثل حمد و عاصم و عنز ة و أو س وحمر و حمجر و مسلمة . و أسهاء نسبو ها إلى معبوداتهم القديمة مثل زيد غو ث وبركة غوث و عبد و د و عبد مناة .

وظهر من أسماء ملوكهم، أسماء هناس بن شهر ، وشامت جشم بن لوذان ، ومنعى لوذان . . .

ويبدو أن ازدهار لحيان في الفرن الثالث قي م أطسى فيها حليفتها دولة معين الجنوبية التي كانت قد بلغت بدورها مرحلة مزدهرة في تاريخها، فدت نفوذها إليها خلال القرن نفسه ، وأصبح للجالية المعينية فيها مكان الصدارة الاقتصادية . وبعد أن كان يرأس الدولة ملوك من أهلها ، تولاها ولاة يتلقبون بلقب « كبر » وقد يشترك اثنان منهم في الحكم في أن واحد ربما ليكون أحدهما رئيساً للحيانيين ، وبمثل الآخر مصالح المعينيين وملك

معين الجنوبي . وأصبحت المنطقة أو واحبها تعرف أحياناً باسم «معن مصرن» وهو اسم أشرنا في الفصل السادس إلى أنه قد يقلد اسم الدولة الحليفة وهي معين من ناحية . ويخصصها بلفظ « مصر ن » من ناحية أخرى ربما بمعنى المصرية على أساس قربها من مصر أو تعاملها الواسع معها . أو بمعنى « الحدودية » .

وغالباً مايرجع إلى هذا العهد نص « زيد إيل بن زيد » ذلك التاجر المعينى الذى ذكرنا فى الفصل نفسه أنه أقام فى مصر حتى دفن فيها ، وكان يتولى توريد البخور وملحقاته إلى معبد السير ابيوم فى منف ، وبصدر فى مقابله أصنافا من المنسوجات المصرية إلى بلده ، وكما أكرمه المعبد المصرى بلقب الكاهن المطهر يبدو أنه منحه قرضا ليسدد به ديونه ، على أن يعتبره مقدما لتجارة يستوردها إليه . وتعهد زيد إيل بالوفاء فى موعد معلوم كما وعد برصد جانب من ثروته لبعض المعابد المصرية .

وأخد اللحيانيون فى عقائدهم بتعدد المعبودات مثل غوث واللات وبعل ممين وذى غابة وسلمان وكاتب أو سافر . ومن نصوصهم الطريفة نص ذكر أن معبودهم بعل سمين (أى بعل السماء أو سيدها) حرم أن ترتقى النساء صخرة عالية قام عليها معبده أو قام بجوارها . وإن كانوا فى الوقت نفسه قد سمحوا بوجود الكاهنات (أفكلت) فى بعض المعابد ، إلى جانب الكهنة (أفكل) الرجال . وكان لهم معبد حجرى واسع توسط منطقة الحريبه المحاورة لواحة العلا ولا زالت أطلاله باقية .

واستمر اللحيانيون فى طريقهم الحضارى حتى امتد نفوذ الأنباط إلى أرضهم وسيطروا علمها بعد أن ضعف شأن اللحيانيين وحلفائهم المعينيين فى حمايتها ، خلال القرن الأول قبل الميلاد .

* * *

ثانياً _ دولة الأنباط

كانت دولة الأنباط أكر اتصالا ببادية جنوب الشام منها بشبه الجزيرة العربية، حيث قامت كبرى عواصمهم فى «بترا» أو البتراء فى شرق الأردن. شأنهم فى ذلك شأن الإدومين الذين سبقوهم فى هذه العاصمة نفسها . ولكننا نتناول طرفاً من تاريخ الأنباط هنا - مع تاريخ شبه الجزيرة العربية بناء على ثلاثة اعتبارات ، وهى : غلبة الأسماء العربية بينهم ، وامتداد نفوذهم التجارى والسياسى والحضارى فى شمال الحجاز ، ثم ضخامة الآثار التى تركوها فى مدائن صالح ، ومغاير شعيب .

كان الأنباط كما قدمنا قبائل عربية الأصل غلبت عليها في مراحل نشأتها حياة البداوة وحرفة الرعى ، وانتشرت بطونها بين جنوب بادية الشام وبين شمال عرب شبه الجزيرة العربية . ووصف المؤرخ ديودور الصقلي حال الأنباط الأوائل في هذه المرحلة فيا قرأه أو سمعه عمن سبقوه بأنهم كانوا بدوا رعاة لايعرفون الزراعة ولا يشربون الحمر ، وأرضهم أغلها صخرية وعرة توجد بها خيرة ملحة تصدر عنها أبخرة حارة وتصعب الإقامة نجوارها ، ولكن توجد معها أراض أخرى كثرة الأشجار والنخيل.

وشجع انتشار الأنباط حول طرق التجارة البرية الرئيسية على أن يتطلعوا إلى مكاسبها ، فعمل بعضهم في الإغارة على قوافلها ، وعمل بعضهم في حراسها . وعمل بعضهم في المشاركة فيها تم الانفراد بها . وأدى احتكاكهم بدولة إدوم في جنوب الأردن إلى أن يعتادوا على الاستقرار شيئاً فشيئاً . وأن يمارس بعضهم الزراعة ، وأن يستفيدوا بعض الشيء من الحضارة الآرامية التي أخذ الإدوميول بها . تم استغل الأنباط ضعف هذه الدولة أمام اعتداءات العبرانيين عليها وسيطزوا على أرضها خلال القسرن الخامس قيل الميلاد وحلوا محل آمرانها في حكم عاصمهم التي عرفت باسم الخامس قيل الميلاد وحلوا محل آمرانها في حكم عاصمهم التي عرفت باسم رقيم ، واسم سلع الذي يعني الصخرة (التي تفصل بين وادين) ، وقد ترجم الإغريق عن هذا المعني الأخير باسم « بترا » فاشتهرت به ولاتزال ترجم الإغريق عن هذا المعني الأخير باسم « بترا » فاشتهرت به ولاتزال

تعرف بمرادفه البتراء الحتى الآن . وهكذا عمل الأنباط بعد استقرارهم في الزراعة كما عملوا في تجارة البر ، وربما تطلعوا إلى السيطرة على مابقربهم من تجارة البحر أيضاً . ولكن جر عليهم نشاطهم في تجارة البر منافسة خلفاء الاسكندر في الشام وآسيا الصغرى منذ أواخر القرن الرابع ق.م. . كما جرت عليهم قرصنة البحر وتجارته منافسة البطالمة حكام مصر في العهد نفسه .

وعن هذه المرحلة يذكر ديودور الصقلى أن جيش أنتيجونوس أحد كبار القادة من خلفاء الاسكندر فى الشرق أراد إرهاب الأنباط وصرفهم عن محالفة البطالمة فأغار على عاصمتهم بترا وبهها خلال غياب رجالها عنها للغزو أو للتجارة أو للاحتفال بعيد ديني . ولكن الأنباط لاقوا هذا الجيش فى عودته وأبادوا أغلب مؤخرته . وأعاد جيش أنتيجونوس الكرة علهم بقيادة ولده لينتقم منهم فتحصنوا بمدينتهم التى تحيط المرتفعات بها ولا يتيسر دخولها إلا عن طريق ممر جهلى ضيق بمكن أن تحميه القلة من الرجال. وطال حصاره لهم حتى صالحوه على بعض الهدايا فرجع عنهم .

وكان أقدم من ذكرتهم قصص التوراة من ملوك الأنباط الملك حارثة (الأول) ووصفته بأنه زعيم العرب وقصدت بذلك العرب المقيمين فى بادية الأردن . وذكرت له شأناً فى منازعات روساء العبرانيين بعضهم مع بعض .

غير أنه لم يعثر حتى؛ الآن على نصوص نبطية صريحة إلا من قبيل القرن الأول الثانى ق.م. ثم وضحت أطماع ملوك الأنباط للتوسع قبيل بداية القرن الأول قبل الميلاد . وتعددت معاركهم مع الجيوش السليوكية ، وهاجم ملكهم حارثة الثالث دمشق واستولى بحيشه عليها ، وسكت فيها عمله رسمية باسمه حوالى عام ٥٥ق.م. ولكن لم تطل إقامة الأنباط فيها حيث استردها الرومان منهم في حوالى عام ٥٥ ق.م. بعد آن سيطروا على أغلب بلاد الشام .

وأدت فترات التوسع الأنباطي إلى أن استزاد أهله من حضارةالأراميين التي عرفوها في إدوم ، وكانت دمشني من أكبر مراكزها ، كما ساعدهم

على أن يتذوقوا نعيم أهل الحضر . وكان خير ما تعلمو'ه من حضارة جير انهم هو حروف الكتابة الآرامية التى أسلفنا مراحل تطويرها على أيدى كتبة الأنباط وتميزهم بها ، فى الفصل الثانى من هذا الكتاب ، وكيف أصبحت أساساً فما بعد للكتابة العربية .

وعلى نحو ما انتفع الأنباط بحضارة الآراميين انتفعوا كذلك بالحضارة الهيلينستية التى تعهدها السليوكيون فى سوريا . وعرف الأنباط منها سك العملة ، ثم تطوروا بعملتهم واعتادوا على أن ينقشوا عليها صور رووس ملوكهم . وربما صوروا معها رؤوس الملكات أيضاً . أو صوروا مع رأس الملك رأس أمه إذا كان صغيرا وكانت وصية عليه .

وامتد الأنباط مع مسالك التجارة على ساحل الحجاز واستغلوا قوتهم مع ضعف بقايا أهل مدين واللحيانيين فسيطروا على أراضى هولاء وهولاء خلال القرن الأول قبل الميلاد ، وتركزت جالياتهم فى محاط القوافل الرئيسية بهذه الأراضى ، وقد ذكرنا منها من قبل واحة البدع والحوراء فى أرض مدين ، والحجر ومدائن صالح وواحة العلا فى أرض اللحيانيين .

وعندما استتب أمر حكم الرومان فى بلاد الشام أيقن الأنباط أن لاسبيل لهم إلى مقاومتهم ، وربما تقربوا إلى القائد الرومانى أوكتافيوس بإحراق جزء من أسطول خصيمته كليوباترة . ورأى الرومان أن يستفيدوا منهم فاستعاقوا بفرقة حربية منهم لمعاونة يوليوس قيصر على التخلص من حصار المصريين له فى الاسكندرية (فى عهد الملك النبطى مالك الثانى) ، كما استعانوا بجماعة منهم فى حملة آيليوس جاللوس القائد الرومانى على بلاد اليمن ، وصحبهم فيها الدليل صالح (أوسلى أوسلاء) Syllaeus كما تقدم القول بذلك و قد عرف أحد معاونى الملك النبطى عبادة الثانى فى العهد نفسه باسم صالح فعلا ، كما نزلت حامية رومانية فى ميناء الحوراء التى كانت قد خضعت من قبل للأنباط .

وظلت العلاقات بين الرومان وبين الأنباط في جنوب الشام بين مد وجذر ، فطورا يقتطع الرومان أرضا من الأنباط ويهبونها لليهود ، وطورا

يجاملون الأنباط ويزيدون فى أملاكهم . وعلى أيه حال فقد ازداد اتصال الأنباط بالحضارات الحارجية نتيجة لاتصالهم بالرومان وعملهم فى جيوشهم، إلى جانب ماكانوا قد اقتبسوه من الحضارات السابقة علهم .

وسجل الرحالة استرابون للأنباط مأثرة تذكر لهم ، فروى عن فيلسوف إغريقي كان يرتبط به برابطة الصداقة ، أنه نشأ بين الأنباط ورأى كثيراً من الأجانب يعيشون في عاصمتهم ولاحظ كثيرا من المنازعات تدور بين أولئك الأجانب على حين لاحظ قلة المنازعات بين السكان الأصيلين وميلهم إلى حياة السلام ربما لصالح نشاطهم الاقتصادى .

وعبر الأنباط عما استطاعوا استيعابه من فنون الحضارات المتنوعة التي اتصلوا بها فيما تركوه من آثار معمارية حفلت بها مدينة بترا في الأردن. ومنطقة مغاير شعيب وواحة البدع في أرض مدين . نم مدائن صالح إلى الشمال من واحة العلا . ونكتني هنا بآثار هذه المنطقة الأخرة أي مدائن صالح . وترجع أهم آثارهم فيها إلى مابين القرن الأول قبل الميلاد وبين القرن الأول بعد الميلاد . وتتمثل هذه الآثار في نحو مائة مقىرة نحتت وشكلت واجهامها في السفوح الجبلية بالمنطقة . وتفاوتت فما بينها في أحجامها وي مدى فخامها ، وامتازت مجموعة مها تمثل مقابر كبار الأثرياء بالضخامة والروعة والارتفاع حتى شابهت واجهات القصور . وإن لم يوجد في بيتها من آثار بقايا القصور الدنيوية شيء ما يرقى إلى مستواها . وقد حمع طرازها المعمارى وزخارفها. بن الأسلوب المحلى وبن أساليب مصرية وهيلينستية ورومانية . ولازال أهل المنطقة يصرون على تسمية أمثال هذه المقابر الفخمة القديمة باسم القصور ، وذهب خيالهم فى تصور أصحابها كل مذهب ، فهذا في زعمهم قصر البنت ، وذاك قصر أبي البنت ، وثالث قصر الصانع ، ورابع أطلقوا عليه اسم المجلس . وهلم جرا . أما النصوص النبطية التي نقشت على واجهات هذه المبانى فهي لا تترك مجالا للشك في كونها مقابر . ولكنها مقابر تلال على مابلغه أهلها من تنعم وثراء ومابلغه عصرها من تحضر ورخاء .

ويوجد في نفس المنطقة معبد استغل الأنباط له مغارة طبيعية في جوف صخرة ذات قمة تشبه القبة . وشكلوها على هيئة بهو كبير (١٠×١٠ × أمتار)، يطلق الأهالى عليه اسم الديوان . وأخذ الأنباط بما أخذ به أغلب العرب قبل الإسلام من تقديس هبل والعزى واللات وذي الشرى وشيع القوم . . . إلخ .

وبعد هذا التاريخ الحافل ، الذي تضمنت بترا في الأردن أضعاف ما تضمنته مدائن صالح من آثاره ، قضى الرومان على استقلال الأنباط حوالى عام ١٠٦ بعد الميلاد وسيطروا على عاصمتهم بترا في عهد الامبراطور الروماني تراجان ، وتحولت آرضهم بعد ذلك إلى مجرد ولاية خضعت للنفوذ الروماني واندمجت فيا سمى باسم الولاية العربية Provinca Arabia وإن خصوها بعد ذلك هي والأراضي التي تقع إلى جنوبها باسم منطقة بسترا العربية أو المنطقة العربية الصخرية Arabia Petraea ، وبعد أن كان الأنباط يؤرخون نصوصهم في عهود استقلالهم باسماء ملوكهم وسنوات حكمهم، أصبحوا يؤرخون البداية تبعية دولتهم لامبراطورية الرومان .

وعلى أيه حال فقد انتشرت النصوص النبطية القصيرة في عهود استقلال أهلها ثم في عهود حكم الرومان لأرضهم أيضاً ، في مناطق كثيرة متباعدة دلت على سعة انتشار أصحابها مع مسالك التجارة ، فوجدت في أماكن متعددة من شال شبه الجزيرة العربية ووسطها وجنوبها ، وفي جنوب الشام ، وفي سيناء ، وفي صعيد مصر ، بل ووجدت نصوص قليلة في نابولي وروما في إيطاليا ، وهذه الأخيرة نصوص ربما تركها أصحابها تذكاراً لزيارتهم لعواصم الامبرطورية الرومانية أو خلال فترات تجنيدهم في جيوشها . وقد فعلوا نفس الشيء لبعض الوقت في ظل الامبراطورية البيز نطية الشرق . وظل كيان الأنباط واضحاً حنى القرن الرابع الميلادي تم اندمجوا بعد ذلك فيمن خالطوهم من السكان في المناطق العربية وغير العربية .

من المؤلفات المختارة في دراسات الفصل:

Abdel-Aziz Saleh, Some Monuments of North-Western Arabia in Ancient Egyptian Style. Bull. of the Faculty of Arts, Cairo Univ., 28, 1970, 1-31.

Albright, W.F., Dedan, 1953.

Branden, A. van den, Les Inscriptions Thamoudéennes, 1950; Histoire de Thamoud; Essai de Solution de Probleme Thamoudeens, BR,1958,7-12

Cantineau, J., Le Nabateen, Paris 1931 f.

Caskel, W., Lihyan und Lihyanisch, 1953.

Hammond, Ph. C., The Nabataeans..., 1973.

Kennedy, A.B., Petra, its History and Monuments, London 1925.

Krammer, A., Petra et la Nabatene, Paris 1929.

Jaussen et Savignac, Mission Archeologique en Arabie, 4 vols, Paris, 1904-1920.

Philby, The Land of Midian, 1955.

Riddle, J.M., Political History of the Nabataeans..., 1961.

Starcky, J., The Nabatacans, 1955.

Winnett, F.V., A Study of the Lihyanite and Thamudic Inscriptions, Toronto, 1937.

لفصل لرابع عشر

من ممالك الأطراف العربية

أولا ــ مملكة الحــــــــرة

سبت هده المملكة العربية إلى تنوخ تارة ، وإلى لحم تارة ثابية . وكان وسمى ملوكها باسم بنى نصر تارة واسم المناذرة تارة أخرى . وكان لكل تسمية من هذه التسميات مايبررها في مرحلة ما من مراحل تاريخ دولتها.

وكان لقبائل تنوخ دورها فى قلب شبه الجزيرة العربية ، كما انتشرت بطونها إلى مايين بادية العراق وبادية الشام منذ الترون الميلادية الأولى ، وتعين عليها خلال هذا الانتشارأن تحسب حساب دولة تدمر القوية التى أشرفت على طرق التجارة فى الباديتين وحققت لنفسها شهرة كبيرة تجاوزنا عن دراسها منا حيث هى أقرب إلى الدراسة مع تاريخ بلاد الشام له له الوثية بأحاد الما وثقة العربية .

ويبدو أن الأمور لم نسر هينة دائما بن الفريقين، التدمريين والتنوخيين، مما انعكس صداه على ماصورته الروايات العربية من تنافس ومكائد بين ملكة تدمر التي أطلقت عليها تجاوزا اسم الزباء وبين ملك تنوخ جذيمة الأبرش. وأحاط الغموض بالتفاصيل الفعلية لهذا التنافس لاسيا وأن الروايات العربية قد اختلفت في تصويره وخلعت عليه ثوب الأساطير. ولكن التاريخ قد سمل إلى جانب هذا أن دولة تدمر أتت خاتمها على أيدى الجيوش الرومانية في عام ٢٧٧م ، مما كان من شأنه أن يفسح السبيل أمام التنوخيين ليحاولوا القيام بدور التدمرين وأن بجربوا حظهم مع الدولتين المتسيطرتين على شئون الشرق حينذاك وهما دولة الفرس الساسانيين ودولة الرومان.

ودل على الحالة الأولى للتنوخيين . أى حالة انتشارهم في بادية الشام

وبادية العراق مصدران . فذكر الجغرافي بطلميوس السكندري في القرن الثانى الميلادي اسم شعب يشبه اسم التنوخيين وهو Tanuetiac or Thanuitae بين إمارات أو شعوب شمال غرب شبه الجزيرة العربية . كما عتر في قرية أم الجمال بشرق الأردن على نصب أقيم على قبر رجل يدعى فهر بن سلى تلقب بلقب « مربى جديمة ملك تنوخ » .

وكان الملك جذيمة هذا الذي أشار النص إليه من أوائل ملوك تنوخ الذين احتفظ المؤرخون المسلمون بذكراهم ، وجعلوا من قبله على رئاسة تنوخ مالكا بن فهم الذي بحسل أن يكون تلاه عمر بن فهم ، أو تلاه جذيمة نفسه . ولقبوا جذيمة بالأبرش والوضاح ونسبوا إليه فتوحات واسعة ، ووصفوه بأنه كان « ثاقب الرأى ، بعيد المغار ، شديد النكاية ، ظاهر الحزم، و أول من غزا بالجيوش ، فشن الغارات على قبائل العرب » . ولو أن بعض هذه الأوصاف قد خلعت أيضاً على غيره من كبار الملوك ، أى أنه ليس من ضرورة إلى الذيليم بحرفية الم ملكة من ضرورة إلى الذيليم بحرفية الم ، ثم جعلوا نهايته في مكيدة دبرتها له ملكة تدمر واحتفظ الأدب العرب بذكراها .

وإذا صح ما رواه بعض المؤرخين المسلمين من أن ملك جديمة قد امتد « فيما بين الحيرة والأنبار وبقة وهيت وناحيها وعين البر وأطراف البر إلى الغمر والقطقطانة وخفية وما والاها » ، لدل ذلك على أن قومه قد بدأوا محاولتهم مع الفرس في عهده أو من قبيل عهده ليسمحوا لهم بأن يقيموا على أطراف العراق .

وأضاف المؤرخون المسلمون مايعنى أن هذه الإقامة لم تتم بسهولة حيث ضاق الفرس بكثرة من أتت تنوخ بهم من العرب ، فضيقوا عليهم حتى كره بعضهم الإقامة ، ومهم قضاعة ، فنزحوا ، وبقى بعض آخر عملوا على أن يثبتوا أقدامهم فيا نزلوا عليه ، وكان مهم لحم وترأسهم حينذاك ملوك بنى نصر الذين جعل المؤرخون أولم عمرا بن عدى ، واعتبروه من أقرباء جذعة وقد يكون ابن أخته .

ومع هذه الرغبة في الاستقرار أخذ عمران الأنبار والحيرة في الاتساع ،

وكانت كل منهما مدينة حدودية دل اسمها على ما أنشئت فى الأصل من أجله فنشأت الأنبار (بمعنى المستودع) كمركز حدودى لإمداد الحاميات العسكرية بالمؤن ، منذ القرن الميلادى الأول ، نم اتسعت ودعمت أسوارها . وقامت الحيرة بدور مشابه ففسر اسمها الأرامى « حبرته » بنفس مافسر به اسمها العربي « الحيرة » بمعانى المخيم والمعسكروالحصن وموضع الإقامة . . . إلخ . ويبدو أنها كانت أقدم عهدا من الأنبار ، كما قدر لها أن تصبح أكثر شهرة منها .

وصور انطلاقة هؤلاء القوم فى مرحلتهم الثانية لكى يتزعموا من حولهم من العرب والأعراب ولكى يشغلوا فى بادينى العراق والشام ما كانت تشغله من قبل دولة تدمر ، ويستفيدوا من كل من الفرس والرومان ثم الروم ، نص لملكهم امرئ القيس بن عمرو المتوفى فى عام ٣٢٨م ، وجد منقوشا بالحط الأنباطى المتطور على نصب أقيم فوق قبره فى منطقة المالاة (إلى الجنوب الشرقى من دمشق) ، وقيل فيه عن صاحبه إنه كان ملكا على العرب كلهم وأنه أحرز التاج وحكم الأسديين والنزاريين والمعديين ، وشتت قبائل مذحج ، وحاصر نجران مدينة شمر ، وولى أولاده على القبائل واستعان بهم الفرس والروم (أو جعاهم غرسانا للروم) .

وقد أسلفنا في الفصل العاشر . أن امرأ القيس هذا قد عاصر أو اخر أيام ملك عربي جنوبي لايقل عنه اقتدارا وطموحا وهو شمر بهرعش الثانث ملك سبأ وذ وريدان ، وكانت جيوش شمر قد انطلقت من نجران إحدى قواعده العسكرية فتحالفت مع قبائل مذحج في منطقة الأفلاج في وسط شبه الجزيرة العربية وعملت على التوسع في المنطقة الشرقية على الحليج العربي وأطراف العراق . وعندما ما ظهرت قوة امرىء القيس شن هجومه المضاد فشتت قبائل مذحج حلفاء شمر بهرعش وحاصر بجران التابعة له . ولعله وجد العون أو وجد الحضوع من قبائل عربية متفرقة مما سمح له بأن يدعى في نصه حكم فبائل أسد ونزار ومعد .

وشيئا فشيئاً اكتفى اللخميون بالولاء للفرس دون الرومان، وتقبل الفرس

استقرارهم فى الحيرة وفى الأنبار وما حولهما ليعدلوا الكفة فى مقابل ملوك الطوائف فى العراق ، ويقوموا بدور الدولة الحاجزة لحماية الحدود وقوافل التجارة من شغب أبناء عمومتهم من بدو الصحارى .

و نجح ماوك الحيرة في القيام بدورهم . وثبت أقدامهم مايروى من أن يزد جرد ملك فارس قد اثتمن النعمان الأول ملك الحيرة (٣٨٨ – ٤١٨ م) على تربية ولده بهرام جور في ظاهر الحيرة . فرباه مع ولده المنذر ، وقيل إنه أدبه بآداب العرب . وكانت فرصة ذهبية لتقارب البيتين الحاكمين . واز دادت من جرائها داهلة النعمان وزاد جيشه واتسع ثراؤه ونسب إليه إنشاء قصر الخورنتي . وزاد في الوقت نفسه ولاؤه للفرس وشن الغارات باسمهم على حدود أملاك الروم في بلاد الشام . وإن روى بعض المؤرخين أنه زهد في نهاية حياته و تنسك و ترك لولده المنذر ملكا مكينا . وعندما توفي يز دجرد في عام ٢١٤م أراد عظماء الفرس أن يقصوا أولاده عن عرشه ، فاستغل المنذر الفرصة وانتصر لبهرام جور وعاونه بفرقته العربية الضاربة فاستغل المنذر الفرصة وانتصر لبهرام جور وعاونه بفرقته العربية الضاربة وردها إليه مضاعفة وخلع عليه لقين تشريفيين لابد أنهما اعتبرا مكرمة منه تزيد من سمعة المنذر بين الفرس والعرب (وهما : رام أفزود يز دجرد منه تزيد من سمعة المنذر بين الفرس والعرب (وهما : رام أفزود يز دجرد عمني الذي أزاد سرور يز د جرد ، ومهشت بمعني أعظم الحول) .

وأظهر عرب إلحيرة كفايتهم فى قتال جيوش الروم وحلفائهم ، وحدهم تارة وفى صفوف الفرس تارة أخرى . وكان أشد ملوكهم ضرابا ونجاحا المنذر الثالث (١٢٥ --- ١٥٥٥) الذى نسبه المؤرخون المسلمون إلى أمه ولقبوه بلقب ابن ماء السماء، ورأى بعض الباحثين أن اسم ماء السماء هذا محرف عن اسم ماوية أو مارية ، كما أطلقوا عليه لقب ذى القرنين رنما لأنه كان يرسل ضفيرتين على جانبي رأسه ، أو لرغبتهم فى تشبهه بذى القرنين نظرا لاتساع فتوحه مثله .

وتتابعت حروب المنذر على فترات منقطعة منذ عام ١٩٥ حتى عام ٤٥٥م ، أى خلال ٣٥ عاما . ونستطيع أن نتجاوز عن تفاصيلها لنذكر

ما يروى من أنه استطاع فى أوائلها أن يكتسح بادية الشام من حدود العراق إلى أنطاكية ، الأمر الذى جعل قيصر الروم يوفد إليه رسله من القساوسة ليفاوضوه فى إطلاق بعض من أسرهم من قادته الكبار أو يقنعوه بقبول الهدنة أو يغروه بالانقلاب على الفرس والانضام إلى صفوفهم .

واتصلت أسباب المودة بين المنذر وبين ذى نواس الحميرى كما أسلفنا فى الفصل العاشر ، وابتغى هذا الأخير أن يحالفه ، ولكن تصادف أن مصلت رسالته فى حضور قساوسة الروم عند المنذر ففسروها بأنها تحريض منه ضد نصارى الحيرة ، وألبوا العالم المسيحى عليه ، وعندما احتفل أبرهة الحبشى بانتهاء العمل فى إصلاح سد مأرب أوفد المنذر إليه مندوبا عنه لحضور حفله (فى عام ١٥٤٣م) ، وهكذا خرج عرب الحيرة بشهرتهم عن نطاق الإقليمية والتبعية .

والواقع أنه لم يفسد على دولة الحيرة أمرها في عهد المنار الثالث إلا مدارعها أفرية بن من العرب، وهم الغساسنة وبنو كندة فقا. كان كل منهم أدرى بحرب الآخر ، وكل منهم يعرف عن أسرار الصحراء ودروبها ما يعرفه الآخر .

ركان على رأس بنى خدان نيما يعاصر عهد النذر و النارث بن جبلة و رئم يكن أقل جرأة واقتدارا منه ، فاتصلت الحروب بني بنا للأسف أكثر من هدنة مما اتصلت بين الروم وبين الفرس ، وعقد الروم والفرس أكثر من هدنة وصلح ، ولكن المنذر والحارث لم يعترفا بهدنة أو صلح ، وكما غزا المنذر أرض الشام غزا الحارث أرض الجزيرة في العراق ، وهكذا أعمت المطامع بصيرة هذين الزعيمين ، وانتهى الأمر بقتل المنذر حوالي عام 200 م في موقعة حليمة أو موقعة الحيار قرب, قنسرين كما سير د تفصيله بعد قليل .

أما قبائل كندة فقد غدوا حينذاك قوة يخشى بأسها فى قلب شبه الجزيرة العربية كما سنتناول ذلك بعد صفحات ، فاستغل الفرس طموحهم لإضعاف شوكة ملك الحيرة بعد أن ارتفع شأنه وتوقعوا أن يؤدى به طموحه إلى الاضرار عصالح دولتهم أو الحروج عن طاعها ، فتركوه يستنفذ قواه ضد الحارث

ابن عمرو ملك كندة ثم عزلوه . وولى قباذ ملك فارس الحارث الكندى على الحيرة فى حوالى عام ٢٤٠٥م - ولجأ المنذر إلى بعض القبائل العربية التى بقيت على الولاء له وخرجت عن نفوذ كندة . ثم استرجع حكم دولته بعد أربع سنوات ، وظل العداء قائما بينه وبين كندة بعد فشل الحركة المزدكية .

ونعاقب على حكم الحيرة عدة ملوك اشتهر منهم عمرو بن هند (٥٥٥ ــ ٥٧٤م) الذى ألمح الأعشى فى شعره إلى أن نفوذه امتد ما بين عمان وبين ملج (فى أرض اليمامة من بلاد بنى جعدة) . وكان قد استغاضف كندة فوسع نفوده على حسامها وتحاربت قواته مع تميم وطى وتغلب وعبرها .

واشنهر كذلك النعمان بن المندر (٥٨٣ – ٢٠٥٥) الملقب بالهب أبي قابوس ، واشتهر أمره عند المؤرخين العرب بأقاصيص كثيرة ووصفوه بفصاحة اللسان على الرغم من دماهة خلقته ، وكان بلاطه مجمعا للتعراء فدحه المقربون إليه منهم (وأهمهم النابغة الذبياني) و هجاه المبعدون عنه . وحاول أن يمد نفوذه من البحرين شرقا إلى جبل طى غربا . غير أن الحروب الى شنها لم يكتب له التوفيق في أغلبها سواء ضد الغساسنة ، أم ضد القبائل العربية الأخرى . فذكرت الروايات أن جيوشه انهزمت أمام بني يربوع مرة، وأمام بني عامر مرة، وأمام تغلب مرة أخرى . وكذلك كان حظه سيئا مع كسرى ملك الفرس بعد أن أوقع خصومه بينه وبينه ، فتمكن كسرى منه وسجنه . ومات في سجنه .

كان النعمان الثانى هو آخر الملوك العظام فى الحيرة ، وقد اختلف أولاده على الحكم .بعد موته ، واستغل كسرى ملك الفرس اختلافهم فولى على الحيرة ملكا من غير أسرتهم وهو إياس بن قبيصة الطائى وكان من كبار عرب العراق الذين أقطعهم الفرس إقطاعيات واسعة ، ووثق به كسرى كما وثق به النعمان نفسه وجعله نائبه ، فلما ولى الحيرة فى عام ٢٠٥٥ عاون جيوش الفرس .ضد جيوش الروم ليثبت أنه ليس أقل كفاية من المناذرة فى نصرتهم ، ولكن التوفيق جانبه فى علاقاته بأهل الحيرة وجيرانها نحيت فى نصرتهم ، ولكن التوفيق جانبه فى علاقاته بأهل الحيرة وجيرانها نحيت قبل إنه أمضى أغلب عهده القصير الذى لم يزد عن تسع سنوات (حتى ٢١٤٥م)

خارجها . وتجرأت القبائل العربية على حدود العراق فى عهده سواء بتحريض أنصار المناذرة أو لاضطراب الأمور فى فارس نفسها .

وحدث أن نشبت حينذاك موقعة خالدة بين عرب شبه الجزيرة العربية وبين أعوان الفرس ، وكان إياس هو مندوب كسرى فى قيادة أعوانه من الفرس والعرب الحاضعين له ، فأنهزم هو وجنوده . وكانت هزيمهم بمثابة ضربة لسمعة فارس نفسها ، ولعلها كانت من الآيات المبشرة للعرب بأن الإستبسال يمكن أن يعوض قلة العدد فى مفاومة إحدى الدولتين الكبيرتين اللهن حكمتا الشرقين الأدنى والأوسط فى ذلك الحن وهى دولة الفرس .

اشتهرتُ واقعة هذه الحرب باسم واقعةُ ذي قار . وقص المؤرخون المسلمون من أخبارها أن النعمان الثانى حينًا تخوف من غدر كسرى به ترك بعض ودائعه من الأموال والأسلحة عند هانيٌّ بن مسعود الشيباني (أو هو هانئ بن قبيصه بن مسعود في رواية الطبرى) أحد رجالات ربيعة وبكر بن واثل ، فلما مات النعمان في سجن الفرس كلف كسرى إياسا بن قبيصة عامله على الحرة بأن يستردها من هانىء فرفض هذا الأخبر أن يفرط فها أثرتمن عليه . فأمر كسرى بإعداد جيش من الولايات الفارسية والعربية الحدودية وأمر عليه إياسا بن قبيصة كما ذكرنا . وتلاقى هذا الجيش مع قبائل بكر وحلفائها في منطقة ذي قار على مبعدة قليلة من الحيرة.. واستظهر الفرس وأعوانهم على العرب فى يومهم الأول نظرا لكثرة أعدادهم وما استعانوا به من الفيلة، ولتربيب بعض العرب منهم ، ولكنهم مالبثوا حتى جزعوا من شدة الهجير واحمال تعرضهم للعطش فتقهةروا وكانت بداية النصر للعرب فتبعوهم وشاركت النساء الرجال فى شحد العزائم ، بل وصحت ضائر بعض القباثل العربية المظاهرة للفرس فاستعدت للتمخلي عنهم حن بجد الجد، و في بطحاء ذي قار توالت أيام قليلة وجليلة تحطمت فها عزائم جيوش الفرس وأتباعهم من شدة هجمات العرب وشدة العطش حتى هزمرا هزممة منكرة في عام تفاوتت آراء المؤرخين في تحديده بين ٣٠٩ م و ٣١١م . وعن هذه الموقعة قال الرسول صلى الله عليه وسلم « هذا أول يوم انتصفت العرب فيه من العجم وبي نصروا » .

وليس ما يعرف عن مصير إياس بن قبيصة بعد هذه الموقعة إن كان قد استمر على حكم الحيرة لفترة بعدها أم عزله كسرى بعد أن خاب أمله فى إخلاص العزب لحكمه . وعلى أية حال فقد حكمت الحيرة ١٧ عاما أو نحوها (١١٤ – ١٣٦٦م) بحكم فارسى مباشر ، ووليها فارسى يدعى آزادبة عجز عن أن يبسط نفوذه على ما فى خارجها – كما نافسه فى عامه الأخير شاب من نسل المناذرة يدعى المنذر ويلقب بالمغرور ، ثم أتت نها يتهما معا بالفتح الإسلامي في عام ٣٣٢م أو ٣٣٣م .

تلك كانت الحطوط العامة للاتجاهات السياسية والحربية لدولة الحيرة. أما حياتها الاجتاعية ، فأهم مايذكر لها أنها ممعت بين تقاليد العرب وبين رفاهة الفرس ، فتتوج ملوكها بالتيجان على عادة الأكاسرة ، وأمروا بالحجاب بيهم وبين الناس مثلهم، واتخلواالروادف أشباه الوزراء أوالنواب، وفتحوا بلاطهم للأدباء والشعراء . أما عاصمهم فاتسعت هي وماحولها لطوائف شيى ، من اللخميين أهل الطبقة العليا ، والأحلاف الذين لحقوا مهم ، والعباد من النصارى ، وجماعات من أهل العراق الأصيلين ، وجاليات وموظفين كبار من الفرس ، فضلا على أعراب الضاحية أصحاب المظال ومضارب الشمر والوبر والأخبية الذين لم يسكنوا بيوت المدر في الحرة وانتشروا حولها .

وتعددت الحرف بتعدد هذه الطوائف بين الزراعة والرعى والتجارة والصناعة ومنها صناعات النسيج المتنوعة ، وكان أفخرها يطرز بالقصب وسلوك الذهب ، وصناعات الحلى والأسلحة وماعداها .

وتعددت المذاهب الدينية بين الوثنية والمحوسية والزرادشية الفارسية واليهودية والمسيحية . ووجدت المسيحية مجالا رحبا بين هذه الدياناتوأخذت بالمذهب النسطورى أكثر من المذهب اليعقونى ، وأقيمت من أجلها أديرة عدة ، وعرف أتباعها باسم العباد أو العباديين ربما نسبة إلى لعظ عبد الذي يربط بين الإنساد وبين ربه أو نسبة إلى كلمة عابد .

وكان لموقع الحيرة واتصالاتها التجارية والظروف التي أدت إلى احتكاك أهلها بغيرهم من الإمارات والجماعات سلما وحربا ، أثر فى انتفاعهابالثقافات العراقية والأرامية السريانية والفارسية والبيزنطية فضلا على العربية ، وكان فيها كتبة كثيرون يكتبون بالحط الأراى الشرقى ، وكتاتيب تعلم الصبية ويلحق بعضها بالأديرة . في

ونسب المؤرخون المسلمون إلى ملوك الحبرة كثيراً من القصور . فنسيوا إلى أحد النعمانين النعمان الأول أو الثاني بناء قصر الحورنق بظاهر الحبرة كما تقدم ، بينا رد بعض الباحثين المحدثين تشييده إلى عصر أقدم من عصر استقرار اللخميين في الحيرة ، ثم زاد عليه ملوكهم ، وقيل إنْ بعض أجزاثه وقبابه ظلت قائمة لفترة طويلة في العصور الإسلامية بعد أن جددت أكثر من مرة . ونسبوا إلىهم قصر السدير وعمثل بقبابه الثلاثة المتجاورة نموذجا لفن البناء الحبرى ، ويتألف مجلسه الرئيسي من إيوان حف به كمان أو قاعتان . ونسبوا إليهم قصورا كثيرة أخرى تتفق مع ماعلموه عن ثرائهم وتحضرهم ، ولم يتركموا قصرا منهاجدون قصة أو أسطورة دارت حوله ومنز ته عن غيره . ونسبوا إلى أحد النعمانين قصة سيارالبناء وجزائه المشئوم، و قصة يوم السعد ويوم البوءُس ، وتحدثوا عن مقتل عبيد بن الأبرص في يوم البوُّمن ونجاة حنظلة الطائي في اليوم نفسه . وما إلى ذلك مما زخرت به كتب الأدب العربي وعبرت فيه بالشعر والنتر عن كثير من النواحي الطيبة والنواحى السيئة فى الحياة العربية قبل الإسلام . ورووا أن النعمان الأول تنسك وساح في الأرض . وأن المنذر بن ماء السهاء تنصر ، وأن النعمان الثانى ولد من أم ذات أصل يهو دى .

وعلى الجملة ظلت أيام ملوك الحيرة مجالا خصبا لرواة العرب بمزجون فيها بين الواقع وبين الحيال ، نظرا لمسا تواتر إليهم عن أرائهم ورفاهيهم وقوة جيوشهم وقوافلهم، واتصالاتهم بالدولتين الكبيرتين دولة الفرس بالتبعية ودولة الروم بالعداء ، وهي صفات لم يكن ينافسهم فيها من ملوك العرب الشهاليين أكثر من ملوك بني غسان .

ثانياً ـ دولة الغساسنة

قام الغساسنة على أطراف جنوب الشام وما يمتد حتى منطقة الجولان جنوبى دمشق بمثل الدور الذى قام به اللخميون المناذرة على أطراف العراق. أى بتكوين دولة حاجزة ووسيطة على أطراف بادية الشام تدين بالولاءلدولة الروم البيزنطية وتنتفع منها وتعمل باسمها ، وكانوا أحدث عهدا من المناذرة بنحو قرنين من الزمان . آما كان أتباعهم أقل استقرارا في حواضرهم من أهل الحيرة . وربما كانوا أقل تراء وبذخا أيضاً من المناذرة . وأخذ المسيحيون منهم بالمذهب المونوفيستى اليعقوبي دون المذهب النسطوري الذي أخذ به أغلب مسيحي الحرة .

أطلق المؤرخون المسلمون على القبائل الني انتسب الملوك النساسنه إليها اسم آل جفنة وآل ثعلبة فضلا عن آل غسان . وذكروا أن غسان كان اسم ماء نزلوا عليه فسموا باسمه . وأضافوا أنهم نزلوا في جنوب الشام بجوار قبائل عربية قوية تدعي قبائل الضجاعمة ، وهي من قضاعة ، استخدمها الروم البيزنطيون في حماية حدود أملاكهم الصحراوية . فخضع الغساسنة لها حينا وتألبوا علم احينا حتى أجلوها عن مواضعها فتفرقت وورثوها في أرضها وفي شهرتها ، وحينذاك أقرهم الروم على مكانتهم التي حصلوا عليها بسيوفهم ، ليعملوا باسمهم على مناطق الحواف وفي قوافل التجارة . وكانوا مخصون لهم بعض موارد الشام المالية ليستعينوا بها في تقوية إمارتهم ونفقات جيتههم .

و دكر المؤرخون عددا كبيرا من الحكام الغساسنة تراوح بين الأحار عشر وبين الاثنين والثلاثين ، وخلعوا عليهم ألقاب الملوك ، ولكن يذهب الترجيح إلى أن عددا من حكامهم الأوائل لم يكونوا أكبر من مشايخ فبائل كيسار خلع البيزنطيون عليهم لقب Phylarchos بمعنى والى ، ولقب كيسار خلع البيزنطيون عليهم لقب وهكذا كان شان أواخرهم الذين لم يزد أمرهم عن كونهم أمراء أو شيوخا وإن أطلق عليهم الرواة ألقاب الملوك .

(م ١٢ - تاريخ شبه الجزيرة المربية)

ولم يتضح شأن الحكام الغساسنة فى المحيط السياسي قبل أو اثل القرن السادس الميلادى ، وكان أشهر من احتفظت الروايات البيزنطية والعربية بأعماله منهم الحارث (الثانى) بن جبلة ، وولده المنذر .

طال حكم الحارث الثانى ابن جبلة واحدا وأربعين عاما(٢٨٥ ــ ٢٩٥م). عاصر فيها الأميراطور يوستينيانوس (أو جستنيان) في بيزنطة ، والمنذر الثالث مُلك الحَرة ، وكان كفئا لهذا الأخير طموحا مثله بدأ حروبه معه منذ العام الأول من حكمه (٢٨٥م) ليس فقط كممثلين للدولتين الكبيرتين المتنافستين دولة الروم ودولة الفرس . ولكن للتنافس بينهما كذلك على السيطرة على المناطق التي أطلقت المصادر البنزنطية علما اسم Strata وتمتد فيما يرى نولدكه على جانبي الطريق الحربي من دمشق حتى سرجيوس إلى الشمال من تدمر . وتعاقبت الانتصارات والهزائم بن الجانبين وكانت ضارية عنيفة كما أسلفنا في الحديث عن تاريخ المناذرة، وبحيث قيل إن المنذر أسر ولدا للحارث في عام ٤٤٥م وذبحه قربانا للعزى ، وأسر الحارث ولدين للمنذر في موقعة أخرى في العام نفسه ــ واستمر الحال هكذا حتى قتل المنذر قرب قنسرين عام ١٥٥٤م ، وقتل في نفس الموقعة ولد آخر للحارث . ومع ما كان في هذا التنافس من دمار موْسف للقوتين العربيتين ، ازداد سلطان الحارث مؤقتا في أرضه وامتد نفوذه من جنوب الأردن حتى الرصافة في شمال بادية الشام ، واشتهرت من مدن دولته البلقاء والصفا وحران . ولقب نفسه بلقب ملك وقيل إنه تتوج بتاج عوضًا عن الإكليل الذي سميح الروم به لأسلافه ، حتى لاتكون لحصومه المناذرة ميزة عليه ، وربما أقره الامبراطور البيزنطي على لقبه وتاجه حين زاره فى القسطنطينية عام ٥٦٣ م ليستأذنه في تعيين خليفته المنذر ، ونعلق هذا على الاحتمال لاختلاف المؤرخين بشأنه .

على أن الواقع أن العلاقات بين الروم وبين الحارث الغسانى لم تكن خالية من الشوائب دائما ، فهو وإن أخذ وقومه بالمسيحية مثلهم إلا أنه كان بأخذ بالمذهب المونوفيستى البعقوبى ويناصرة كما أسلفنا دون المذهب

الذى يناصره الروم . وكان فى هذا ما أثار حفيظة بعض قساوسة الروم ضده وشكهم فى ولائه لهم . وقد اتهموه بالحيانة خلال اشتراكه مع جيش بليز اريوس فى حرب الفرس فى عام ١٥٥١م حين تراجع عن صفوف الحملة بعد أن عبر معها نهر دجلة ، إما عن أنفة من التبعية له فى الجيش أو نتيجة لخصومة شخصية بن القائدين .

وأعقب الحارث ولده المنذر (79 هـ - 20 م) الذى لاندرى كيف سماه باسم خصمه -- فتوالت حروبه مع النعمان ملك الحيرة وتعاقبت الانتصارات والهزائم بيهما كما حدث فى عهد أبو مما . فانتصر على اللخميين فى موقعة عين أباغ قرب الفرات فى عام ٧٠٥م . ولكنه لم يستمتع بنصره طويلا حيث غدر به الامبراطور يوستينوس (جوستين) الثانى ولم يكن يطمئن إليه فحرض عليه والى سوريا البرنطى ليعمل على قتله ، ولم يكن هذا الوالى أقل حقدا منه عليه ، ولكن المنذر استطاع النروح بجزء من جيشه إلى الهادية ورد للروم الصاع صاعين فأقلق حدودهم بإغاراته السريعة . وتشجع المناذرة بغيابه عن الميدان فأغاروا على سوريا ، الأمر الذى جعل الروم يتساعون مع المنذر فى أواخر عهد يوستينيوس الثانى . وعندما ولى الامبر اطور تيبيريوس الثانى . وعندما ولى الامبر اطور تيبيريوس الثانى . وعندما ولى الامبر اطور تيبيريوس الثانى (٥٧١ م - ١٨٥ م) وزاره المنذر الغسانى فى عاصمته أقره الامبر اطور على لقب الملك وسمح له بالتتوج مثل أبيه (فى عام ٥٨٠ م) .

وظل سوء الظن قائما بين الطرفين يطل برأسه من حين إلى آخر. فحدث أن اشترك المنذر مع والى سوريا فى حملة فاشلة على العراق فرد الروم فشلها إليه . ولكى يثبت براءته مما نسب إليه أغار مع أعوانه العرب وحدهم على الحيرة وألهب فها الحريق .

وإذا كان المندر قد فعل هذا لبرضى سادته على حساب بنى عمومته . فقد اعتبروا نجاحه فى هذه الغارة تحديا لهم ولفشلهم . ونجح أعوان الامبراطور فى هذه المرة فى القبض على المنذر ونفيه إلى صقلية . وقطع المعونة الى كانت بنزنطة تقدمها إلى دولته .

وحاول أولاد المنذر الغسانى أن يتأروا له فشبت المنازعات بيبهم وبنن البرز نطيين . وكان على رأسهم أخوهم الأكبر النعمان ، الذي سماه أبوهباسم خصمه أيضاً . ولكن محاولاتهم لم تجد وتشتت شمل أسرتهم الحاكمة مند عام ٥٨٣ أو ١٨٤م ففقدت ملكها الواسع وهبط زعماوُها الكبار إلى مرتبة الإمارة وترأسوا مناطق متفرقة من ملكهم القديم ـ وقيل إن بعضهم مال إلى جانب الفرس نكاية في الروم . وأضعف من آمال الغساسنة في استرجاع مجدهم استيلاء جيوش الفرس على بلاد الشام في عام ٦١٣م . ولم يكن من المنتظر أن يطسئنوا إليهم بعد عدائهم الفديم لهم و لحلفائهم . ثم سنحت الفرصة الغساسنة من جديد بعد نجاح جيوش هرقل قيصر الروم في إجلاء جيوش الفرس عن الشام فى عام ٦٦٩م . ويبدو أن ساسة الروم أدركوا أن لا أمان للأطراف الصحراوية وقوافل التجارة البرية إلا إذا عادت الزعامة إلى أهلها من الغساسنة ، ومن هنا ظهرت أسماء أمراء جدد عاصروا ظهور الإسلام ومنهم الحارث من أبي شمر الغساني أمر مؤتة الذي أرسل الرسول عليه السلام إليه مع شجاع بن وهب في العام السادس للهجرة بكتاب بقول فيه ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبى تيمر . سلام على من اتبع الحدى وآمن به وصدق . وإنى أدعوك آن توُّمن بالله وحده لاشريك له . يبقى لك ملكك » . وأنى الحارث الإسلام. فسىر الرسول عليه السلام حملة صده بقيادة زيد بن حارنة الكلبي .

م جبلة بن الأيهم آخر الأمراء الكبار من الغساسنه ، وقد عادمر الفتح الإسلام للشام . وقيل إنه أسلم في عهد عمر بن الحطاب ثم ارتد عن الإسلام لأسباب اختلفت روايات المؤرخن بشأنها .

تنقل الغساسنة فى أيام ازدهار دولتهم بين أكثر من عاصمة ، ؤذكر المورخون المسلمون من عواصمهم جلتى (التي قد تكون جلين الحالية أو الكسوة على بعد عشرة أميال جنوبى دمشق) ، والجابية فى منطقة الجولان ولازالت البوابة الغربية للمشق القدعة تسمى باسمها .

وبعد أن تحضرت جماعات بي غسان في بلاد الشام. أولت

اهتمامها لمشروعات الرى والزراعة واستفادت منها لاسيا فى إقليم حوران ، يحيث ذكر لها نحو ثلاثين قرية . غير أن أمور الحرب وحماية القوافل ونجارة الوساطة ظلت هى الغالبة على أوجه نشاطها .

واشبرت من مدن التجارة الحارجية ومراكز القوافل في أيامهم مدينة بصرى عاصمة إقليم حوران ، وقيل إن الرسول عليه السلام قصدها للتجارة مرتين في شبابه وقابل فيها بحيرا الراهب . وكانت من مراكز الحضارات الهيلينستية والرومانية القديمة .

ثم مدينة الرصافة شمال تدمر ، وقد جدد الغساسنة كنائسها وأدير بها واشهرت بقديسها المسيحى مارسر جيوس الذى خلع اسمه علها فسميت Sargio-Polis وكان نصارى الشام يتيمنون به وبصورته ويعمدون أبناءهم فى كنيسته. ولازالت أطلال بوابات الرصافة القديمة وصباريج مياهها قائمة ، على الرغم من تخريب جيوش الحيرة لها أكثر من مرة ، وفعل توالى الأزمان علها .

وانتفعت حضارة الغساسة بالحضارات الشامية المحلية والبيزنطية والساسانية فضلا على ميولها العربية . وكان شأنها في ذلك شأن الحضارة الأموية فيا بعد حيا استكلت عناصرها المتعددة في دمشق وما حولها . وترتب على ذلك أن نسب المؤرخون المسلسون آثار كل من الغساسنة والأمويين إلى الآخر . ومن أشهر هذه الآثار قصران : القصر الأبيض بجوار منطقة المارة . وقصر المشتى وكان يقوم في الناحية الشرقية من نهر الأردن حتى نقلت أحجاره إلى متحف برلين وأعيد تركيبا فيه في أوائل القرن الحالى . ويذهب بعض المستشرقين إلى إرجاع المراحل الأولى في بناء القصرين إلى ما قبل استقرار الغساسنة في الشام .

وأبقى على ذكر الأمراء الغساسنة فى التاريخ المسيحى ما أسلفناه من أنهم كانوا من أكبر أنصار مذهب الطبيعة الواحدة . أى المذهب المونوفيستى أو المذهب اليعقوبى . وكانوا ينيبون علهم قساوستهم فى حضور المجامع الدينية الكبيرة التى حاولت أن توفق بين المذاهب المسيحية المتنافرة .

وخالد ذكر أمراء الغساسنة في الأدب العربي ، شاعران ، النابغة الذبياني الذي قصدهم بعد أن تخاصم مع ملوك الحيرة ، فكان من لطيف وصفه لهم قوله :

ولاعيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتاثب

ثم حسان بن ثابت الدى يرجع نسبه إليهم، وقد نزل بلاطهم قبل الإسلام وحظى بإنعاماتهم، ووصف نعيمهم وترفهم، حتى بعد أن خبا نجمهم ، وذكر أن نفوذهم كان لايزال ممتد فى أيامه بين حوران وبين خليج العقبة.

من المؤلفات الختارة في دراسات الفصل :

خالد العسلى : الحيرة وعلاقتها بالجزيرة الغربية – مجلة العرب – يونيو ١٩٧٣ – س ١٩٧٠ – خالد العسلى : ١٩٧٨ ، يوليو ١٩٧٣ – ص ٤٢٤ – ٩٣٥ .

ديسو (رنيه) :العرب في سوريا قبل الإسلام--قرجمه عبد الحميد الدواخلي-القاهرة ١٩٥٩. صالح العلى : منطقة الحيرة – مجلة كليّة الآداب مجامعة بلدادً، ١٩٦٢.

فيليب حتى : أتاريخ العرب - آرجمة بيربوت ١٩٦٥ .

: وللكه (تيودور) . أمراء غسان من آل جفنه – ترجمه بيروت ١٩٣٣ .

يوسف رزق الله غنيمة أو الحيرة - بغداد ١٩٣٦ .

الفصل ليمس عسنر

مملكة كندة في نجيد وما حولها

لقبائل كنده تاريخ قديم قد لاتتأخر نشأته عن نشأة تاريخ تنوخ وقد امتدت أيامها حتى نافست المناذرة والغساسنة في عنفوان مجدهم ولكن أحاط الغموض بتاريخ كندة أكثر مما أحاط بتاريخ هؤلاء وهؤلاء ويرجع هذا الغموض إلى عدة أسباب ، أهمها أنه لم تكتشف لجماعات كندة آثار قائمة مهمة أو نصوص وهيرة ، وأن وجودهم في أغلب عهودهم في قلب الهادية أقصاهم إلى حد ما عن معرفة المؤرخين الكلاسيكين والبرنطين فيا خلا إشارات مختصرة دكرها عهم كل من بليني وبطلميوس وننوسوس وبروكوبيوس ، ومالالاس ، وثيوفانيس ، ويوشع ، وهي في مجملها إشارات تحتمل كثيرا من الجدل . ثم إن أوانل المؤرخين والأدباء المسلمين الذين كتبوا عن كندة وملوكها تاثروا إلى حد ما عيولهم القبلية ، ونقلوا الذين كتبوا عن كندة وملوكها تاثروا إلى حد ما عيولهم القبلية ، ونقلوا الغين مصادر متضاربة فخرجت أخبارهم عنها متباينة مختلطة .

واستفادت أغلب روايات المؤرخين والأدباء المسلمين القدامى من مؤلفات هشام بن محمد الكلبى المفقودة الآن للأسف وأخصها « كتاب ملوك كندة » وكتاب الكلاب الأول، وكتاب الكلاب الثانى . . . إلخ . كما استفادت أغلب الدراسات الحديثة عن كندة مما حققه المستشرق جونار أولندر عن « منوك كندة أو أسرة آكل المرار » في مؤلفه المنشور في عام ١٩٢٧

ثم نشرت في الأعوام الأخيرة بضعة نصوص سيأية وحمرية ألقت ضوءا جديدًا على نشأة كندة وأرجعتها إلى عهود أقدم مما تخيله المؤرخون المسلمون عنها . وسوف نبدأ بما أتت به المصادر الإسلامية القديمة ونستعين بما حققه أولندر مأبا . ثم نعقب أخيرا بما أصافته حديثا قرآءة النصوص الأثرية القديمة إلى المعروف عن تاريخ كناءة .

رد أغلب المؤرخين المسلمين كندة إلى أصل قحطانى ، ورووا أنها أقامت فى بداية أمرها فى شرقى الهن وغرى حضرموت . تم احتدمت المنازعات بينها وبين الحضارمة إلى أن تركت موطنها ونزحت إلى الشمال و تعاقب على كندة روساء لفهم المؤرخون المسلمون بألقاب الملوك ونسبوهم إلى جد أعلى يدعى ثور ، واختلفوا فى حقيقة عددهم وفى مدد حكمهم . وبعد أمد ما تحالفت كندة مع الحميريين لتكون لهم مثل اللخميين بالنسبة للفرس . فى عهد الملك الحسيرى أب كرب آسعد (الملقب بلقب تبع الأكبر) أوولده فى عهد الملزار على آرض معد فنزل ببعض عاقل بنجد ، وأغار بيكر فانتزع ما كان المرار على آرض معد فنزل ببعض عاقل بنجد ، وأغار بيكر فانتزع ما كان بأيدى اللخميين من أرض بكر . وكان أب كرب أسعد قد بلغ فى هذه النواحى وادى مأسل الجمع جنوب شرق اللوادى ، وسجل اسمه على صخرة فيه .

وانتشرت كندة فى أرض نجد وما فى شماها وتصادمت مع الضجاعمة وحلفائهم الغساسنة على أطراف الشام ، كما تصادمت مع المناذرة على أطراف العراق .

وولى بعد آكل المرار ولده خرو بن حجر الذى لقب بالمقصور ربما له لمبوط همته ولأن الظروف قصرت حكمه على جزء من ملك أبيه دون ملك كله . (فاكتفى بمناطق ربيعة ومعد فى أجد وتخلى عن اليمامة لأخيه) وعوض هذا القصور بصداقاته وولائه لجيرانه الحميرين واللحميين ، ومحاولته الإغارة على أملاك الغساسنة .

وخالفه و لده الحارث بن عمرو الكندى فى نهاية الفرن الحامس الميلادى كما يعتقد أولندر ، وكان أشد صلابة منه ، وامتد حكمه على قبائل بكر بن وائل التي رغبت فى الاحتماء بسلطانه حن نزحت هى وقبائل تغلب من

أرض اليمامة بحو الشمال بعد أن مزقتها حرب البسوس . تريدان النزول فى البحرين والعراق .

وسنحت المرص لعلو سأن الحارث الكندى نتيجة لأمرين، وهما انتقال صيته إلى فارس بعد أن أغار أتباعه البدو على حدود العراق وحوافه الزراعية وفشلت جيوش الحيرة فى إخضاعهم . ثم رغبة الملك الفارسي قباذ فى إيجاد منافس قوى أمام المنفر الثالث ملك الحيرة حتى لاتزيد أطساعه بعد انتصاراته الأولية على الغساسنة ، وبعد أن وصل إليه رسل قيصر الروم يفاوضونه فى فك أسراهم أو يغرونه بالانضام إلى صفوفهم أو مهادنة أنصارهم ، كما سلما القول من قبل ، وربما كتغيير يناسب الحركة المزدكية في فارس .

و ذكر المؤرخون المسلمون أن قباذا ملك الفرس أقر الحارث الكندى على ما استونى رجاله عليه من أطراف العراق ، وأصافوا أنه استقباء بنفسه عند قنطرة الفيوم (قرب هيت) في العراق . وبعد ان أطمأن قباذ إليه عزل المنذر الثالث وولى الحارث الكندى على أطراف العراق فحكها من الحيرة أو من الأنبار ، وكان له أولاد كثيرون ولاهم روساء على القبائل العربية منذ أن ذاع صيغه في المادية وخلال حكمه لمملكة الحيرة بوجه خاص ، وأسند الى أكرهم حجر رياسة قبائل أسد وكنانة (أو بني أسد بن خزعة وغطفان) وكانت أسد قبيلة كبيرة تركزت في جنوب جبلي على على جانبي وادى الرمة وتوزعت بطونها فيا قبل بن المدينة وبن الفرات . فقبلت رياسته على مندنس حيث قبل إنه لم يكن يقم فها وإنما كان يقم في تهامة وبيعث رسله ليجمعوا الإتاوة منها . ثم نشجع عما مارت إليه رئاسته فتن هحمات خاطعة على حدود الغساسنة . ونجرأ أخوه معد يكرب عمل جرأته وكان يلي قيس عيلان فأغار على حدود فسطن وأوعل فيها حتى أوقد قيصرالوم أناستاسيوس عيلان فأغار على حدود فسطن وأوعل فيها حتى أوقد قيصرالوم أناستاسيوس عيلان فأغار على حدود فسطن وأوعل فيها حتى أوقد قيصرالوم أناستاسيوس عيلان فأغار على حدود فسطن وأوعل فيها حتى أوقد قيصرالوم أناستاسيوس

و هكذا زاد شأن الحارث الكندى.واستسر على حكم الحيرة وما جولها ، ولكن لفتره قليلة تتراوح بين ثلات وأربع سنوات (٥٢٥م - ٥٢٨م) تم ما البثت الآية أن انقلبت عليه حين توفى ملك الفرس الذى ولاه وعضده . وكان المنذر الثالث قد لجأ بعد عزله إلى بعض حلفائه من القبائل واستجمع فواه بينهم ثم عاد ليسترجع ملكه . ووجد التأييد من ملك فارس الجديد كسرى أنو شروان الذى سمح له باستعادة ملك الحيرة ، وعزل الحارث الكندى ففر وتبعته جيوش المنذر ، واختلفت الروايات العربية فيما إذا كان أفلت منها أم قتلته .

وأدت هزيمة الحارث أو قتله إلى أن انقلبت القبائل الحاضعة له ضد آله وبديه بحيت قيل إن تغلب سلمت تمانية وأربعن فردا من أسرته إلى المنذر فأمر بضرب رقابهم جميعا . ونعاهم امرو القيس كثيرا في شعره . وكان شر البلية أن تناحر أبناء الحارت بعضهم مع بعض حتى دهبت ريحهم فقيل على سبيل المثال إن ولدا للحارث يدعى شرحبيل كان بحكم قبائل بكر بن وائل وما والاها من قبائل المنطفة الشرقية اختلف مع أخ أصغر له يدعى مسلمة كان بحكم قبائل تغلب والنمر بن قاسط . وزكى المنذر ملك الحيرة الفرقة بين الأجن ، فتقاتلا وأضعف كل مهما هيبة الآخر ، فتنمر المما أتباعهما وحلفاؤهما إلى أن قتل الأول فيا يسمى يوم الكلاب وهو ماء بين البصرة والكوفة ، وفر الثانى ، فكر المنذر ملك الحيرة عليه بجيشه ماء بين البصرة والكوفة ، وفر الثانى ، فكر المنذر ملك الحيرة عليه بجيشه وقتل من اتباعه خلقا كثيرا .

أما أسد فقد زاد حقدها على ولده حجر ، ولمسا اشتد وعماله عليها تمكنت من قتله والفتك بأهله في ظروف اختلف الرواة في تصويرها .

وهكذا تشتت أفراد أسرة آكل المرار وفت في عضدهم أن ضعف شأن حليفهم حمير واحتل الأحباش المسيحيون اليمن في عام ٢٥٥م ، فلم يبق لحم نصير خارجي لا من الفرس ولا من اليمن ولامن الروم ولا من أنفسهم بعد أن فرقت المطاسع صفوفهم. وكان لحجرعدة أبناء أصغرهم هو امرؤ القيس الشاعر وكان ميالا للهو مع شهرته في الشعر . وكان أبوه فيما ذكرته الروايات العربية قد تبرأ منه في حياته حتى يقلع عن لهوه وشعره ففار قه وظل على سفره ولهوه حتى أتاه نعيه وهويشرب ويسمر في دمون من أرض حضرموت فقال حلته المأثورة «ضيعتى صغيرا وحملي دمه كبيرا، الاصحو اليوم ولاسكر غدا،

اليوم خمر و غدا أمر » . و استنصر أمرو القيس قبائل بكر و تغلب على بنى أسد قاتلى أبيه . فاستعصم بنو أسد ببنى كنانة تم تركوهم . و تعقبهم أمرو القيس كلفائه و التحم معهم فى معركة صارية و لكنهم هربوا منه بليل . و اكتفت بكر و تغلب نما حدث و تفرقت عنه .

وأني امروا القيس إلا المضى في الانتقام لأبيه ، فمضى يستنصر عرب العراق تاره وعرب البين تارة أخرى وظفر ببعض بطوعهم وقيل إنه مثل بها تمثيلا شديدا . تم أحل الحمر لنفسه . (ولو أن شاعر بني أسد عبيد بن الأبرص نفى في شعره تمكن امرىء القيس من قومه . وأخاب بروايته بعض المؤرخان) .

· وكان روَّساء الحيره لايزالون يكنون البغضاء لكندة ، فتعقبوا امرأ القيس وشر دوه . . . ، وتشجعت عليه قبائل أسدٍ ومعد . وتفرَّق عنه أتباعه . ففر بأهله وأسلحته وماله وظل يتنفل بهم والمكاثد تلازمه بين بنى يربوغُ ، وإياد . وطي ، وفزارة ، ثم ارتحل إلى تيماء ويبلو أنها كانتُ تحت ووثاسة قريب له من كندة يدعى قيس، وإن كانت بعض الروايات قد اكتمت من قصته فيها بأنه أودع أهله ودروعه اعتد السموأل بن عاديا صاحب الحصن الأبلق ورجاه أن يوصي به الحارث بن أنى شر الغسانى . ثم قصد بلاد الشام ونم شعره عن أنه مر فها عوران وبعلمك وحمص وحماة . . . ومن هناك أوفده الحارت النساني بَرْكية منه إلى قيصر الروم في القسطنطينية ، حيث مات فيها مريضا أو مسموما : أو مات أأثناء رجوعه منها في فترة مايين ٥٣٠ و ٤٠ م من عبل أن تحقق هدفه : وأضافت الروايات نفسها أن بعض أعدائه أو بعض أنصاره عندما تحققوا من وفاته طالبوا السموال بودائعه فأنى ، فحاصروا حمدنه وقتلوا ولده . ولكنها اختلفت فيمن طالب السدوأل وحاصر: ، إن كان الحارث بن أبي نتبر العمالي ، أو الأبرد ابن عمه ، أو الحارث بن ظالم حليم المنذر ماك الهجرة . ونظر بعض المؤرخين المحدثين ومنهم فنكلر ومارجوليوب إلى المشكلة من وجهة نظر أخرى: فقد لاحظوا أنه أشاع النصة وأشاد بوفاء السموأل مصدر بهودى يتمثل فى دارم بن عقال الذر قبل إنه كان من نسل السموال ، وسعية بن عرد ، وعيرهما من رواة البود ، ثم الأعشى الشاعر الجاهلي . ورأى فنكلر علامات الشك تتملة فرجح أن تكون قصة السموال قصة موضوعة استوحاها رواة البهود هولاء من بعض قسم التوراة وأشاعوها تمجيدا لقومهم ، ثم رددها بعض الأخبارين بعدهم وأعجبوا بها لمسا اصطبغت به من روح الوفاء والإباء الحببة إلى العرب .

واعتاد الباحثون في تاريخ كندة أن يقفوا قليلا عند قصة ذهاب امرئ القيس إلى القسطنطينية ومصره فيها . حيت لم تذكر المصادر البرنطية شيئا عن امرىء القيس هذا ولا عن زيارته لعاصمها من طرف صريح ، وإن أشارت في مناسبات أخرى متفرقة إلى أن أعوان القيصر كانوا يقربون بين مشايخ العرب وملوكهم الصغار وبين قيصرهم ويشجعونهم على زيارة بلاطه أو يسعون عنده في أن في يسمح لهم بزيارته في عاصمته .

ويفهم من بعض هذه المصادر على سبيل المثال أن شيخا من شيوخ العرب الكبار يسمى امرأ القيس ارتحل من نواحي العراق إلى دومة الجندل واتخذها مركزا لغزو جنوب فلسطين وساحل البحر الأحمر أوساحل العقبة واستولى على جزيرة فيه . ثم اتصلت الأسباب بينه وبين الأسقف العربي بطرس فأقنعه بمهادنة الروم والسعى إليهم . وسعى له هو عند القيصر ليو حتى دعاه إلى القسطنطينية حوالى عام ٧٧٤م فزاره وتنصر . وأفره على أرضه ولقبه بلقب فيلار خوس . وليس لامرىء القيس هذا صلة بامرى، القيس الشاعر وهو يسبق عهده بأكثر من نصاف قرن .

وبين القيصر يوستينيانوس (جوستين) . وكان أبو كرب يتزعم قبيلته في جنوب فلسطن . وله واحة هناك كتيرة النخيل تقرب بها إلى القيصر قفيله منه ولقبه هو الآخر بلقب فيلار خوس . وجاور أرضه أعراب من معد كانوا يدينون بالولاء للحميرين ، مما يحتمل معه أنهم كانوا من كندة . وأراد أن يستعن بالفيصر ضدهم .

وذكرت رواية أخرى أن الامبر اطور يوستنيانوس أرسل رسولا إلى سميفع إشوع المسيحي عامل الأحباش على اليمن . يدعوه إلى أن يصفح عن رئيس عربي يدعى قيس ويعاونه على رياسة معد ويتعاون معه على غزو أملاك فارس – وكانت هذه السفارة قبل عام ٣١٥م ولم تحفق غرضها – إما للخوف من فارس أو لأن سميفع لم تكن له سياده فعلية على معد نعيت يولى قيسا علمها .

ودكر الكاتب الميزنطى نونوسوس ما أسلفناه من قبل من أن الفيصر أناستاسيوس أرسل وفدا برئاسة جده إلى الحارث ملك كندة ومعد بعد أن تعددت إغارات ولده معد يكرب على حدود فلسطين . كما أرسل القيصر يوستيبايوس وفدا برئاسة أبيه أبراهام ليقابل فيسا حميد الحارب (ولعله ابن معد يكرب) ليعقد حلفا معه . فقابله وأخد منه ولده معاوية إلى الفسطنطينية كرهينة على وفانه . ثم كلف القيضر نونوسوس نفسه بأن يدعو قيسا (الكندى) إلى القسطنطينية فاصطحبه معه إليها ثم أرجعه إلى بلده بعد أن أقره على ولاية جزء من فلسطين . وليس قيس هذا بطبيعة الحال هو امرو القيس الشاعر الذى دكر المؤرخون وفاته حسرته قبل أن تتعتقق أمنينه بالعودة إلى بلده معززا مكرما . وإن افترض بعض الباحثين احمال محبته لقيس هذا وهو من أبناء عمومته في رحلته وعودته معه وإن اهتم الرواة المسلمون بقصته هو وتناسوا ابن عمه .

أسلفنا أن نمة صوءا جديدا ألقته النصوص السبأية الحميرية المكتشفة حديثا على بداية تاريخ كندة ، وأن أهم ما أضافته هو الرجوع بهذا الناريخ إلى أبعد مما ذهب به المؤرخون المسلمون وإلى ماحول ميلاد المسبح عليه السلام ، وأن كندة ارتبطت في نشأتها بالعرب الثماليين أكثر مما ارتبطت بالعرب الجنوبيين على عكس ما رواه أغلب المؤرخين المسلمين . وأن الجنوبيين على عكس ما رواه أغلب المؤرخين المسلمين . وأن الجنوبيين كانوا ينطقون اسمها كدة بدال مشددة مما قد يعني أن اسمها لم يكن من اسمأتهم فحرفوه .

ويرجع أقدم هذه النصوص إلى عهد شعر أوتر ملك سبأ و دوريدان فى أواخر القرن الميلادى الثانى ، وهو ملك عمل أن بجمع شمل المناماق العربية الجنوبية وأن يقصى شبه النفوذ الحبسى عن ساحل تهامة كما ذكرنا فى سياق الفدرل العاشر . فتعددت معارك جيوشه فى حصر موت وفى ردمان و على ساحل تهامة الجنوبي وفى نجران .

ومن نجران اتجهت قواته إلى قرية ذن كاهل ولعلها كانت قريبة من الفاو الحالية ونسبت إلى معبودها كاهل، وحاربت « ربيعة ذو آل نور ملك . كده و قعطان » . و هو ملك قد ينتمى إليه معاوية بن ربيعة ملك قحطان ومذحج الذى ذكره نص من قرية الفاو أيضاً .

وكان الرحالة بليني قد ذكر في أوائل القرن الأول الميلادي منطقة «آل ثور » هذه، مع ملاحظة ان المؤرخين المسلمين قد ردوا نسب ملوك كندة إلى « ثور » فعلا واعتبروه رجلا (وقد يكون معبودا قديما عبدوه) .

وذكر الجغرافي بطلميوس السكندري اسم العاصمة « ماؤوكسموس» كعاصهمة لكندة في القرن الثاني الميلادي .

وبالاستفادة من هذه المدار مجتمعة وبخريطة بطلميوس الجغرافي السكندرى التي أثبتها في كتابه . يذهب الرأى الحديث إلى الاتجاه بديار كندة الأولى إلى ما في شال نجران في منطقة الأفلاج والعارض وجبل طويق في قلب نجد . وإذا صنت قراءة قحطان التي تنضمها نص شعر أو تر و ذكر ارتباطها بكندة وخصوعه ، ا معا لملك واحد يدعى ربيعة و من بعده لو لده؟ معاوية ، فإنها قد تعنى منطقه ما من أرض قحطان الواسعه في خولان الشمالية التي تمدد بن شمال شرق جيزان وبين شمال نجران .

وبعا، جيل أو نحوه فى أوائل القرن الثالت الميلادى . روى نص منعها إياشرح بحضب وأخيه يأزل بين ملكى سبأ وذوريدان خبر حرب شنتها قوات هذين الملكين ضد مالك (؟) ملك كندة وشعب كندة (كدة) لموازرته لامرىء القيس بن عوف ملك خصاصة ، وأسرت هذه القوات

قادة كنده واحتجزتهم فى مأرب حتى سلموا الغلام (امرأ القيس) لملكى سبأ و ذوريدان و تركوا أبناءهم رهائن. لديهما، وأدوا الجزية والفدية من الحيول والإبل و المتاجر . وربما قامت خصاصة هذه حليفة كندة قريبة من منازلها فى شمال تجران ، إلى ألقرب من بيشة وإلى الجنوب الغربى منها .

وبعد قرن تقريباً وفى أوائل القرن الرابع الميلادى تحدثت نصوص شهر عن الثالث ملك سبأ وذوريدان عن كندة ومذحج كأحلاف له ثم كأتباع له . وكانوا فى الحالة الأولى لايزالون فى منطقة الأفلاج فى قلب نجد ، ومثلت كندة القبيلة الرئيسية فى مذحج . وتعاونوا جميعاً مع قواته على مهاجمة أرض تنوخ فى المنطقة الشرقية على الحليج العربي وما يمتد مها إلى جنوب العراق . ولكن ضربة مضادة وجهت إليه وإليهم فى أواخر عهده على يد ملك تنوخ امرىء القيس بن عمرو الذى استشهدنا بملخص نصه العربى المتأثر قليلا باللغة الآرامية واللهجة النبطية فى الفصل الرابع عشر، وبما ذكره فيه من أنه حاصر نجران مدينة شمر (يهرعش) وشتت (حلفاءه) قبائل مذحج عن أرضها . وهاجرت هذه القبائل حينذاك ومعها كندة إلى دولة حليفها شمر بهرعش فى الجنوب ، وأصبح رجالها من فرق الأعراب فى جيوشه . وأقطعهم منطقة أوسان ومضحاى القديمة فأصبحوا سادتها تحت حكمه .

واستمر وضع مذحج وكندة هكذا فى عهود خلفاء شربهرعش ، فطهر رجالهما بين الأعراب فى جيوش ياسر بهنعم الثالث وذراً أمر أيمن ملكى سبأ وذوريدان فى حوالى عام ٣٣٠م ، كما ظهروا بعد نحو قرن من الزمان بين الأعراب فى جيوش أب كرب أسعد وولده حسان بهامن فى حملها على أرض معد فى وادى مأسل حمح ، فى بداية القرن الحامس الميلادى .

ومربنا فى الفصل العاشر كذلك أن النصوص الحميرية القديمة والروايات العربية معا قد نسبت إلى أب كرب أسعد وولده حسان فى فترة اشتراكهما فى الحيكم مجهودا حربيا فى منطقة (أحلاف) معد . وفى بعض نواحى الحجاز من ناحية ، وحنى الربع الحالى فى أو اسط شبه الجزيرة العربية من ناحية أخرى ، وأنه كان من بين قواته الراكبة رجال مذحج وكندة . وبالربط بين هذا العهد وبين ماكان يجرى خارج حدود اليمن يتضيح أنه كان يعاصر

نهصة اللخمين على حدود العراق ووثيق صلبهم بفارس فى عهد النعمان الأول. وهكذا يبدوأنه كان من أهداف حملة أب كرب أسعد التى اصطحب معه فيها كندة ومدحج إعادة كيان إمارة كندة فى الشمال تحت طاعة دولة سهأ وذوريدان (أو حمر) أو فى حلفها ، لكى ترأس قبائل معد العدنانية وتقف فى وجه التوسع اللخمى المنتظر من ناحية . وتومن الطرق التجارية المتجهة إلى نجد وإلحجار وما ورائهما من ناحية أخرى .

ومن هنا تلاقت النصوص السبأية القديمة مع الروايات العربية التي روت أن تبعا (أب كرب أسعد) وهو في طريفه إلى أرض العراف نزل بأرض معد فجعل حجرا بن عمرو الكندى ملكا هناك . وإذا كانت قد خلطت بين أب كرب وبن ابنه حسان في هذا الأمر فذلك يرجع إلى اشتر اكهما في الحكم معا لفترة طويله .

وقامت كندة بدورها حتى الربع الأول من القرن السادس ، وفيه احتذم التنافس بين القوى الثلاث الكبيرة فى شبه الجزيرة العربية وعلى أطرافها ، وكل منها تجد خلفها من يؤيدها ، نعنى بذلك مملكة الحيرة فى عهد المنذر الثالث (٢١٥ – ٥٥٥م) وتؤيدها دولة الفرس ، ومملكة الغساسنة فى عهد الحارث بن جبلة (٢٨٥ - ١٩٥٠م) وتؤيدها دولة الروم . ومملكة كندة فى عهد الحارث بن عمر و بن حجر (٢٨٥ – ١٥٥ م) وتؤبدها دولة عمر (سبأ و ذوريدان) - وعن مرحلة من مراحل هذا التنافس تحدث نص سبأى قديم عن خروج قوات معد يكرب ملك سبأ و ذوريدان مع مذحج وكندة فى عام يفع بن ٢٥ و ٢٢٥ و ٢٢٥ م المحدة الاستقرار إلى منطقة بني ثعلبة و مضر بعد مشاكلهم مع المنذر ملك الحيرة .

و هكذا يدضع إلى أى مدى أفادت النصوص القديمة الأصيلة فى توضيح التاريخ العربى القديم وتحقيق قضاياه ، وكلما زاد المكتشف منها وتحت حصيلته .

من الموثلفات المختارة في دراسات الفصل:

أولندر (جونار): ملوك كندة من أسرة آكل المرار - ١٩٢٧ - ترجمة بغداد - ١٩٢٧ م.

جواد على : المرجع السابق – مادة كندة – ج ٣ ، ٣ ، ١٠ .

عبد الرحمن الأنصارى : أضواء جديدة على دولة كندة من خلال آثار قرية الفاو ونقوشها – نى مصادر تاريخ الجزيرة العربية –, الرياض ١٩٧٩ – ج ١ ، ص ٣ – ١١ .

يوسف محمد عبد الله : أوراق في تاريخ اليمن وآثاره -- ج ٢ -- ص ٨٩ -- ١٣١ .

Jamme, A., Sabaean Inscriptions from Mahram Bilqis; Sabaean Rock Inscriptions from Qaryat al-Faw, Washington 1973.

لفصل لسادس عشر

تحول مركز الثقل إلى أواسط الحيجاز في مكة ويثرب

من معانى الحجاز فيا ذكرته المعاجم العربية معنى الحاجز بين الغور وتهامة وهو هابط . وبين نجد وهو ظاهر . أى بين السهل انساحلى الموازى للبحر الأهمر فيا يمتد من اليمن جنوبا إلى خليج العقبة شمالا . وبين مرتفعات هضبة نجد . وتعتبر سلسلة جبال السراة هي العمود الفقري لهذا السهل وقد تخللت حافتها الداخلية عدة وديان من أهمها وادى القرى الذي تميزت من مدنه الرئيسية كل من مكة ويثرب . بعد أن ورتت كل منهما نصيبه مما كانت تنعم به المدن القديمة الواقعة إلى شمالهما مثل : مدين ولحيان وحجر محود وحجر الأنباط، ثم مارست كل منهما نهضتها الحاصة فيا بين القرن الخامس وبداية القرن السابع للميلاد .

وتفع مكة فى واد شحيح الماء والزراعة أشبه خوض جبلى تحوطه مرتفعاتالسراة الجرداء، وتشتد حرارته صيفاً كما يشتد جفافه فيقال أخطار أوبئة المناطق الحارد على أهله .

وبديبى ألا يكون للتنقيب الأثرى دور هام فى تآبيع ماصى هاتين المدينة ن نظراً لما تحيط بهما من قداسة خاصة وحرمة دينية ، الأمر الذي يكاد يقصر مصادر تاريخهما حتى الآن على بعض المأثورات الدينية . والروايات العربية ، وبعض الملابسات الحارجية .

وقد خص القرآن الكريم مكة بماض تاريخي بعيد ببعا لقيام البيت الحرام فيها ، والذي قال فيه (إن أول بيت وضع للناس للذي بيكة مباركا وهدى للعالمين) . ويبدو أن قدم هذا البيت لم يبدأ بالضرورة بعهد إبراهيم عليه السلام في حوالى القرن التاسع عشرقبل الميلاد كما افترض بعض المؤرخين

ولم يبدأ بالضرورة أيضاً منذ عهد آدم كما ذهبت إليه أقوال بعض المفسرين. وإنما قد يكنى فيه ما ينم عنه ظاهر قول إبراهيم عليه السلام (ربنا إنى أسكنت من ذريتي بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم . ربنا نيقيموا الصلاة فاجعل أفندة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثرات لعلهم يشكرون) - سورة إبراهيم ٣٧ - وفي هذا ما قد بعنى قيام البيت الحرام فعلا في صورة أولية من قبل عهد إبراهيم - وأن إبراهيم توخى حمايته وحرمته فاودع زوجنه هاجر المصرية وولده اسماعيل في رحابه . وذاك احتمال يزيد منطقية عما قيل من احتمال دعاء إبراهيم بالدعاء السابق وذاك احتمال يزيد منطقية عما قيل من احتمال دعاء إبراهيم بالدعاء السابق عقب بنائه البيت لأول مرة . وهو أمر لم يتم بطبيعة الحال إلا بعد أن انقضت على إسكانه أهله عنده سنوات طوال امتدت حتى شب إسماعيل عن طوقه وعاون أباه في البناء (أنظر سورة البقرة ١٢٧) .

ولعل البيت الحرم أو بناء الكعبة في صورته الأولية تلك كان هو المعنى بتسمية «البيت العتيق » التي ذكرتها له آيتان من سورة الحج (٢٩ ، ٣٣) ، إذا أخذت لفظة العتيق هنا بمعنى شدة القدم وهو الشائع ، إلى جانب معانى العتق والكرم والجمال ، كما تذكر قواميس اللغة . وإن كانت هذه التسمية قد انصرفت بعد ذلك إلى بقية صفات البيت الشريف واقترنت بها . ولعل الحجر الأسود أو الأسعد هو كل مابق من بنيان ذلك البيت العتيق ، أو هو ما أمكن الاحتفاط به منه ، ونتيجة لقيمته وندرته اكتسب شيئاً من علو المكانة وإعزاز الرسول له (والعرب ثم المسلمين بكافة) باعتباره أثراً جليلا فريداً من ماض كريم بعيد . وقد لا يكون من بأس بعد هذا الفرض جليلا فريداً من ماض كريم بعيد . وقد لا يكون من بأس بعد هذا الفرض المقترح من النظر كذلك بعي الاعتبار الروحي إلى بعض روايات المفسرين المهادمين عن ماضي الحرم والحبجر وارتباطهما بمعجزات سياوية لاتنطرق الإسلاميين عن ماضي الحرم والحبجر وارتباطهما بمعجزات سياوية لاتنطرق الوقت ذاته من تذكر مقولة عمر بن الحطاب رضي الله عنه عن هذا الحجر بما الوقت ذاته من تذكر مقولة عمر بن الحطاب رضي الله عنه عن هذا الحجر بمناف أبي والله الهول الى رأيت رسول المقاد و والله إنى لأعلم أنك حجر لايضر ولا ينفع وأدب الرسول .

وظل الحجر الأسود على طول الأمد علامة مميزة لبداية الطواف بالكعبة المشرفة .

ويبدو أنه عندما نقادم البيت العتيق وطال العهد به ، و هجر ماحواة وطمست بثر زمزم المجاورة له ، وانقطع بهدا رواده المومنون به أو كادوا ، تطلب الأمر الإلى إقامة قواعده من جديد ، وإعادة تعميره وإحياء شعاره . وتكفل إبراهيم بهذا وعاونه فيه ولده إسماعيل بعد أن شب عن طوقه -- في مثل قول الذكر الحكيم (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العلم) .

وغنى عن الذكر أن بناء الكعبة قد جدد أورم بعد ذلك أكثر من مرة ، وشارك أنرسول عليه السلام فى إحدى هذه المرات قبيل بداية بعثت الشريفة بقليل .

ور بما أوحى بنفس القدم البعيد للبيت، قول القرآن الكريم (وإد بو أنا لابراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائدين والركع السجود) — في سورة الحج ٢٦ — ٢٨ — وذلك بما يعني إلهامه أو إرشاده إلى موضع البيت الذي قام فيه ، أكثر منه إلى المكان الذي سوف يقيمه هو فيه ، ثم الإذن له بأن يعمل وولده على تطهير ساحته ر بما مما كان قد جد عليها من أصنام ومحرمات . وكان من دعاء إبراهيم وإسماعيل قولهما (. . . وأرنا مناسكنا و تب علينا إنك أنت التواب الرحيم) . وهو ما قد يعني بدابة تشريع هذه المناسك ، أو على الأرجح هدايتهما إلى ما غاب عبما منها والمسامحة حين النسيان والحطأ في أدائها .

أما عن نشأة البيت العتيق قبل أيام إبراهيم ، وصورة بنائه ، والقائمين ببنائه ، فكلها أمور يصعب البت فيها برأى شاف فى ضوء المعارف المتيسرة عنها حتى الآن . وحسبها إمكان تفسير أولوية هذا البيت على ماعداه بأنه أول بيت وضع للناس على الأرض لعبادة الله بخاصة ، وهى أفضلية تمايز بها عن المعابد أو بيوت العبادة فى الديانات الوضعية القديمة والتى كان منها ما سمى باسم البيت فعلا م مع اختلاف لفظه باختلاف لغة أهله – ونسبته إلى موضعه أو إلى معبوده الرئيسي فى كل من الحضارات المصرية والأشورية والكنعانية والآرامية والعربية القديمة أيضاً ه ،

ومن المسلم به أن إبراهيم عليه السلام لم يكن أقدم الرسل والأنبياء الذين دعوا إلى تقديس الله وحده فى بيوت العبادة، وإنما سبقه إلى مثلها، أو كلف مثلها، أنبياء آخرون. وإذا كان قد اعتبر أبا الأنبياء فإنما يعنى هذا أبوته الشريفة البعيدة لأنبياء الإسلام والتوراة أو العرب والهود.

ولعل مثل هذه الفكرة بقدم كيان البيت عن عهد إبراهيم كانت من وراء قول بعض المفسرين القدامى ومنهم البخارى بأن إبراهيم جاء بهجر وإسماعيل وهي ترضعه حتى وضعها عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد ، ولما فارقهما ووصل الثنية استقبل بوجهه البيت ودعا بدعائه (رب إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك الحرم) .

وعلى أية حال فإذا كان سياف البحث قد تطلب التطرق هذا إلى مسائل دينية أمكن التحاور عن الحوض فى أمثالها فى بقية فصول هذا الكتاب ، فإن اختلاف التفاسير أمر مسموح به فيا لا يمس الفرائض وجوهر الغقيدة . ولن نعيد هنا ماقامت به بعض كتب التفاسير والتاريخ من تأكيد صلة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بمكة والحرم ، وقصة اللبيح، دون اسحق وبرية فاران الى قال بها يهود العهد القديم . إلا إذا كانت تسمية فاران هذه تسمية عبرية تطلق على مواضع منها مكة كا أخذ بذلك ابن منظور فى لسان العرب ، وهو ما تزكيه كذلك تسمية التوراة للابرب بالإشماعيلين نسبة إلى أبيهم إسماعيل حيثا امتد نشاط قبائلهم من شبه الجزيرة إلى جنوب الشام ، ثم قول سفر التكوين من التوراة ١٦ : ١١ فى صلة هاجر بإسماعيل : « وقال لها (أى لهاجر) ملك الرب ها أنت حبلى فتلدين ابنا و تدعين اسمه إستماعيل لأن الرب قد استمع إلى مذلتك » . وحينا أمر إبراهيم بالتضحية بابنه كان من المفروض أن يضحى ببكر أولاده وهو إسماعيل .

و نضيف هنا أنه إذا كان بعض غلاة اليهود قد حاولوا النشكيك فى فدم اسم إسماعيل الأب الروحى للعرب ، ومدى شيوعه فى العالم القديم ، فشمة ما يلقمهم حجراً فى وجود اسم « يشمع إل » معنى يسمع المد أو إسماعيل

فى نص أكدى عراقى يرجع إلى أكثر من أربعة آلاف عام، تم وجوده بعد ذلك فى نصوص نبطية وصفوية تسبق العصر الجاهلي والعصور الإسلامية .

* * *

تعددت الآراء قديماً وحديثاً في تفسير تسمية مكة . على نحو ما تعددت أمثالها في نفسير ما عداها من مسميات المواصع القديمة . وظهر من آراء النخويين المسلمين ماعقد الصلة بينها وبين ألفاظ عربية معينة تشبهها في الشكل والنطق أو في دلالة التقديدي . ومنها : المتك وهو امتصاص الماء حين قلته . وامتصاص الفصيل للضرخ وريما امتصاص الناس إلى مكان ما . والمتلك وهو القدرة على إصعاف الجبارين . والمكوث وهو المكان الهابط بين مرتمعين . وريما الملك أيصا أو المكاء وهو طواف بعص الجاهليين بالصفير أو التصفيق .

و لما لم يكن فى كل هذه المشتفات ما يشبى الغليل . انجهت آراء حديثة إلى عقد المقارنات بين اسم مكة وبين بضعة ألفاظ من لغات أو لهجات أخرى قريبة الصلة باللغة العربية الشمالية . ومنها لفظ مكربة أو مكارابو فى اللغة العربية الجنوبية بمعنى التقديس والتقريب وهيكل القربان . وقد شابه هذا اللفظ الأخير ما أشار إليه الرحالة بطلميوس السكندرى من وجود مدينة عربية تسمى ماكورابا Macoraba سبق إنشاؤها بطبيعة الحال العهد الدى عاش فيه وهو منتصد القرن النائى للميلاد.

واقترح رأى آخر تقارب اسم مكة مع لفظ مك البابلي بمعنى البيت عيث إذا أضيفت كلسة رب ليكون « مكرب » كان معناه بيت الرب (على سبيل الاحمال) .

وإذا جاز عقد مثل هده الصلة مع لغة أخرى من خارج شيه الجزيرة العربية فلا باس من أن تضاف إلها مقارنة ثانية ، وهي وجود الفظ مكة في اللغة المصرية القديمة ذات الصلة بمجموعة اللغات السامية. واستخدامه عا يعني « الحماية » و « سلامة الوضع ».وكما لم تكن اللغة البابلية غريبة تمامآ

على إبراهيم عليه السلام مع ماقيل عن هجرته الأولى من جنوب العراق إلى جنوب الشام . فإن اللغة المصرية القديمة لم تكن غريبة كذلك عن إسماعيل عليه السلام مع بنوته للسيدة هاجر المصرية التي اصطحبته إلى مكة فى رفقة إبراهيم . وما قيل كدلك في سفر التكوين من أن زوجته الثانية كانت مصرية أيضاً . وعلى آية حال فإن الاستشهاد باللفظين البابلي والمصرى هنا لا يعنى بالضرورة أنهما يمثلان مع لفظ مكة العربي مسمى واحداً ، ولا يعنى أن أحد هذه الألفاظ الثلاثة قد اشتق من الآخر بالضرورة وإنما يكنى افتراض اشتقاقها حميعها من مصدرساى قديم يصعب الآن تحديده.

ورادف القرآن الكريم بين اسم مكة وبين اسم « بكة » في الآية الى بادأنا الاستشهاد بنصها آنفاً. وقال المؤرخون القدامي بأنهما يكونان اسهاو احداً معد فلب الميم باء على عادة بعض اللجهات العربية القديمة ومنها لهجة هوازن. أو يتكاملان بحيث تعبر بكة عن الكعبة والمسجد ، وتكون مكة هي ماحوله فيا سوى ذلك من بطن الوادى . أما من حيث الاشتقاق اللفظي فقد قيل باشتقاق بكة من بك الأقدام حين التزاحم — كما قيل مؤخراً باحمال صلها بلفظ بك في اللغة الآرامية عمني البيت .

وتعددت أوصاف مكة بعد ذلك فى المصادر العربية ومن أهمها فيما هو مشهور : أم القرى والبلد الأمير والقادس والمقدسة والعرش وأم الرحم . . إلخ .

ولم يجد الأخباريون والمؤرخون القداى ما يقال عن سكان مكة الأوائل من فبل عهد إسماعيل إلا احمال نسبتهم إلى العماليق وهم الأقوام شبه الأسطوريين (الذين ردتهم أنساب التوراة إلى عملاف بن أرفخشذ بن سام بن نوح – على حد قولها). ويبدو كما روى المفسرون أن انكشاف بئر زمزم بعد اختفائها وتفجرها بالماء كرامة لهاجر وإسماعيل قد أغريا بعض الجماعات العربية التي كانت تمر بها على النزول عندها بعد أن كانت تتجاوزها من قبل لشدة جدب أرضها وشح مائها. وكانت جرهم القحطانية أو بطن منها من أولى هذه القبائل ، وقيل إن إسماعيل أخد عنها لغنها أو لهجتها العربية من أولى هذه القبائل ، وقيل إن إسماعيل أخد عنها لغنها أو لهجتها العربية

الجنوبية إلى جانب لغة أبيه الأمورية أو الآرامية ولغة أمه المصرية ـــ وربما زوجته المصرية أيضاً ـــ وتناسل له إثناعسرولدا ظلوا يلون أمرقومهم وخدمة البيت الحرام حتى نافسهم فيها أبناء خوولتهم من جرهم بعد أن تلاحقت بطونهم إلى مكة ، وأزاحوهم فتفرقوا حولها وأسفلها .

ولم يلبث الجرهميون بدور هم أن فاجأتهم هجرة للأزدمن اليمن وعلى رأسها خزاعة فأزاحتهم إلى ظاهر مكة كما أزاحوا هم أبناء إسماعيل وبطون كنانة من قبل ، وتعرقوا حولها وفي تهامة .

وولى عمرو بن لحى كبير خزاعة الحكم وشئون البيت . ولأمر أو آخر نسبت الروايات العربية إليه (أو إلى عمرو بن ربيعة المعروف بعمر بن يحيى) أنه بدل دين إبراهيم وأدخل عبادة الأصنام واستقدم بعضها من جنوب الشام. وعمل على إقامها حول الكعبة ، ربما ليغرى أتباعها بزيارتها والإئتناس بها كلما رحلوا إلى الحجاز ، مع تقريب مابيهم وبين شعائرها بعد أن قل وفودهم إليها اتقاء لبغى جرهم وما قيل عن تعديها على قوافل التجارة المارة بها وقوافل الحج القاصدة إليها .

وظل أمر خزاعة فى يدها حنى نجح قصى الجد القديم للرسول عليه السلام، فى فترة مامن القرن الخامس الميلادى، فى تزعم قريش (وقريش بطن من كنانة ، وكنانة من مضر ، أو هى من قبائل تهامة ، كما يقول النسابون) . ويبدو أنها عاشت قبل عهده متفرقة حول مكة فى تهامة أو عاشت لفترة قبل ذلك فى شمال غرب الحجاز حيث اختلطت هناك ببقايا دويلاته القديمة من اللحيانيين والأنباط ومن عايشهم فى أرضهم من جاليات المعينيين والحميريين الجنوبيين ، واكتسبت منهم بعض عناصر حضارتهم ، كما مهرت فى ممارسة التجارة حتى لقد قيل إنها سميت قريشاً لاحترافها التجارة ، والتقرش هو التجمع والاكتساب والتجارة .

وثمة نص للملك الحضرمى إيلعز يليط من حوالى القرن الثالث الميلادى تحتمل دلالته على أن موكب الملك إلى الحصن الملكي أنود قدتضمن عشر نساء قرشيات.

ولو صحت هذه القراءة لزكت قدم قريش واتصال بعض بطونها بجنوب شبه الجزيرة العربية أيضاً .

وسلك قصى زعيم قريش سبيل السياسة أولا فأصهر إلى زعيم خزاعة حتى إذا ما ارتفع شأنه وبان ضعفها انقلب عليها، وربما استعان عليها ببطن من قضاعة قد يكونون من الغساسنة أوبمن والوهم. وأجلى خزاعة عن مكة هم ومن والاهم من بكر فارتحلوا إلى بطن مر فى وادى فاطمة حيث انضمت إليهم فيما بعد بطول من كنانة وخزيمة بن مدركة وحالفوهم ، وأطاق عليهم مع مر الزمن اسم الأحابيش بمعنى الموالى أو شكى ، من هذا القبيل ، وربما عاش فى مجتمعهم جماعات من أصول أفريقية ضمت رقيق التجارة والحروب ومن إليهم .

وضمت قريش حضراً وبدوا . وعاش حضرها فى داخل مكة واقتسموها أرباعاً ، وسمح لهم قصى بالبناء حول الكعبة بعد أن كان الجرهميون والحزاحيون يقيدون على مسافة منها — وهولاء هم قريش الأبطح (وهو واد بمكة) أو قريش البطاح (أى المناطق المنخفضة) . وكان منهم أغلب التجار وأهل التراء . وانتشرت بطون أخرى من قريش بحارج مكة وتوزعت فى الشعاب والمرتفعات ... وهولاء هم قريش الظواهر ، وكان منهم أهل سطو وإغارة .

وجمع قصى بن رئاسة الحكم فى مكة وبن شعائر الحرم ، وولى أمر السقاية والحجابة والرفادة واللواء . وعمل على تجديد بناء الكعبة وتسقيفها . ولكنه مع ما اجتمع له من رئاسة أمور الدنيا والدين فى بلده ، قد حافظ على التقاليد القبلية فى نظام حكمه ، وأقام داراً للحكومة والمشورة عرفت ، أو عرفت مثيلها في بعد ، بدار الندوة لتكون منتدى للملأ من قومه وروساء العشائر المشهود خم بالكفاية والفضل ممن تحطوا سن الأربعين ، وكانوا يتشاورون فها فى المعاملات الكبيرة وأمور الحرب وإقرار السلم وعقد ألوية البعوث ، ورعما عقدوا فها عقود زواج أشرافهم أيضاً . ولعلها أشهت حينداك مجلس المسود السبأى أو القتبانى والمعيني القديم . وقد

بلغ من شهرتها أن رأى فها بعض المستشرقين والكتاب الحديثين صورة من صورالتنظيم الجمهورى الذى بجمع بين خصائص الارستقراطية وخصائص الديمقراطية ، بل وشبيها بإكذريا أثبنا القديمة . ومالبث أبناء قصى وخلفاؤه أن اقتسموا مختلف صلاحياته الدينية والدنيوية عن تراض حيناً وبالتنافس حيناً آخر .

وعوضت قريش قلة إنتاجها الزراعي والصناعي بالتوسع في التجارة المحلية والعربية وكان من سلعها التي تتاجر بها بين العرب: الأدم والزبيب والصموغ والتبر والحرير والبرد اليانية والثياب العدنية والأسلحة . وانتفعت في ذلك بالأسواق الكبرى التي كانت تعقد بالقرب منها في مواقيت متعاقبة من الأشهر الحرم لضمان أمنها . ومنها أسواق عكاظ ومجنة وحباشة وذو المحاز وغيرها .

ومند أوائل القرن السادس الميلادى سنحت الفرص أمام قريش وأهل الحجاز للعمل باسم العرب على نطاق واسع ، وهم بمنأى عما تدخلت به وأدت إليه أطماع الحبشة والبيز نطين والفرس فى شئون اليمن والحيرة وغسان. وقامت مكة بالدور الأكبر فى هذا السبيل ، وانتفعت فيه بتوسط موقعها فى قلب الحجاز وبعدها النسبي وحصائها الطبيعية ، وحرمها الدينية ومنزلها الروحية بين عرب الشمال وعرب الجنوب، فضلا على سابق خبرتها بالتجارة والوساطة التجارية بين ممالك اليمن والشام .

ومن أجل تنشيط هذا الدور والحروج به من دائرته الإقليمية اتجهت بعوث روساء مكة إلى العالم الحارجي لعقد المعاهدات التجارية مع الدول الكبرى في أيامهم . وهكذا نسب إلى هاشم بن عبد مناف أنه آلف ملك الشأم ، أى حصل على إيلاف أو عهد من قيصر الروم أو ملك غسان الممثل له في جنوب الشام لتنشيط التعامل مع قريش وتأمين تجارتها في ممتلكاته ، كما اكتسب مودة أحياء العرب وأمراء الشام المحليين لاسيا في أيلة وغزة والقدس حتى بصرى في حوران إلى الجنوب الشرقي من دمشق .

وقيل إن إخوة هاشم فعلوا بالمثل ، فعقد نوفل والمطلب إيلافا مع دولة.

الحيرة و دولة العرس و دولة سبآ و حير و دى ريدان . و ركز عبد شمس على إيلاف الحبشة و شرق أفريقية . و بهذا اجتمع لقريش إيلاف رحلة الشتاء والصيف . وحلة الشتاء إلى النمن والحبشة الو العراق . و رحلة الصيف إلى الشام . وقيل إن من قوافلها ما كان يضم ألف بعير . ومنها مايضم مايزيد عن الألفين. وأخذت هذه القوافل بنظام المشاركة نحيث يسعم فيها القادرون من الأسر والأفراد وقد يكون لهم فيها وكيل أو شريك أو أجير ، تحت رئاسة شخصية كبرة تقود القافلة وتعمل على حايتها .

ولم تقتصر مكة على بعلونها القرشية الكبيره وحدها وإنما تضديت معها أعدادا ممن كانوا يقيمون فيها لفترات موقتة أو دائمة من تجار الحبشة والفرس والروم (أو من أملاكهم) . وكانت تفرض المكوس والعشور عليه وما يقابل أمنهم وخفارة متاجرهم . ولنشجيع نزلائها من حلفاء وموال وحجاج وتجار . أقام سادة مكة فيا بنهم حلف الفضول على ألا يظلم فى رحاما قريب أو غريب . ولا حر أو عبد . إلا وكانوا معه حتى يأخلوا له بحقه من أنفسهم ومن غيرهم . وقد امتدح الرسول عليه السلام فكرة هذا الحلف وأثنى علها .

ومع توالى الاتفاقات التجارية مع أقيال اليمن وأمراء اليمامة وملوك غسان والحيرة توسعت قريش فى التجارة المباشرة ومتاجر الوساطة . وهكذا تحدثت الروايات العربية عن خفارة قريش للطائم ملوك الحيرة إلى عكاظ وكانت تتضمن المسك والمنسوجات وكثيرا من المصنوعات . كما تحدثت عن تصديرها بضائع اليمن ومايصلها من الهند من العطور والجلود والمنسوجات والسيوف إلى بلاد الشام حيث تستورد عوضا عها أنواع الحبوب والزيوت والحمور والجوارى .

وكما انتفعت مكة بتجارة البر انتفعت كذلك وإلى حد ما بتجارة البحر الأحمر وما يحمله من متاجر شرق أفريقية والمحيط الهندى ، عن طريق مينائها الشعيبة التي بقيت حتى عبد عثمان حيث سأله أهل مكة أن ينقل الساحل من الشعيبة إلى جدة لقربها منهم فأمر به، وكانت تقم في جون من البحر ويصلها

التعجار والوسطاء البحريون من مصر والحبشة والصومال ، فينقلون المتاجر منها وإليها ، كما كانت تمير منها سفن الروم . وأغنت هذه الميناء مكة عن أداء المكوس لموانى البمن وغيرها من الموانى الخارجية .

ومضت الأمور سراعا فى مصلحة مكة وحلفائها لسد الفراغ التجارى الناشىء من تعاقب الاضطرابات السياسية والدينية فى بلاد البمن منذ حوالى عام ٥٣٠ م خلال الصراع بين أنصار الديانتين اليهودية والمسيحية والتدخل الحبشى فيها ، نم فشل الحبشة وحلفائها فى تعويص تناقص سفن الروم فى نجارة البحر على نطاق واسع . مع تخلخل أمن الطرق التجارية فى الهلال الحصيب بن العراق والشام خلال الحروب البيزنطية الفارسية .

ولم ينج ازدياد نشاطات مكة وحلفائها من العرب الشماليين من إجراءات مضادة ضمنية ومباشرة ، لوأدها قبل استفحالها ، من قبل اليمن والحبشة وبمزنطة .

وتمثلت الإجراءات الضمنية فى تزكية حملات التبشير بالمسيحية فى أرجاء اليمن وتأييد الحبشة وبيزنطة لها . وبطبيعة الحال لم يكن فى انتشارها من بأس اولا أن رأت مكة فى هذا الانتشار مايهدد مكانتها الدينية بين العرب الجنوبيين . وقد سلفت الإشارة إلى تسمية كبرى كنائس جران وصنعاء حينذاك بتسمية الكعبة اجتذابا لمشاعر العرب وصرف ولائهم عن حرم مكة إليها . ولم تنجح هذه الخطوة كثيرا فى صرف العرب الجنوبيين عن البيت الحرام ومقام ابراهيم ، أو صرفهم عن عباداتهم الوضعية القدعة .

وأما الإجراءات العسكرية المباشرة فأشهرها هو ما روته بعض المصادر العربية عن حملة ضد مكة قادها من يدعى حسان بن عبد كلال من أقيال اليمن . وقد أسر وباءت حملته بالفشل .

وكانت حملة أبرهة الحبشى ملك سبأ وحمير ضد مكة وحرمها المقدس فى عهد عبد المطلب بن هاشم حوالى عام ٧٠٥م هى الأكثر إعدادا وأشد وقعا. وقد أسلفنا فى الفصل العاشر أنها قد تفسر بطموح أبرهة إلى مد سلطانه إلى غرب شبه الجزيرة ووسطها وشمالها ، ورغبته في استعادة سيطرة اليمن على شريان التجارة الرئيسي الذي أوشكت مكة (ويترب) على احتكارمكاسبه . أو تفسر بالتعصب الديني ورغبته في المشاركة بصورة ما في الحرب البيز نطية الرابعة عشرة (٥٧١ – ٥٨٠م) والاستجابة فيها لدعوة الروم إلى التضييق على المصالح التجارية لأعدائهم الفرس عن طريق ربط مصالح الدولة المسيحية الجديدة في اليمن بالدولة الغسانية المسيحية في جنوب الشام ، باعتبارهما جميعاً من حلفاء بيز نطة و فشلت حملة أبر هة بما سبق التعفيب به في العصل نفسه - وعوضا عما طمع فيه من إضعاف مكة و هدم كعبها ، أصبح فشله فيها من عوامل از دياد شهرتها .

وعندما انقضى عهد ولديه القصير ، ونجح سيف بن دى يزن فى إجلاء الأحباش عن اليمن بمعونة الفرس ، ترأس عبد المطلب شيخ قريش وفدها لتهنئته . وقرن زيارته بتجديد اتفاقيات مكة التجارية مع كبار أقيال اليمن وأمراء اليمامة . كما جدد من ناحية أخرى اتفاقياتها مع ملوك غسانوالحيرة .

وأضافت بعض المصادر العربية نبا عاولة دبلوماسية استراف البرز الهيون منها ضمان ولاء مكة أو تبعيتها السياسية لهم ، حيث أيدوا أحد مادة قريش وهو عمّان بن الحويرث وكان قد عدل عن الوثابية وتنصر اليكون ملكا على مكة من قبلهم . وروى أنه جمع كبار قومه ولوح لحم بقوة ببصر الروم وثرائه ، وسيطرته على مجالات التجارة فى أملاكه . ولكنهم وغضوا وعده ووعيده ، ورفضوه هو أيضاً . وكان فى بعدهم عن تناول الروم وحاجة الشام إلى وساطتهم التجارية ما أنجاهم من أى رد فعل خارجى مباشر .

ومع هذه التجارب ظلت قريش توثر الحياد بين القوى الكبري والمتنازعة فى عصرها ، كى تضمن أمن تجارتها وأمن حجيجها ، ولكى بزداد المتعاملون معها . ووقفت فى منتصف الطريق ما استطاعت بين عرب الشمال وعرب الجنوب ، وبين الحيرة وغسان ، وبين الفرس والروم .

وليس كثيرًا ما ارتآه البعض من أن اتساع الأهمية الدينية والتجارية

لمكة قد جعل منها ملتقىلقوى العرب المتفرقة وبداية لجمعهم فى إطار واحد ذى تقاليد قومية مشتركة .

ويحكم طابعها الحضارى ونشاطها وأسفارها الخارجية ، اتسعت مكة لأخلاط كثيرة من العقائد الوضعية والعقائد الكتابية والحنيفية . وأخلاط أخرى من طوائف العرب والأجانب أحرارا وموالى وأرقاء وجوارى ، ما أثرى لغتها وثعافتها . وأشاع فيها عملات وأوزانا وصناعات فارسية وبمنية . ومن طريف ما يروى أن نجارا أوبناء قبطيا (أى مصريا أو روميا بالتبعية) يدعى باخوم اشترك في إعادة بناء الكعبة المشرفة بعد أن تطلب بيانها إصلاحه قبيل عهد البعثه النبوية ، فصع لها سقفا مسطحا برتكز فيا روى الأزرق على دعائم وعمد . وكانت قريش قد استخدمت لها أخشاب سفينة حبشية أو رومية دفعها الريح إلى ساحل الشعيبة حيث عطبت فركب إلها جماعة من قريش وأخذوا خشها .

ولم يكن سلام مكة سلاما مطلقاً أو دائما ، ولم تكن تستطيع أن تنأى بنفسها عما يحيط بها من نزعات قبلية وروح جاهلية . فتعرضت لحروب متقطعة أرخت المصادر العربية بآيامها تذكرة بسوء ماحدث فيها ، ومنها حرب الفجار وعام الغدر ، وقد انتهكت فيهما الشهور الحرم ذاتها .

ولم يكن ثراء المكيين وتنوع طوائفهم المحلية والطارئة بغير أثر سيء تمثل في اتساع الهوة ببن مختلف طبقاتهم . وفي تحبر بعض روسائهم وشيوع المفاسد بين مترفيهم . فضلا على تباعدهم سيئا فشيئا عن الدين القويم وأخلاقياته ، وهو ماتصدت الدعوة الاسلامية له فيما بعد بالإصلاح والتقويم والتغيير ، ونشر التوحيد ، وهو ما يخرج بحثه عن نطاق دراسات العصه راتقديم .

مدينسة يسترب

لمدينة يترب كيان قديم كفله لها تعدد أو دينها وعيونها وآبارها ، وخصوبة تربتها ، وبالتالى وفرة أرباضها ومزارعها ، مع كثرة إنتاجها وسكانها كثرة نسبية . وأهمية أسواقها المحلية والموسمية ، فضلا على موقعها قرب شرايين التجارة الرئبسية البرية والبحرية وتعاملها بالتالى مع متاجر اليمن ومصر والشام .

وتقع يترب فى مهاد من الأرض ذات لابات أو حرار سبخة . أهمها حرة واقم وحرة الوبرة وحرة قباء . وهى مفتوحة الحدود . وأقرب الجبال إليها جبال أحد وعبر ، وسلع وسليم . وهى ذات ارتفاعات متباينة .

وانتفعت يثرب بميناء الجار في عمليات التصدير والاستيراد المناسبة لعصرها القديم ، وكانت تصل إليها وتخرج منها بعض متاجر عدن وشرق أفريقية والهناء ومصر - وبلغ من شهرتها القديمة أن سمى الساحل المهمد منها إلى خليج أيلة بساحل الجار لفتره من الزمن - ولعلها هي البريكة الحالية التي عمرت لفترة طويلة من العصور الإسلامية - وجاورتها جزيرة صغيرة كانت ترسو عليها سفن الحبشة بخاصة . وظلت الجار كذلك حتى حدت علها في الأهمية ميناء ينبع .

وعثر فى جبل المكتب خارج المدينة على نصوص قديمة لم يتم خبا بعد، كما عثر فى جبل الصويدرة على مبعدة منها على نصرص تمودية وصور حيوانات منقورة . وعثر فى داخل المدينة نفسها عن طريق المصادفة وحلال حفر أساسات بعص المبانى بالمناخة وغيرها على بفايا عمران سابق لم يتيسر تحديد عهده .

واحتفظ الأخباريون المسلمون لمدينة يثرب بأساء كثيرة تواوحت عدتها في مؤلفاتهم بين العشرة ، والأحد عشر ، والتسعة والعشرين ، بل والأربعة والتسعين ، وكانت في اغلبها صفات قد يسهل تفسير القليل منها وتعليله ، بينها تصعب معرفة مدلول الكثير منها أو تحليله ، وكان اسم يثرب من أقدمها .

أو هو أثرب، وقد يكونان لهجتين لمسمى واحد كان يشغل جزءاً من المدينة غرب مشهد حمزة الحالى، ثم عم عليها . ومن الأهمية بمكان أن ذكر نص للملك نابولهيد آخر ملوك ابابل الكلدانية فى منتصف القرن السادس قبل الميلاد ، اسم « أتربيو » فى نهاية توسعه بجيوشه فى أرض الحجاز ، وخلال محاولته السيطرة على عواصم الطريق التجارى الكبير بين غرب شبه الحزيرة وبلاد الشام . وحدث هذا التسجيل بطبيعة الحال بعد نشأة يثرب فها قبل القرن السادس ق . م بعهو درطويلة .

وتضمنت بعض النصوص المعينية القديمة اسم يثرب أيضاً ، كما ذكره الرحالة بطلميوس السكندري في منتصف القرن الثاني للميلاد . بصيغي المتحالة بطلميوس السكندري في منتصف القرن الثاني للميلاد . بصيغي المتحالة المدانية بيرب ، وذلك بما يدل على أنها كانت قد استحملت الطابع المدني وتميزت به عما حولها من أراضي الزراعة ومضارب البدو . وتأيد هذا في تسميها العربية ، المدينة » التي قد تعبر عن هذا التحول ، وتكون عربية الأصل ، إن لم تكن مشتقة من لفظ أراى قديم عبر العبر انيون عنمه بصيغة مدينتو أو مدينتا بنفس معناه العربي أو بمعني الحمي . وعندما دخل الإسلام يثرب استحب الرسول لها اسم المدينة وصفة طيبة أو طابة — دون اسم يثرب الذي قبل إنه قد يعني الفساد أو التثريب أي طابة — دون اسم يثرب الذي قبل إنه قد يعني الفساد أو التثريب أي المؤاخذة بالذب . وشاعت للمدينة صفات أخرى من أعمها : أم قرى المدينة ، والجارة والمحبرة والبحرة والبحرة . . إلخ .

أدى خصب يثرب وثراؤها النسبي إلى كثرة عمرانها ، وأدى موقعها والظروف التي مرت بها إلى تعدد طوائف سكانها . وهي طوائف يصعب تحديد مسمياتها الأولى ، ولم يجد النسابون لديهم إلا أن يجعلوا من أقدمها طائفة العاليق ذات الصبغة شبه الأسطورية ، كما أشاروا إلى بطون متأخرة من جذام وبلي وسليم ومن قبس عيلان وغيرها ظلت بقاياها خارج المدينة حتى العصر الجاهلي ، وربما كانت في الأصل بداخلها حتى غلبا غيرها على أمرها وأخرجها منها . وفازت بالشهرة أكثر منها قبائل ذات أصول قحطانية

اختلطت بالعدنانية، وبقيت منها في العصر الجاهلي طوائف الأوس والخزوج ببطونها الكثيرة. وجاورتها طوائف عبرية بقي منها في العصر الجاهلي أيضاً بنو النضير وقينقاع وقريظة ، وبطون غيرها صغيرة . واعل ما يقال عن تداخل الجاعات ذات الإصول القحطانية والعدنانية في يثرب يشبه ما كانت الحال عليه قديماً في لحيان وتياء وغيرها من حيث نزول جاليات تجارية عربية جنوبية معينية وسبأية في أرضها لكي ترعي المصالح التجارية لدولها الجنوبية ، ولما طال المقام بها اختلطت وتصاهرت مع السكان الأصيلين من العرب الشماليين ولكن النسابين ظلوا يردونها إلى أصولها القحطانية أو الجنوبية الأولى من حين إلى آخر .

وكان من الطبيعي أن تهتم طوائف المدينة بحماية حدودها وأرباضها ومزارعها بتحصينات صناعية تمثل أكبرها في الآطام (جمع أطم)، وعرفت صغارها باسم الصياصي . وبني بعضها من اللبن وبني بعضها الآخر بأحجار صغيرة أو كبيرة، وزودت بأبراج كما احتوت على آبارو نحازن بحيث بحتمى بها أهلها حين الغارة، ويتحصن بها الشيوخ والنساء والصغار حين خروج رجالها إلى الحرب. وكما كانت ليثرب حصونها العامة كانت لكل طائفة من سكانها حصونها الخاصة نتيجة فيا يبدو لعدم خلوص نوايا بعضهم للبعض الآخر.

واهتم رواة اليهود وكتابهم بتاريخ طوائفهم في يثرب اهماما كهيراً لا يخلو من الغرض وتخيلوا لها ماضياً بعيداً تباروا في القول ببدايته منذ أيام موسى وهارون في القرن ١٢ ق. م ، أو بعد انتصار داود على معارضيه في القرن العاشر ق .م ، أو بعد سقوط مدينة السامرة الإسرائيلية أمام الغزو الأشورى في عام ٧٢١ ق. م ، أو بعد تدمير البابليين لأورشليم وهيكلسليان في عام ٥٨٥ ق. م ، أو بعد قضاء القائد الروماني تيتوس على ثورة اليهود الأولى وتخريب معبدهم في عام ٧٠٠ م ، أو بعد القضاء على ثورتهم الثانية في عهد الامبراطور هادريان بين ١٣٢ – ١٢٥ م ، أوهم قد حموا بين أشتات من كل هولاء . ومع وضوح الشك في هذا الخليط الكثير من الآراء وجد أشتات من كل هولاء . ومع وضوح الشك في هذا الخليط الكثير من الآراء وجد آذاناً صاغية عمن أخذوا عن الإسرائيليات وصدقوا رواتها باعتبارهم من أهل آذاناً صاغية عمن أخذوا عن الإسرائيليات وصدقوا رواتها باعتبارهم من أهل

الكتاب والكتابة لا سيا وأنه لم تظهر الأسف لعرب يثرب القدامي كتابات أصيلة تتحدث باسمهم حتى الآن .

وافترض بعض المؤرخين من القدامى والمحدثين رأيا وسطاً ، احتملوا فيه أن يكون بهود يثرب أو أغلبهم من العرب المحليين الذين قد يرتد نسبهم إلى الجنوب ، وأنهم بهودوا في يثرب حيما بلغتها الدبانة اليهودية بطريقة ما شأنهم في ذلك شآن من تهود من عرب تياء وتبوك ووادى القرى وعرب اليمن أيضاً . وزكوا هذا الفرض بماقيل من أن هؤلاء اليهود المحليين لم يكونوا يعترفون بالتلمود كله ، وأن معارفهم الدينية كانت محدودة بحيث أنكر عليهم بعض يهود الشام في القرن الثالث الميلادى صدق يهوديتهم ، وربما انضمت إليهم أشتات صغيرة مهاجرة من الإدوميين مثلا بعد أن دولتهم (حيث وجدرأى ينسب بني قينقاع إليهم) ، ولم يكن هؤلاء وهؤلاء كثرة كبيرة ، وإنما قدر عدد رجالهم في إحدى المناسبات بمالايزيد عن الألفن .

وكانوا يتحدثون بعربية تداخلت فيها ألفاظ ومسميات عبرية اكتسبوها من التوراة أو ممن معهم من اليهود الطارئين، وقام لهم بيت يسمى بيت المدراس كان من المفروض أن يتدارسوا فيه أمور دينهم ويفصلوا فيه فى قضاياهم . ومع عربيتهم أو استعرابهم عاشوا فى أحياء محدودة ومجتمع مقفل عليهم . وقد أسلفنا فى الفصل العاشر كيف ربط بعض الأخباريين بين الملك أب كرب أسعد ملك سبأ وذى ريدان وبين يهود يثرب مرة بدخولهم إليها فى عهده (فى بداية القرن الحامس الميلادى) ، ومرة بامتداد نفوذه إليها حينا توسع فى نواحى معد والحجاز ، ومرة برحلته إليها وتهوده ، ومرة بتعيينه أحد أولاده علما حيث قتل بعد رحيله عنها . . . إلخ .

واعتبرت الروايات العربية الأوس والخزرج أخوين من الأزد وقضاعة هاجروا إلى يثرب بعد سيل العرم وخراب سد مأرب باليمن ، وهو توقيت غير محدد بزمن صريح حيث تخرب سد مأرب فى أكثر من عهد ، وأصلح أكثر من مرة كما سبق التنويه بذلك فى الفصل الرابع . ولهذا تباينت آ راؤهم

فى توقيت هذه الهجرة بالقرن الثالث أو أواخر القرن الرابع ، أو فى القرن الخامس للميلاد .

ومرة أخرى أشاعت الروايات العبرية وما تأثر بها أو وافقها من الروايات العبرية أن الأوس والخزرج اكتفوا فى بداية الأمر بحياة متواضعة فى يثرب قى مقابل كثرة استغلال يهودها للتجارة والصناعة . وعمل بعضهم فى الزراعة وتعاقدوا فى حلف مع اليهود ليومن بعضهم بعضا . ووجد اليهود فى هذا الحلف ما يزكى وجودهم ويكفل لهم معونة الأوس والخزرج فى الدفاع عن يثرب والقيام بدور الوساطة بينهم وبين من حولهم من عرب وأعراب .

وشبئاً فشيئاً أثرى الأوس والخزرج وتحسنت أوضاعهم . ورأى بنو قريظة والنضير الحيلولة دون استفحال أمرهم فأهدروا حلفهم معهم واستبدوا بهم . وانكمش الأوس والخزرج زمناً حتى استنفر همهم زعيم الخزرج مالك بن العجلان (أو محمرو بن النعمان) وسعى معهم إلى إسراز السيادة . ويبدو أنه حالف بطوناً من قضاعة في غمان أو في غيرها من جوب الشام، وربما حالف بعض الحميرين أيضاً . ته فاجأ بقه مه وحلفائه الهود قبل أن يعتصموا بصياصيهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وساد هو وقومه يرب في ختام القرن الخامس الميلادي أو بعده بقليل . ورأى بعض الموزخين في ختام القرن الخامس الميلادي أو بعده بقليل . ورأى بعض الموزخين في اليمن ، وأنها تمت في الحالين بناء على تحريض مسيحيي الحبشة في اليه ن ، وبناء على تحريض مسيحيي غسان في يترب . ورأى آخرون العدس . ويلاحظ هنا أن هز بمتهم في يثرب سبقت هزيمهم في اليمن . واستبعد مرزخون ويلاحظ هنا أن هز بمتهم في يثرب سبقت هزيمهم في اليمن واستبعد مرزخون العرب ويلاحظ هنا أن هز بمتهم في يثرب سبقت هزيمهم في اليمن واستبعد مرزخون العرب والمود حينذاك على تضارب المصالح الاقتصادية والرغبة في الاستئنار بالسلطة .

وبعد النصر زاد الأوس والخزرج من عمران يثرب وسمعتها ، وزادوا من آطامها و حصونها . وانتشر الأوس فى بقاع خصيبة من العوالى فى جنوب وشرق يترب ، بينما انتشر الخزرج فى بقاع أقل ثراء فى الأجزاء الوسطى والشالية منها .

وعاش عرب يثرب فى بداية الأمر متحدى الصقوف ، ثم سامت العلاقات فيما بين قبائلهم الرئيسية ، وفرق التنافس الاقتصادى والسياسي وحدتهم ، حيث أخذ الأوس على الحزرج استئثارهم بالسيادة السياسية ، بينما أخذ الحزرج على الأوس استئثارهم بأهم النواحى الاقتصادية .

وعمل الهود من حين إلى آخر على تأجيج نار الفتنة بين الفريقين ، وتأليب فريق مهما على فريق . وهكذا تكررت أيام الجروب بين الأوس والحزرج حيى هزموا في حرب بعاث التي سبقت هجرة الرسول إلى يترب بنحو خمس سنين. وقبيل وصوله إليها كان الأوس قد جمعوا كلمتهم برئاسة أبي عامر بن النعمان ، بيما أعاد الحزرج تنظيم صفوفهم برئاسة عبد الله بن أبي بن سلول وأعدوه ليكون ملكاً على يترب كلها .

وكما تنافس الأوس والخزرج واليهود خفية وعلانية في يثرب ، تنافست مكة ويثرب في شئون التجارة والاقتصاد وزعامة عرب الحجاز . وكانت أولاهما كما سبق القول عنها تغلب فيها العدنانية ، وجدب التربة ، وثراء التجارة الخارجية ، وحرمة البيت ، ببنا غلبت في يثرب الأصول القحطانية الخليطة وخصب التربة وكثرة الإنتاج مع النصيب الأقل من التجارة الخارجية .

من المؤلفات المختارة في دراسات الفصل:

أحمد إبراهيم الشريف : مكة والمدينة فى الجاهلية وعصر الرسول -- القاهرة ١٩٦٥ . سعد زغلول : فى تاريخ العرب قبل الإسلام -- بيروت ١٩٧٥ .

عبد القدوس الأنصارى : آثار المدينة المنورة -- ١٩٧٣ .

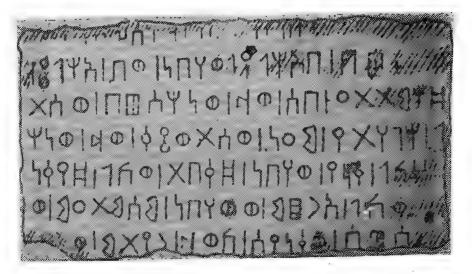
على حسني الحربوطلي : الكعبة على مر العصور -- القاهرة ١٩٦٧ .

. ١٩٧٢ . المدين السمهودي : خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى - المدينة المنورة ١٩٧٢ . O'Leary, de Sacy, Arabia before Muhammad, I. 1927.

Shahid, I., Pre-Islamic Arabia, in CHI, I, 1970.

Smith, S., Events in Arabia in the 6th century A.D., BSOAS, 1954.

البحرالمتوسط 7:71 8000 0 E1 20 التوشاري الزفريع المون المعيد بي الحيط الهندى



ا _ نموذج لنصب نقشت حروفه بالخط المسند (من مدائن صالح)



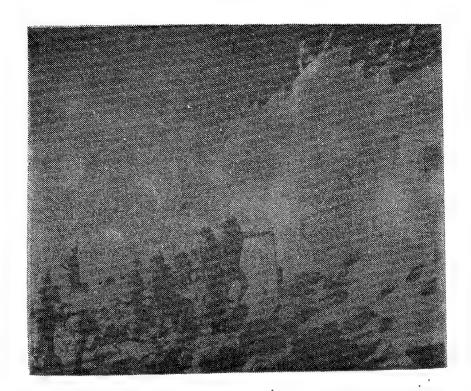
٣ ــ نص بالخط النبطي المطور للملك أمرىء القيس بن عمرو .



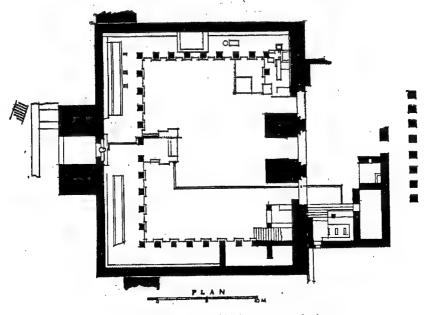
ー・ としっしいい ア



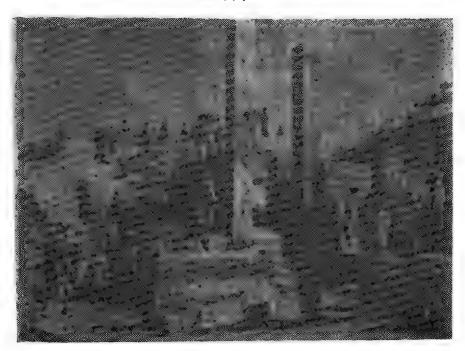
} _ من فتحات الحوض الابسر لسد مأرب



· السور الخارجي لمعبد المقه في أوام (محرم بلقيس في مارب)،



٦ - تخطيط بهو مدخل المقه (محرم بلقيس)



٧ - جزء من معبد المقه ١ محرم بلقيس ٢



. ٨ . - سهو الاعمدة والنوافذ الصماء في معدد المقه



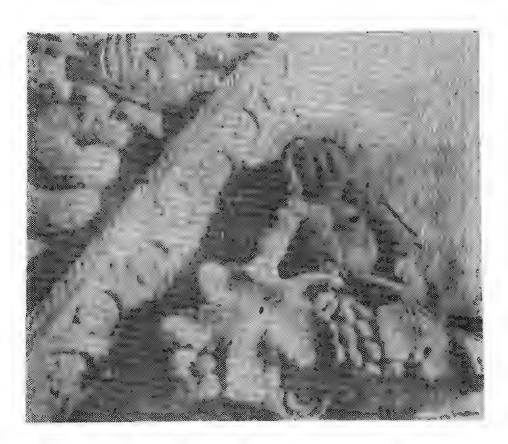
۹ ــ عماید معبد برآن فی مآرب



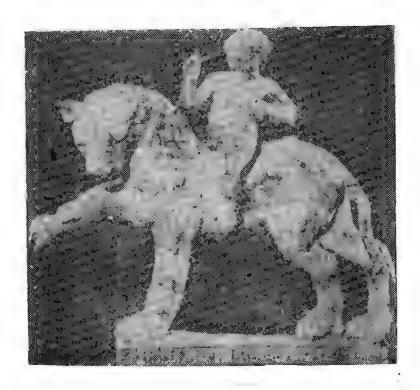
١٠ ــ تمثال من البرونز للشريف السبئي معدى كرب



١١ ـ واجهة معبد المساحد



١٢ ــ ماذج من النقوش المجسمة (في مارب)



١٣ ـ احد تمثالين اسطوريين كانا يقومان قرب بوابة تمنع عاصمة قتبان



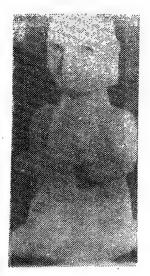
١١ _ نموذ ﴿ مِنْ مِنْ البحب في ضبان احيان مِن أسرة حيفمة ا



١٥ - حانب من البواية القديمة لمدينة بمنع عاصمة فسار



17 ـ الما المحالة العالم ا



١١٠ أ ... نموذج من تماثيل الرجال في الفن العربي القديم .

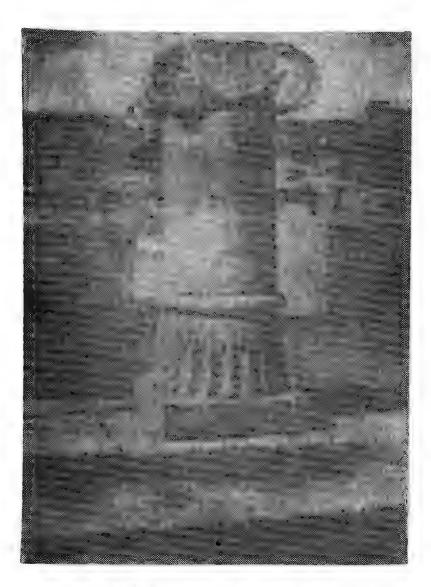


١٠١ ب عدد بام دراس من المرمر في قتبان .

_ 677 _



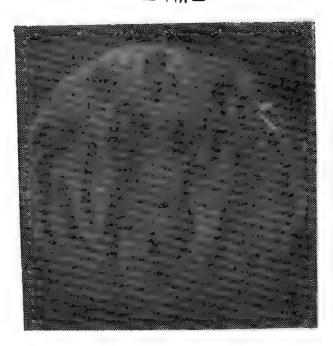
١٨ ـــ من مقابر الأنباط في مدائن صالح

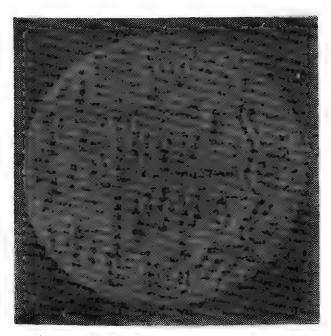


١٩ ـ أسطون حجري في معبد فبلكا بالكونت



.٢ - حلبة سائمة في المحر تعلو معبد فيلكا





٢١ - ٢٢ - نموذجان من اختام الخليج المسمدس ة

من المؤلفات العامة المختارة عن التاريخ العربي القديم

أولندر (جونار):ملوك كندة من أسرة آكل المرار -١٩٢٧–مترجم – بغداد ١٣٥٣ ه . أحمد فخرى : اليمن – ماضيها وحاضرها – القاهرة ١٩٥٧ .

الهمدانی (أبو محمد الحسن) : الإكليل – الجزء الثامن -- نشره نبيه فارس -- بغداد ١٩٣١ . صفة جزيرة العرب -- تحقيق محمد بن على الأكوع – الرياض ١٩٧٤ .

بافقيه وبيستون وروبان والغول : مختارات من النقوش اليمنية القديمة – تونس ١٩٨٥ . بيرن (جاكلين) : اكتشاف جزيرة العرب – مترجم – بيروت ١٩٦٣ .

جامعة الرياض (وعدد من المؤلفين) · مصادر تاريخ الجزيرة العربية · ج ١ ، ٢ - الرياض ١٩٧٩ .

جواد على : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (عشرة أجزاء) – الطبعة الثانية – ربروت ١٩٩٨ – ١٩٧١ .

حور افى (جورح فاضلو) : العرب والملاحة فى المحيط الهندى -- ترجمة يعقوب بكر – القاهرة ١٩٥٨ .

خليل يحى نامى : أصل الخط العربي وتطوره إلى ما قبل الإسلام -- القاهرة ١٩٣٤ . صالح العلى : محاضرات في تاريخ العرب -- بغداد ١٩٥٩ .

عبد العزيز صالح : الرحلات والكشوف الأثرية للعصر الحديث في شبه الجزيرة العربية ـــ إصدار دراسات الخليج والحزيرة العربية ، ٤ ، جامعة الكويت ١٩٨١ .

: المرأة فى النصوصو الآثار العربية القديمة – إصدار دراسات الخليج و الجزيرة العربية ، ١٤ ، جامعة الكويت ١٩٨٥ .

شبه الجزيرة العربية في المصادر المصرية القديمة ، محلة عالم الفكر – المحلد ١٥، ا الكويت ١٩٨٤ ، ص ٢٩٣ – ٣٢٢ .

فيلبس (وندل) : كنوز مدينة بلقيس ــ مترجم ــ بيروت ١٩٦١ .

لانكستر هاردنج : آثار الأردن - ترجمة عمان ١٩٦٥ .

مطهر الإرياني : في تاريخ اليمن - القاهرة ١٩٧٢ .

موسكاتي (سبتينو) : الحضارات الساءية القديمة – ترجمة يعقوب بكر – القاهرة ١٩٦٨ .

نوللكه (نيودور) : أمراء غسان من آل جفئة ـُـ مترجم - بيروت ١٩٣٣ .

نيلسن ، وهومل ، ورودوكاناكيس ، وجروهان : التاريخ العربي القديم – ترجمة فؤاد حسنين – القاهرة ١٩٥٨ .

يوسف رزق الله غنيمه : الحديرة - بغداد ١٩٣٩ .

- Abdel-Aziz Saleh. "Some Monuments of North-Western Arabia in Ancient Egyptian Style", Bull. of the Faculty of Arts, Cairo University, vol. 28, Cairo 1970, 1—31.
 - —, "The Gnbtyw of Thurmosis III's Annals and the South Arabian Gebbanitea of the Classical Writers", BIFAO, 1972, 245—262.
 - -, "An Open Question on Intermediaries in the Incense trade during Pharaonic Times", Orientalia, 42, 3, 1973, 370—382.
 - -, "Arabia and the Northern Arabs in Ancient Egyptian Records", Journal of the Faculty of Archaeology, Cairo Univ., 1978, 2, Part 3, 69-77.
- Albright, W.F, The Archaeology of Palestine, 1962.
 - -, Dedan (Gesch. und Altes Testament). 1953.
- Altheim, F., u. Stiehl, R., Die Araber in der Alten Welt, 1964-68.
- Beeston, A.F.L., A Descriptive Grammar of Epigraphic South Arabian, London 1962.
- Bowen, R.B., Jr., Albright, F.W., Archaeological Discoveries in South Arabia, Baltimore, I-II, 1958. f.
- Branden, A. Van den, Histoire de Thamoud; Les Inscriptions Thamoudéens, 1950; Essai de Solution de Probleme Thamoudéens, BR, 1958. Grohmann, A, Arabien, Munchen. 1963.
- Hammond, Ph, G, The Nabataeans, 1973.
- Philby, H.J.B., The Background of Islam, Alexandria, 1947.
- Phillips, W., Qataban and Sheba, New York 1955.
- Riddle, J.M., Political History of the Nabataeans ..., 1961.
- Shahid, I., Pre-Islamic Arabia, in Cambridge History of Islam, I, 1970.
- Winnett, F.V., A study of the Lihyanite and Thamudic Inscrpitions, Toronto 1937.
- Winnett, F.V., and Reed, W., Ancient Records from North Arabia, Toronto, 1970.
- Wissmann, H. von, Himyar, Ancient History, Muscon 1964, 429-497.
- Wissmann, H. von, Zur Geschichte und Landeskunde von alt-Sudarabien, 1964.





تم الطبع
بمطبعة جامعة القاهرة
والكتاب الجامعي
المدير العام
العبرنس حمودة حسين

(مطبعة جامعة القاهرة ١٠٩٤ / ١٩٩١ / ٢٠٠٠)



